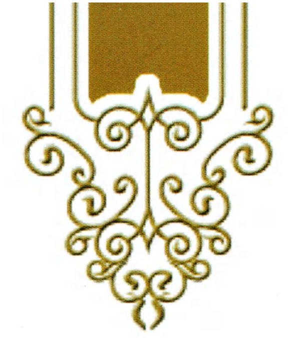




سؤالات الأقوام لأنبيائهم

في القرآن الكريم

الحال والمآل - دراسة قرآنية

أ. الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري

مفكرون
الدولية للنشر والتوزيع

سؤالات الأقوام لأنبيائهم في القرآن الكريم

الحال والمآل

دراسة قرآنية

تأليف

أ. الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م



سؤالات الأقوام لأنبيائهم في القرآن الكريم

الحال والمآل دراسة قرآنية

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/٢١٦٨٥

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٨٠٤-٢١-٠

مفكرون

الدولية للنشر والتوزيع

القاهرة : +201022332041

+201110117447

السعودية : +966541297982

المغرب : +212522452084

MofakrounINT

info@mofakroun.com

www.mofakroun.com

سؤالات الأقوام لأنبيائهم في القرآن الكريم

الحال والمآل

دراسة قرآنية

تأليف

أ. الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري

قدم لها

معالي الشيخ

ناصر بن عبدالعزيز أبو حبيب الشثري

معالي الشيخ

د. سعد بن ناصر الشثري

عضو هيئة كبار العلماء

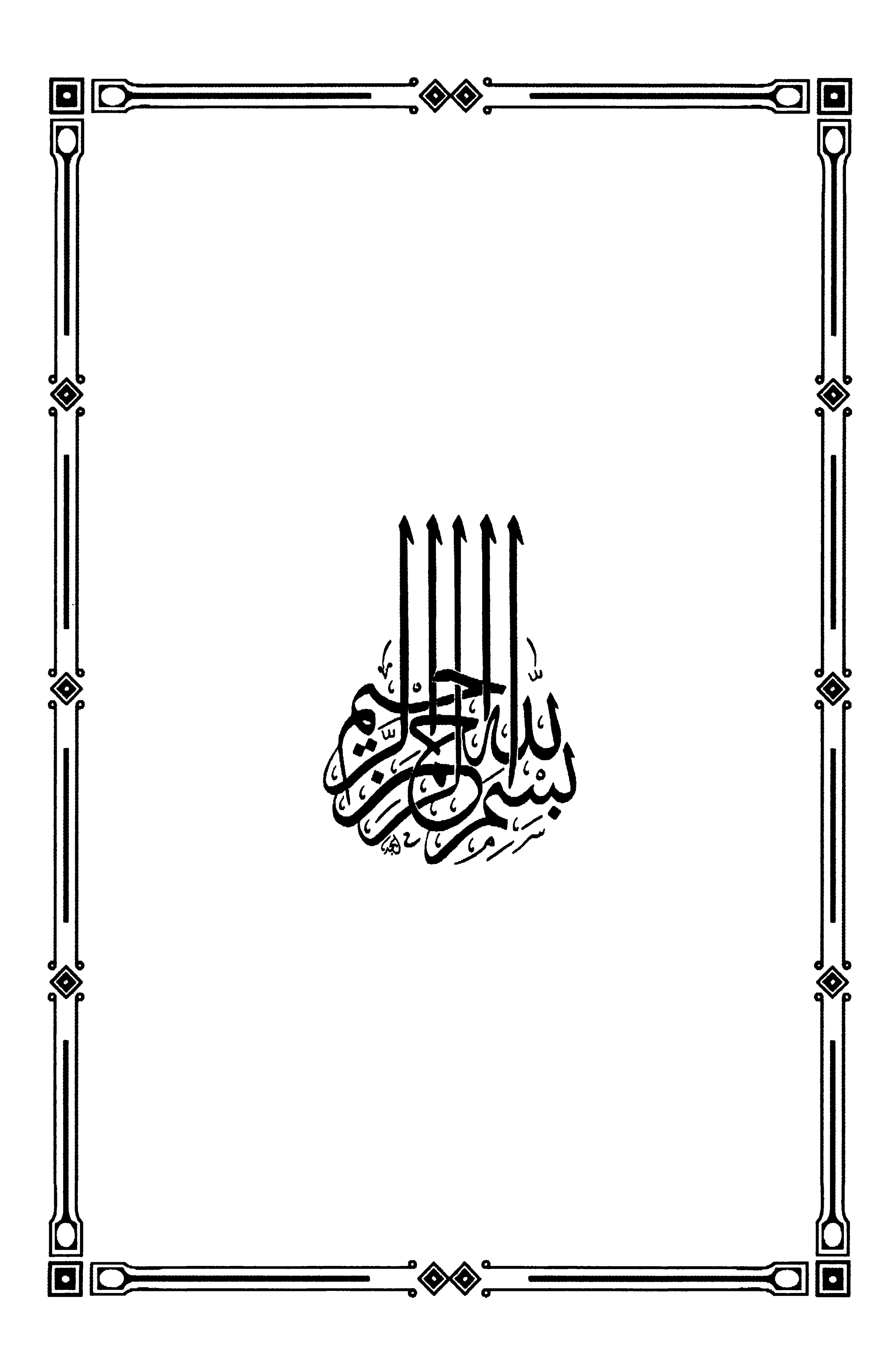
والمدرس بالمسجد الحرام

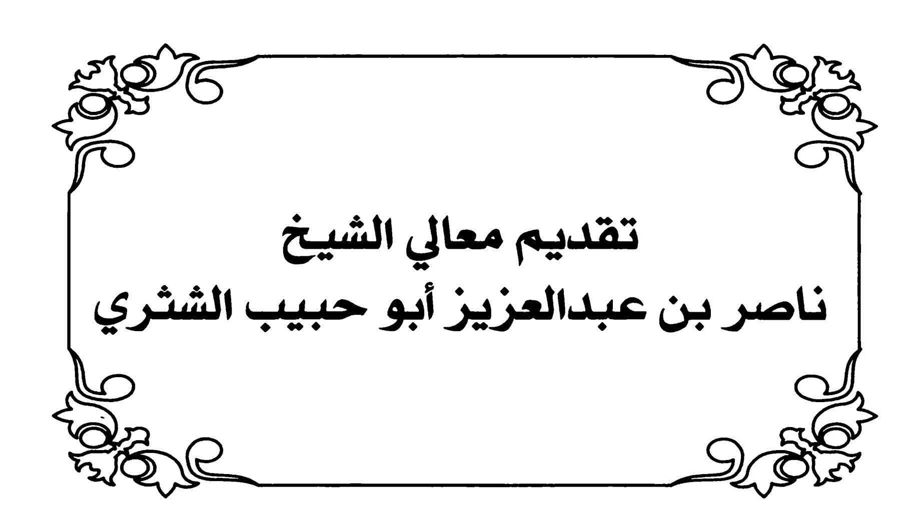
أ.د. زيد عمر العيص

أستاذ في الدراسات القرآنية

ومدير مركز

بينات للدراسات القرآنية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم معالي الشيخ ناصر بن عبدالعزيز أبو حبيب الشثري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، ***أما بعد:***

فإن العاقل يسمو إلى أن يلقى الله ﷻ بحسنات كثيرة أكثر مما يؤديه الإنسان بضم أعمال صالحة ووضعها في ميزانه بواسطة الدعوة إلى الله ﷻ، فإن الداعي يأتي يوم القيامة ومعه حسنات أعماله وأجر مماثل لأجر كل من استجاب لدعوته لقول النبي ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**» وأفضل الطرق في الدعوة إلى الله طريقة أنبياء الله عليهم السلام، ولذا أمرنا الله ﷻ أن نسير على طريقتهم في الدعوة، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقد قصَّ الله ﷻ لنا عددًا من سِيَر الأنبياء عليهم السلام لنستفيد من ذلك، وكان ممّا ذكره الله عن أولئك الأنبياء تلك الأسئلة والاعتراضات التي وجهت للأنبياء عليهم السلام، وكان ظاهر هذه الأسئلة أن الأقوام أرادوا الطمأنينة لصدق الأنبياء عليهم السلام، ولكن حقيقتها

أنها كانت من أجل محاولة تعجيز الأنبياء من أجل تنفير الأمم عن دعوات الأنبياء، ومن أجل صد الناس عن دعوة الحق!

ولا زال دعاة الخير والهدى يتلقون مثل هذه الأسئلة، ولذا حسن بالدعاة دراسة هذه الأسئلة وربطها بتلك الأسئلة الموجهة لأنبياء الله عليهم السلام لمعرفة أنواعها وأسبابها وأهدافهم فيها، والتعرف على الموقف الشرعي تجاه هذه الأسئلة وعاقبة هذه الأسئلة على أصحابها ومصير تلك الأسئلة والمقترحات والآثار المترتبة على هذه الأسئلة من أجل تطبيق ذلك على ما يستجد من أسئلة واقتراحات تطرح على الدعاة في عصرنا الحاضر، فإنّ من أهداف ذكر هذه الأمور في القرآن الكريم أن نطبقها على واقع الدعوة في كل زمان.

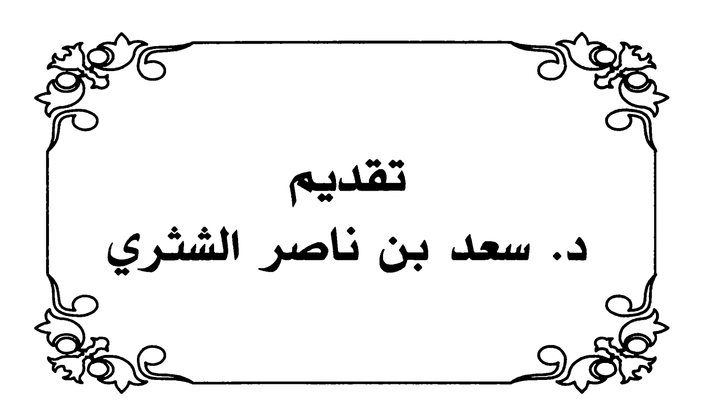
ومن هذا المنطلق:

انبرت البنت الصالحة الخلوقة/**الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري** لبحث هذا الموضوع من خلال رسالتها للماجستير المقدّمة إلى قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بعنوان: **(سؤالات الأقوام لأنبيائهم في القرآن الكريم/ الحال والمآل ـ دراسة قرآنية).**

فأشير على الدعاة أن يضعوها نصب أعينهم وأن يتأملوها، وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذه الدراسة وأن يوفق كاتبتها لخيري الدنيا والآخرة، وصلّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه
ناصر بن عبدالعزيز أبو حبيب الشثري





تقديم
د. سعد بن ناصر الشثري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

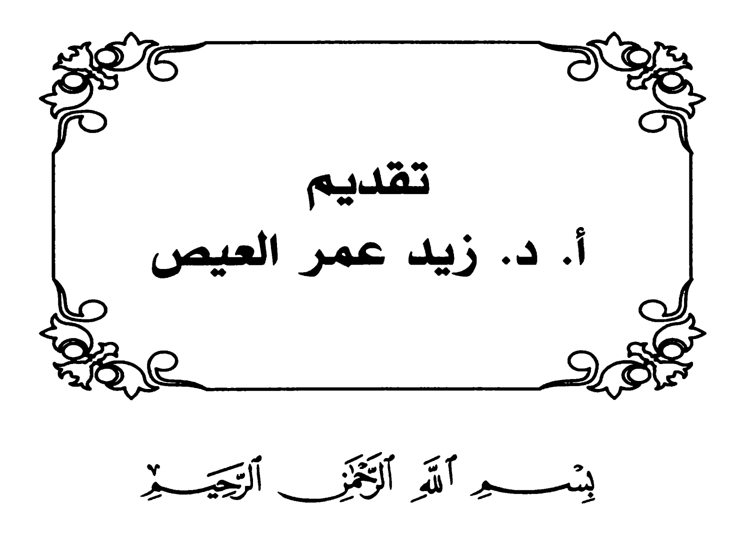
الحمد لله الذي أنزل القرآن العظيم ليكون منهجًا للحياة ونبراسًا للدعاة، تكفّل بأن يبقى صوت الحق مُدَويًّا في كل زمان رغم إلحاد الملحدين وتشويش المفترين وقسوة الطغاة الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله ﷺ، ***أما بعد:***

ففي عصرنا الحاضر كثرت وسائل الإعلام والاتصال والتواصل، فتحتَّمَ على أهل الخير والهدى استعمال هذه الوسائل في إصلاح الخَلق ودعوتهم إلى الهدى وترغيبهم في الأعمال الصالحة رغبة في إرضاء الخالق جلّ وعلا، وأملًا في رفع الدرجة في جنات الخلد، وقد وَجَدتُ مناقشات ومحاورات ومناظرات في هذه الوسائل يجد المتأمل لها أنها صياغة جديدة للأفكار المطروحة في أزمان الأنبياء ﷷ، ولعلّ ذلك هو السبب في كون الله ﷻ يسوق لنا في كتابه الكريم الخالد قصص أولئك الأنبياء كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يُوسُف: ١١١] والمراد بالعبرة أن نقيس أحوالنا على أحوالهم كأننا نعبر

ونجتاز من زمان لآخر، وهذا سر من أسرار خلود القرآن الكريم، ممّا يُحْوجُنا إلى إخراج كنوز هذا الكتاب العظيم وتطبيق ما فيه على واقعنا المعاصر، ولئن كان علماء الأمة قد بذلوا جهودًا مشكورة ومقدّرة في تفسير آيات القرآن الكريم ومحاولة كتابة الفوائد إلّا أنّ جمع شتات الموضوع الواحد من المواضيع القرآنية لَيزيدُ في فهم ذلك الموضوع ويعطي الحلول العملية له، ويمكّن القارىء من النظر إلى جميع النصوص الواردة في الموضوع الواحد والتوفيق بينهما، ولذا كثرت التفاسير الموضوعية في هذا الزمان وخصوصًا في رسائل الماجستير والدكتوراه، ومن هذه الدراسات الموضوعية دراسة الأخت الباحثة/ **الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري** لموضوع **(سؤالات الأقوام لأنبيائهم في القرآن الكريم/ الحال والمآل ـ دراسة قرآنية)** وأصل هذه الدراسة رسالة ماجستير مقدّمة إلى شعبة التفسير لنيل درجة الماجستير، وقد استمتعت بقراءة هذه الرسالة واستفدت منها لتقديمها الموضوع بتقييم منطقي، ولاحتوائها على فوائد جيدة من المؤمل أن يستفيد منها الدعاة إلى الله، فأسأل الله لها التوفيق والسداد والعلم النافع والعمل الصالح، وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

كتبه
د. سعد بن ناصر الشثري
عضو هيئة كبار العلماء والمدرّس بالمسجد الحرام





تقديم
أ. د. زيد عمر العيص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، ***وبعد:***

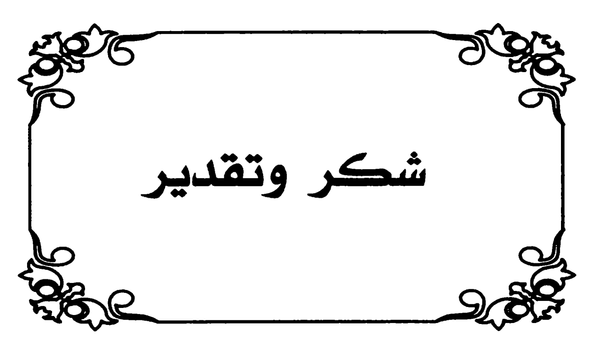
كثيرة هي الرسائل التي تُجيزها الجامعات سنويًا، وقليلة هي الرسائل التي ترى النور منها حين تطبع وتوضع بين يدي القارىء، يستفيد منها ويتحقق الغرض الذي من أجله كُتبتْ، وهذه الرسالة التي بين أيدينا واحدة من هذه الرسائل التي كتب الله لها أن تطبع، وهذا يعود لفضل الله تعالى ثم لاعتبارات تتصل بالبحث والباحثة، فالبحث ذو مساس وثيق بالقرآن الكريم، حين كشف عن طرف من عرض القرآن الكريم لمواجهة الأقوام لدعوات أنبيائهم عليهم السلام وإبطال دعاويهم، وهو ذو مساس بالناس فيما يتصل بشؤونهم الدينية والتربوية، أمّا الباحثة فهي باحثة جادّة صاحبة همم وهمة، حملاها على إخراج هذا الكتاب لينتفع الناس به، بخاصة الدعاة منهم، والتي خصّتهم بذكر معالم تنفعهم في مهمتهم المباركة.

ولا يفوتني أن أذكر في هذا المقام أنّ هذا الكتاب كان ضعف هذا الحجم لكن نصحت الباحثة باختصاره إلى النصف فاستجابت.

أسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله في ميزان حسناتها، والله أعلم.

أ. د. زيد عمر العيص
أستاذ في الدراسات القرآنية
مدير مركز بيّنات للدراسات القرآنية





شكر وتقدير

أتوجّه بالشكر لجامعة الملك سعود ﷺ والقائمين عليها لما يقدّمون من خدمة للعلم وطلابه، وأخص بالشكر قسم الثقافة الإسلامية والأساتذة الكرام على ما قدّموه من علم نافع وخُلُق رفيع.

ووافر شكري وعظيم امتناني لأستاذي فضيلة الأستاذ الدكتور **زيد عمر عبدالله العيص** المشرف على الرسالة، الذي كان له دور كبير في هذه الرسالة منذ بداية وضع الخطة إلى نهايتها على ما منحني من جهده ووقته وعلمه، وما بذله من نصح وإرشاد ومتابعة، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لعضوي لجنة المناقشة فضيلة الدكتور **ناصر بن محمد المنيع**، وفضيلة الأستاذ الدكتور **سليمان بن حمد القرعاوي**، فأجزل الله لهما الأجر على ذلك.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لوالدي معالي الشيخ **ناصر الشثري**، على دعمه المستمر لي، فقد كان له الفضل بعد الله في مواصلتي مسيرتي لطلب العلم وإتمام دراسة الماجستير، ويمثّل لي خير قدوة في طلب العلم.

وأتقدم بالشكر الموصول لزوجي الأستاذ **عبدالرحمن الشثري**، على دعمه المستمر لي، فقد كان خير معين لي في إخراج هذه الرسالة إلى النور، فأجزل الله له المثوبة، وأعظم له الأجر.

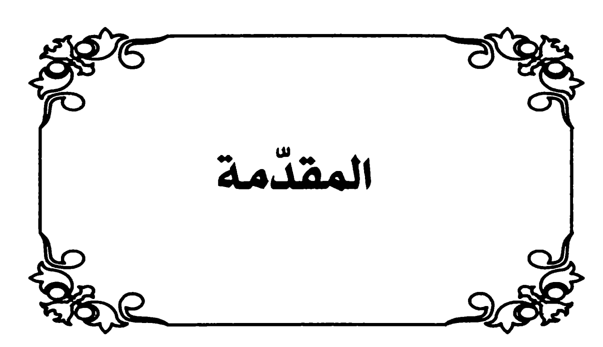
وأتوجه بالشكر والتقدير إلى أخي معالي الشيخ الدكتور **سعد** الذي

كان عونًا لي بعد الله في إتمام هذه الرسالة وإخراجها في كتاب، كما أتقدم بالشكر والتقدير لإخواني الأفاضل الشيخ **عبدالله**، والدكتور **عبدالعزيز**، والشيخ **تركي**، والأستاذ **سلمان**، وأختي العزيزة **بدرية**، على ما أولوني من اهتمام في رسالتي، فجزاهم الله عني ما جازى محسنًا على إحسانه.

وجزى الله خيرًا كل من أعانني برأي أو فائدة أو ساهم بأي جهد في خدمة هذا البحث وإخراجه منهم الدكتور **مساعد سليمان الطيار**.

وأسأل الله التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ويكتب له القبول، وسبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.





المقدّمة

إنّ الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

أما بعد:

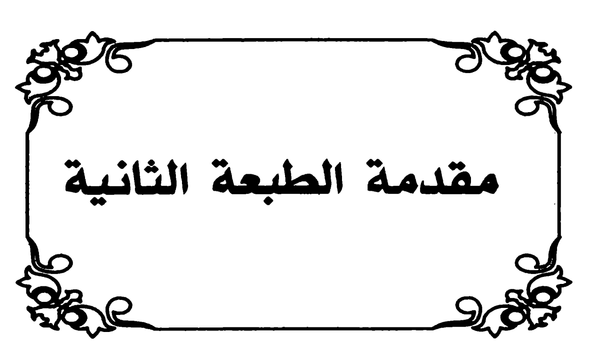
فقد أنعم الله على البشرية جمعاء بنعم عظيمة، وآلاءٍ جسيمة لا تُعد من قبل البشر ولا تحصى، وكان أجلّها وأعظمها نعمة إنزال القرآن الكريم، هذا الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والناظر في هذا الكتاب يجد أنه يجمع كل ما يحتاج إليه البشر من العقائد، والعبادات، والمعاملات، وصولًا بسرد قصص الأنبياء والمرسلين، وما بذلوه في سبيل نشر الرسالة التي بُعثوا من أجلها، وما لاقوه من أقوامهم، بُغية الاتعاظ والاعتبار، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ [يُوسُف: ١١١].

إنّ المتأمّل في تلك القصص يجد أنها تشتمل على أنواع من

السؤالات والمطالبات التي وجّهها الأقوام إلى أنبيائهم ﷺ، وهذه السؤالات لا تخلو في الغالب من عناصر مشتركة بين الأقوام الذين أرسل إليهم الأنبياء، كما أنها واقعٌ يتكرر في الأقوام السابقة، وفي حياتنا المعاصرة، والتي لا يتغير فيها إلا الأشخاص الذين يوجهون هذه الأسئلة، ويهدف القرآن الكريم من استعراض تلك القصص إلى مقاصد شتّى، سوف يكشف عنها البحث بالتفصيل ببيانٍ. وما يحسُنُ ذكرُه في هذا المقام هو أن مقصد الأقوام من أغلب أسئلتهم هو التنصّل من الاستجابة لنداء الرسل من خلال طرح أسئلة يصرف الاشتغال بها عن المقصد الأسمى وهو الاستجابة لما جاء به الرسل ﷺ، وهذه الأسئلة وإن قصد منها أصحابها تسويغ عدم إيمانهم وظنوا أنها منجاة لهم إلا أنها كشفت من خلال عرض القرآن الكريم المعجز لها، كشفت عن سقم في الأفهام وسفه في الأحلام، وهي أسئلة في عامتها محاولة للهروب إلى الأمام ـ كما يقال ـ في ضوء ظَنّ فاسد جعل أصحابها يتوهمون أنهم بطرحها على أنبيائهم ﷺ يكونون قد قارعوا الحجة بالحجة، وهو ما حرص القرآن الكريم على بيان زيفه حين عرض هذه الأسئلة ثم أتبعها بإجابات شافية وافية، بيّن أنها كانت موجزة حتى لا يصرف الاشتغال بها عن حقيقة الدعوة.

لقد سعيت في هذا الكتاب على جمع هذه الأسئلة وتصنيفها، ثم بيانها وإيراد موقف الأنبياء ﷺ منها في ضوء العرض القرآني الكريم، ولقد ظهر لي أن لكل قوم وارثًا، فقد ورثت أصناف من الناس في هذا العصر بعضًا من هذه الأسئلة من حيث مضمونها وإن اختلف التعبير عنها بغية إشغال الدعاة إلى الحق، والترويج لثقافة التنصّل من الالتزام بالمسؤولية، والتمرد على ضوابط الصلاح والاستقامة، وهو ما يبرر الحاجة إلى هذه الدراسة القرآنية التي آمل أن أكون قد وُفِّقتُ فيها، وبحث هذه السؤالات مظنة لاستخراج العبر، واستظهار الفوائد من معالجة القرآن الكريم لهذه السؤالات والتعامل مع أصحابها، وهذا مدار البحث الذي استعنت بالله تعالى على الكتابة فيه، والخروج منه بنتائج مُرضية، وتوجيهات سديدة، وهدايات مفيدة.

❁ ❁ ❁



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، *وبعد:*

فهذه هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب، أضعها بين يدي القارىء الكريم بعد نفاد الطبعة الأولى، تمتاز عن سابقتها بإضافات وزيادات وتنقيحات كانت ثمرة النظر والمراجعة. كما تمتاز بحسن الإخراج.

وإنني إذ أحمد الله تعالى على ما أنعم به، أشكر القارىء الكريم على قبوله له بقَبول حسن.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلفة
أ. الجوهرة بنت ناصر أبو حبيب الشثري



الفصل الأول

أنواع السؤالات في القرآن الكريم

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سؤالات تتعلق بأمور عقدية كالذات الإلهية وإنكار العقوبات.

المبحث الثاني: سؤالات تتعلق ببشرية الرسل عليهم السلام.

المبحث الثالث: سؤالات تتعلق بأمور دنيوية وشهوات حسية.



تمهيد

كان للسؤال حضور مشهور في القرآن الكريم، فقد ورد عشرات المرات في أساليب متعددة لأغراض متنوعة، وقد أفردت دراسات مستقلة للسؤال في القرآن لتنوّع أساليبه وتعدد أغراضه وكثرة وروده.

السؤال في الأصل طلب الاستفهام عمّا يجهل السائل لمعرفة ما يضمر المخاطب بالسؤال، ويكون على الحقيقة، ومنه أسئلة الصحابة الكرام للنبي ﷺ، والتي جاءت في غالبها: «يسألونك»، وقد وردت خمس عشرة مرة، وكلها أسئلة حول قضايا تشريعية كان الهدف منها العلم والعمل، ودلّت بمجموعها على حرص الصحابة

وقد يرد السؤال في القرآن ولا يقصد منه طلب المعرفة المجردة ويكون عندها استفهامًا مجازيًا، وقد كثر في القرآن الكريم وكان من الله تعالى، وكان الغرض منه تحقيق أغراض كثيرة ومتنوعة يصعب علينا في هذه الدراسة أن نستوعبها، فإنها تستحق دراسة مستقلة لكثرتها وتنوعها، وحسبنا أن نمثل لبعضها ثم يقاس عليها.

من أغراض السؤال في القرآن الكريم:

١ ـ **الحض**: ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النّور: ٢٢].

٢ ـ **التشويق**: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصَّف: ١٠].

٣ ـ **النهي**: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التّوبَة: ١٣].

٤ ـ **التأكيد:** ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغَاشِيَة: ١].

٥ ـ **الأمر:** ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩١].

ومثل هذا كثير يطلب في مظانه هو وأمثاله.

تعدُّد السائلين في القرآن الكريم:

فقد ورد السؤال على ألسنة المؤمنين والكافرين وأهل الكتاب والمنافقين؛ وكان لكل طائفة من هؤلاء أغراضهم الخاصة من سؤالاتهم.

وقد اختلفت طبيعة الأسئلة باختلاف زمانها ومكانها؛ فالأسئلة في العهد المكي كانت تتعلق بالغيبيات والنبوة والرسالة، وكان أكثرها للتعجيز والسخرية والهروب من الإيمان.

في حين كان السؤال في العهد المدني سؤالًا حقيقيًا يراد منه المعرفة الحقة بغية العلم والعمل، وكان أكثر الأسئلة يتصل بقضايا التشريع، ويلاحظ أنها كانت قليلة فهي لم تتجاوز خمسة عشر سؤالًا في عشر سنوات، وهذا يدل على أدب الصحابة وعلى حسن الاستماع والتقبل.

دلّت الإجابات القرآنية على بيان قيمة المعرفة وتقدير القرآن لها، كما دلّت على حق السؤال وحق تلقّي الجواب ما دام يراد منه المعرفة المجردة من أغراض أخرى كالسخرية والتعجيز وغيرها من الأغراض السيئة التي ظهرت جليًّا في سؤالات الأقوام الكافرين لأنبيائهم عليهم السلام.

لقد سجل القرآن الكريم سؤالات الأقوام لأنبيائهم عليهم السلام على الرغم من تفاهتها لأنها لا تدل على حرص أصحابها على معرفة الحقيقة وإنما تدل على سوء قصدهم وخبث نفوسهم فليس منها شيء في صلب الدعوة وما تضمنته من توجيهات وتشريعات، بل كانت بعيدة عن أصل الدعوة إلى قضايا غريبة عجيبة مثل طلب نزول ملائكة أو نزول كنوز من السماء أو مجيء العذاب وما شابه هذا مما سيأتي ذكره مفصّلًا في هذه الدراسة الشاملة.

إن من يوازن بين أسئلة المؤمنين التي كانت تتصل بالعبادة والإنفاق والجهاد والدعاء، وبين أسئلة الأقوام التي تدل على الشك وسوء الظن، يتبين له بجلاء أن قيمة السؤال تظهر من منزلة السائلين.

لقد دلّ منهج القرآن الكريم أن الأسئلة جميعها بغض النظر عن أصحابها وأغراضها كانت محل العناية القرآنية وكان الجواب عليها حاضرًا، حتى تلك التي صدرت عن الأقوام الكافرين والتي كانت بصيغة الطلبات والاقتراحات.

وسوف يظهر تفصيل ما ورد في هذا التمهيد في فصول الدراسة مفصّلًا.

ويحسن بنا هنا أن نذكر أن حدود الدراسة هذه تقتصر على سؤالات الأقوام الكافرة لأنبيائهم عليهم السلام، وأغراض هذه الأسئلة وبيان العواقب المترتبة عليها، ثم بيان ما فيها من هدايات وتوجيهات ينتفع بها الدعاة.



المبحث الأول

سؤالات تتعلق بأمور عقدية كالذات الإلهية وإنكار العقوبات

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الرؤية.

المطلب الثاني: طلب تكليم الله.

المطلب الثالث: طلب مجيء الله تعالى.

المطلب الرابع: القتال.

المطلب الخامس: إعادة آبائهم إلى الحياة الدنيا.

المطلب السادس: الطلب بأن يجعل لهم آلهة مع الله.

المطلب السابع: سؤال العذاب.



المطلب الأول

الرؤية

طلب رؤية الله تعالى كان من الأسئلة التي وجّهها بعض الأقوام لأنبيائهم عليهم السلام تعنّتًا واستكبارًا وتنصّلًا من الدخول في الدّين، وكان ذلك من بني إسرائيل لموسى عليه السلام، ومن كفّار قريش للنّبيّ محمد ﷺ، وورد ذلك في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٥].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: ٥٥] بدلالة الصيغة وسياق الآية.

السائل في هذه الآيات: ورد هذا السؤال من اليهود، واختلف أهل العلم في تحديد السائلين منهم، ذكر ابن جرير أن السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه[١]. وذكر ابن الجوزي أن هذا السؤال ورد من جميع بني إسرائيل إلا من عصم الله، قاله ابن زيد[٢].

المسؤول في هذه الآيات: يتضح من سياق الآية أن بني إسرائيل الجهلة المعاندين وجّهوا السؤال لموسى عليه السلام، وقصدوا به التعنّت، وجاء

(١) تفسير الطبري (٢/٨٨).

(٢) زاد المسير (١/٨٣)، تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (١/١٩١).

السؤال بسبب أن بني إسرائيل قوم فيهم بلادة لا يصدّقوا إلّا بالمحسوس المشاهد، ومن أسباب هذا السؤال قلّة أدب فيهم، وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب، وفيه سوء أدب معه إذ قالوا: «يا موسى»، ولم يقولوا: «يا نبي الله»[١].

علاقة السؤال بالسياق الذي ورد فيه: فقد جاء هذا السؤال في سياق مخاطبة لليهود المعاصرين للرسول ﷺ، وتذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها عليهم وعلى أجدادهم، وفي ذلك دلالة واضحة على وحدة الأمة في تكافل أفرادها، وأن السعادة والشقاوة تعم الجميع من أصول وفروع، وإن لم يسأل الفرع عما فعل أصله، لكنه يتضرر بسوء أصله، كما أن سبب عتابهم على فعل أسلافهم أن فيهم مَن وافق وأقرّ فعلتهم، ولم يتبرأ منها[٢].

لمّا ذكّر الله تعالى اليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ بما أنعم على أسلافهم مطالبًا إياهم بشكرها فيؤمنوا برسوله، ذكّرهم هنا ببعض ذنوب أسلافهم، ليتعظوا فيؤمنوا، ومن ذلك سؤالهم موسى عليه السلام رؤية الله جهرة.

قال ابن جرير: فذكّرهم جلّ ذكره باختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره، ما تثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم اجعل لنا إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون لا نصدق حتى نرى الله جهرة، فبذلك ذكّر الله سبحانه وتعالى اليهود الذين كانوا في المدينة بفعل أسلافهم ليتعظوا حتى لا يحلّ بهم من العقوبة والهلاك ما حلّ بأسلافهم[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢/٨٨)، تفسير البحر المحيط (١/٣٧٢)، أحكام من القرآن الكريم (٢٥٥).

(٢) التفسير المنير (١/١٨٤).

(٣) تفسير الطبري (٢/٨٢).

في هذه الآيات خاطب الله سبحانه وتعالى يهود بني إسرائيل المعاصرين للنبي محمد ﷺ مع أن السائلين رؤية الله سبحانه وتعالى هم من أسلافهم وآبائهم، وذلك لتشابه قلوبهم في الكفر والجحود، وعلمهم بصحة ما جاء به من ربّه، ومعرفتهم حقيقة أمره[١].

وسؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام رؤية الله جهرة يحتمل ثلاثة معان منها:

المعنى الأول: أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى، أي أنهم يرتدون في المستقبل عن إيمانهم الذي اتصفوا به من قبل[٢]. أي لا يثبتنا على الإيمان إلّا رؤية الله تعالى.

المعنى الثاني: أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذي دليله المشاهدة، أي أن أحد هذين الإيمانين قد ينتفي إن لم يروا الله جهرة[٣]، وهذان المعنيان ذكرهما ابن عاشور في تفسيره. أي هدفهم زيادة الإيمان.

المعنى الثالث: ويحتمل أنهم لن يصدقوا أن موسى عليه السلام كلّم الله حتى يروا الله عيانًا، وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب، ولذلك عاقبهم الله بالصعق بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [البَقَرَة: ٥٥] وجاءت الفاء التعقيبية لتفيد أنهم صعقوا حال طلبهم رؤية الله[٤]. **والصاعقة**: هي كل أمر هائل صوتًا أو نارًا، أو زلزلة، أو رجفًا سواء رآه المرء أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، أو إلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم، وقد يصعق المرء فيغشى عليه وهو حي غير ميت[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعرَاف: ١٤٣]. وأيًّا كان دافع هذا السؤال فإنه تجاوز منهم وتعدّ للحدود، ولهذا عاقبهم بالصاعقة.

---

(١) تفسير الطبري (٢/٨٢).

(٢) تفسير الرازي (٢/١١٣)، التحرير والتنوير (٢/٥٠٨).

(٣) المرجعان السابقان.

(٤) التحرير والتنوير (٢/٥٠٨).

(٥) تفسير الطبري (٢/٨٣)، التحرير والتنوير (٢/٥٠٨).

وفي قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٠] أي صعق بعضهم والآخرون ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء، وفي حياتهم بعد موتهم عادة خارقة جعلها الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته، وبما أن السائلين هم السبعون الذين اختارهم موسى على بعض الأقوال وهم من صالح بني إسرائيل، فقد يكون إحياؤهم رحمة لهم وليستوفوا آجالهم بعد تأديبهم، فالعقاب الدنيوي قد ينال الصالحين تمحيصًا لذنوبهم(١).

الموضع الثاني: من مواضع سؤال الأقوام رؤية الله قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء: ١٥٣].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

السائل في هذه الآيات: هم السبعون الذين خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل(٢) أو طائفة من بني إسرائيل ورضي بقية القوم بهذا السؤال فنسب السؤال إليهم جميعًا.

المسؤول في هذه الآيات: هو موسى عليه السلام، بدلالة سياق الآية: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

علاقة السؤال بالسياق: لما ذكر الله في سياق الآيات السابقة الاعتراض الفاسد من اليهود المعاصرين بسؤالهم محمدًا ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، أخبر سبحانه أن ذلك ليس بغريب من أمرهم، بل سبق من المقدمات القبيحة ما هو أعظم من آبائهم وأسلافهم مع نبيهم موسى عليه السلام، الذي يزعمون أنهم آمنوا به، فسألوه رؤية الله عيانًا، وذلك

---

(١) تفسير الطبري (٢/٨٩)، تفسير ابن كثير (١/٢٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٣/٣٥٦)، تفسير البغوي (٢/٣٠٦)، تفسير القرطبي (٦/٦)، تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).

حتى لا يستعظم محمد ﷺ سؤالهم إنزال كتاب، فهذه سنّتهم، وهذا دأبهم، فإنهم قد سألوا موسى من قبله أعظم من هذا فقالوا: أرنا الله جهرة(١).

في هذه الآية نسب هذا السؤال إلى اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، مع أنه جاء من آبائهم الأولين إلى نبيهم موسى عليه السلام، وهو رؤية الله بلا حاجز ولا حجاب تعنتًا منهم، إذ اشترطوا لإيمانهم أن يروا الله جهرة في الحياة الدنيا، ونسب ذلك إليهم للتوبيخ والتقريع لهم، وإعلامًا من الله ﷻ لنبيّه بأن آباءهم قد عنتوا موسى عليه السلام بأكبر من هذا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّساء: ١٥٣] فهم ورثتهم المقلدون لهم الراضون بفعلهم، ولم يجبهم الله إلى سؤالهم، إنما عوقبوا بالصاعقة نتيجة سوء أدبهم وجرأتهم على خالقهم وعلى أنبيائه، ولعظم ما جاؤوا به من السؤال، والظلم، والعناد، والفسوق عن أمر الله بعد ما رأوا من المعجزات الظاهرة، والبراهين الصادقة الدالّة على صحة ما جاءهم به موسى. وطلب رؤية الله في الحياة الدنيا خطأ في العقيدة، فإن الله لا يرى بالأبصار إلا في الآخرة لمن أكرمه الله بهذا من الأنبياء والصالحين(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين: «والخطاب لمن كان في عهد الرسول ﷺ، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها، فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم وهي التي امتنّ الله بها على بني إسرائيل، ومن ذلك ما جاء على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦](٣) ثم أحياهم الله ولم يرد ذكر إحيائهم في هذه الآية، وقد تقدم ذكر إحيائهم بعد الصعق في الموضع الأول من هذا المطلب، ثم اتخذوا العجل إلـٰهًا يعبدونه، من بعد

---

(١) تفسير السعدي (٢١٣).

(٢) تفسير القرطبي (٦/٦)، تفسير الثعلبي (٤٠٨/٣)، تفسير النسفي (٢٥٨/١)، تفسير القرآن الكريم (١٩١/١).

(٣) تفسير القرآن الكريم (١٩١/١).

ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم، قال القرطبي في «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [النِّساء: ١٥٣]: في الكلام حذف تقديره: فأحييناهم فلم يبرحوا فاتخذوا العجل»[١]

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

محل سؤال الرؤية في هذه الآية: ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾.

السائل في هذه الآيات: ذكر ابن جرير أن هذا السؤال ورد من المشركين[٢]. قال الرازي: «إن هذه نزلت في أبي جهل والوليد وأصحابهما»[٣].

المسؤول في هذه الآيات: وُجِّهَ السؤال إلى الرسول ﷺ.

تظهر علاقة السؤال بالسياق: في الآيات السابقة جاء ذكر سؤال المكذبين بالبعث المنكرين للحياة الثانية بكل ما فيها من نعيم وعذاب، إنزالَ الله الملائكة عليهم، ثم جاء سؤالهم رؤية الله[٤]، قال الرازي: «ولعلهم سمعوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا، وأنه تعالى لا يُنزّل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق، ثم أنهم علقوا إيمانهم على ذلك»[٥]، وجاء سؤالهم هذا على سبيل التعنت والهروب من اتباع الرسول، وهذا توجيه جيد من الرازي إشارة إلى داعي قولهم أو سبب قولهم أنهم لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء.

---

(١) تفسير القرطبي (٦/٦)، تفسير السعدي (٢١).

(٢) تفسير الطبري (١٩/١)، فتح القدير (٤/٦٩).

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/٤٣٤)، تفسير العز بن عبدالسلام (٢/٤٢١)، تفسير الرازي (٢٤/٦٠).

(٤) تفسير الطبري (١٩/١)، التسهيل لعلوم التنزيل (٣/٧٧)، تفسير النسفي (٣/١٦٥)، أيسر التفاسير (٢/٨٦٤).

(٥) تفسير الرازي (٢٤/٦١).

قال مقاتل: «إن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص بن الأحنف، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس العامري، المنكرين للبعث والنبوّة[(١)]، وهذا عليه عامة المفسرين[(٢)].

قال المشركون منكرو نبوّة النبي محمد ﷺ، ومكذبو القرآن: هلّا أنزل الله الملائكة حتى تشهد أن محمدًا محق في دعواه، ولم يكتفوا بهذا بل تجاوزوا إلى التخيير بين ذلك وبين رؤية الله في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه حجاب[(٣)]، وفي هذا السؤال المتعنت نوع من التحدي لله ﷻ، فهم قد جاوزوا الحد في الظلم، والكفر، والتكذيب لرسول الله ﷺ بعدم انقيادهم له بالسمع والطاعة، حسدًا من عند أنفسهم واعتراضًا لتمييزه عليهم بنزول الوحي عليه، ولم يجبهم الله على سؤالهم لاستحالة رؤية الله في الدنيا بدلالة قوله تعالى لموسى ﵇: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فالله خلق الإنسان على خلق لا يحتمل معه الرؤية في هذه الحياة الدنيا، فلو كان باستطاعة الإنسان أن يرى ربه في هذه الحياة الدنيا لكان نبيّنا محمد ﷺ، ومن قبله موسى ﵇ أحرى بالرؤية، فقد ورد عن عائشة ﵂ قالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[(٤)]، وإنما ردّ عليهم بكشف حقيقة نفوسهم التي اتصفت بالمكابرة، والتمادي في الإنكار، والعناد، فقد أضمروا الاستكبار واعتقدوا الكفر في قلوبهم[(٥)]، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/٤٣٤)، تفسير العز بن عبدالسلام (٢/٤٢١)، تفسير الرازي (٢٤/٦٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/١)، التسهيل لعلوم التنزيل (٣/٧٧)، تفسير النسفي (٣/١٦٥).

(٣) فتح القدير (٤/٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (باب معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النّجم: ١٣] ١٥٩/١، رقم ١٧٧).

(٥) تفسير الطبري (١٩/١)، تفسير الرازي (٢٤/٦٠)، تفسير البحر المحيط (٦/٤٥٠)، أيسر التفاسير (٢/٨٦٤).

فهم لم يجرؤوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، فهم لم يؤمنوا في الحقيقة والواقع[١] كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعَام: ١١١].

دلّت هدايات الآيات على مسائل تتصل باليهود ومنها:

١ - سفاهة عامة بني إسرائيل، فهم يزعمون أنهم يؤمنون بموسى عليه السلام، ومع ذلك قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٥].

٢ - تذكير اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بما فعل أسلافهم، فمن لم يسارع إلى الإيمان بمحمد ﷺ فإنه قد سار على نهج السفهاء من أسلافهم من قبح وخبث ملازم لهم طوال حياتهم.

٣ - تسلية للرسول ﷺ ومواساة له، وحثّ له على الصبر على تعنتهم وسؤالاتهم المتكررة، وإنذار لمن كفر به من المعاصرين من بني إسرائيل.

٤ - فرق بين قول بني إسرائيل: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: ٥٥] وبين قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعرَاف: ١٤٣] فموسى عليه السلام قال ذلك شوقًا إلى الله عز وجل وليتلذّذ بالرؤية إليه، فلم يكن شكًّا منه، أما هؤلاء فقالوا ذلك تشكيكًا أي ليسوا بمؤمنين إلا إذا رأوا الله جهرة، ففرق بين الطلبين، ولهذا جاء الجواب في الحالتين مختلفًا.

٥ - بيان سنة الناس في التقليد، واتباع آبائهم وإن كانوا ضالّين وجاهلين.

---

(١) التفسير المنير (١٠/٤٨).

٦ ـ بيان سنة الله في العباد: وهي أنه ما من نبي، ولا هاد، ولا منذر، إلا وله عدو من الناس، وذلك لتعارض الحق مع الباطل، فينتج عن ذلك عداء لازم من أهل الباطل لأهل الحق.

٧ ـ المانع من الهداية ليس قصورًا في الأدلة والحجج الإلهية، وإنما هو ضلال العقول بالشرك والمعاصي.

٨ ـ بيان ما كان عليه غلاة المشركين من قريش من كبر وعتو وطغيان.

٩ ـ مماثلة أهل الكتاب السابقين بالمشركين قولًا وعملًا، فقد تماثلت قلوبهم وأرواحهم بمن تقدمهم في العمى والقسوة والعناد والكفر، والألسنة ترجمان القلوب فما في القلب يظهره اللسان، فالحق واحد، والمخالفة هي الضلال، وكلهم واحد وإن تعددت الطرق واختلفت الوجوه، فالآثار تتشابه حتى كأنهم متواصون به كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].



المطلب الثاني

طلب تكليم الله

كان طلب تكليم الله من الأسئلة التي وجّهها الجهلة المعاندون من كفار قريش للنبي محمد ﷺ، وقصدوا به التعنت، والتعجيز، والتشكيك، والتكذيب بنبوّة محمد ﷺ ورسالته، واتخذوه مسوّغًا لهم بعدم الإصغاء إليه، وقد بالغوا في الجهالة فعدُّوا أنفسهم أحرى بالرسالة، وسماع كلام الله من النبي محمد ﷺ، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨].

السائل في هذه الآيات: قال ابن عباس: هم اليهود، وقال مجاهد: هم النصارى، ورجّح الطبري أنهم النصارى بدلالة السياق، وقال السدي: هم مشركو العرب[(١)].

والذي يظهر لنا أن هذا السؤال قد يرد من جميع المذكورين، وأنه يشملهم صفة الذين لا يعلمون، فالله سبحانه وتعالى قد وصفهم بالسفاهة بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٢] وليس هناك دليل على تخصيص أحد ممن سبق، بل يرجح العموم لكون الآية مدنية. وذكر ابن عاشور في تقديم قول المشركين هنا لأن هذا القول أعلق بالمشركين،

(١) تفسير الطبري (٥١٢/١).

إذ هو جديد فيهم وفاشٍ بينهم، فلما كانوا مخترعي هذا القول نسب إليهم، ثم شُبِّهوا بالذين من قبلهم وهم اليهود والنصارى إذ قالوا مثل ذلك لرسلهم، وقال: «وهذا توجيه حسن تطمئن النفس إليه»[١].

المسؤول في هذه الآيات: هو الرسول ﷺ. ذكره ابن جرير في سبب النزول[٢]. وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ١١٨]: أي يخاطبنا بنبوّتك يا محمد[٣]. وقال ابن كثير: «وهو ظاهر السياق»[٤].

تظهر صلة السؤال في السياق من حيث إن الآيات السابقة للسؤال ذكر الله سبحانه وتعالى فيها ادّعاء اليهود والنصارى الولد لله سبحانه وتعالى، ثم جاء ذكر سؤال كفار قريش لمحمد ﷺ أن يكلمهم الله لبيان تشابه المشركين باليهود والنصارى، من حيث خبث طبيعتهم، والتشابه في سوء التصوّر وشبه الضلال[٥]. فمثل هذه الأسئلة تدل على أن هؤلاء لا يعرفون الله حق المعرفة ولا يستحضرون أنه تعالى ليس كمثله شيء.

المناسبة بين سبب النزول والسؤال: عن ابن عباس قال: قال رافع بن حرملة لرسول الله: «إن كنت رسولًا من الله كما تقول، فقل لله فليكلّمنا لنسمع كلامه»[٦] فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] حتى وإن صح هذا السبب فإن العبرة في هذا المقام وفي غيره كما لا يخفى في عموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالذي يظهر أن هذا السؤال قد صدر من فئات تنتسب إلى هذه الأقوام.

---

(١) التحرير والتنوير (٦٨٩/١).
(٢) تفسير الطبري (٥١٢/١).
(٣) تفسير القرطبي (٩٢/٢).
(٤) تفسير ابن كثير (٢٧/٤).
(٥) تفسير الرازي (٢٧/٤).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٥/١)، والطبري في تفسيره (٥١٢/١).

وقال ابن عباس والحسن والربيع والسدي: إنها نزلت في كفار العرب، حيث طلب عبدالله بن أبي أمية وغيره ذلك[(١)].

والذي يظهر لنا أنها نزلت في جميع الطوائف، لأنهم تماثلوا في طبيعة تصورهم وضلالهم، ومن ثم سؤالهم.

المعاني اللفظية والشرعية التي ترتب عليها فهم السؤال والجواب عنه:

تضمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] إشارة إلى جميع الطوائف بأنها قالت هذه المقولة على اختلافهم في السبب، فاليهود والنصارى نُفي عنهم العلم لانتفاء ثمرته وهو الاتباع له، ونفي العلم عن الجهلة من العرب، لأنهم لم يكن لهم كتاب ولا هم أتباع نبوّة[(٢)] فجاء سؤالهم بمعنى هلّا يكلمنا الله بلا واسطة أمرًا ونهيًا، أو هلّا يكلمنا تصديقًا لمحمد في نبوته، فبلغوا من العتو والاستكبار إلى أن تطلّعوا لنيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملَك، ولم يكتفوا بما آتاهم الله من البينات الباهرة التي تخر لها صم الجبال، فذهبوا في اقتراحاتهم كل مذهب، فقد منّتهم أنفسهم الخبيثة أمانيّ لا ينالها إلا من اصطفاه الله من خلقه[(٣)].

ثم جاء سؤالهم الآية كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] زيادة في الجحود والعناد والطعن في كون القرآن الكريم آية، ومعجزة، ولو أقروا بكونه معجزة لاستحال أن يقولوا هلّا يأتينا بآية، وهذه سؤالات تكرّرت من الأقوام الكافرة لرسل الله من قديم الزمان، فلم يجبهم الله إنما ردّ عليهم بأن سؤالاتهم كسؤالات أسلافهم التي جاءت من باب التعنت، والعناد، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] فسؤال الكفار

---

(١) تفسير البحر المحيط (٥٣٦/١) بتصرف.

(٢) تفسير البيضاوي (٣٩٢/١)، تفسير الألوسي (٣٧٠/١).

(٣) تفسير أبو السعود (١٥٢/١).

المعاصرين للنبي محمد ﷺ كسؤال من سبقهم من الأمم الماضية، فقد تساووا في الطغيان حتى كأنهم تواصوا فيما يقولون، كما قال سبحانه عنهم: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣] فسؤالهم كسؤال موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨] وفي ذلك إشارة إلى أن الناس في آيات الله ينقسمون ثلاثة أقسام:

- قسم مؤمن بها ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل.
- قسم غير موقن بل هو في شك.
- قسم معاند ومنكر.

والقسمان الأخيران لا ينتفعان بالآيات، والله تعالى جعل الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون.

ويظهر مما سبق عرضه وبيانه:

١ - سؤال الكفار تكليم الله - سبحانه وتعالى - مشافهةً تكذيب منهم وإنكار بكون القرآن الكريم كلام الله وأن الله أنزله على محمد ﷺ، فالكفار يتقدمون إلى الرسول بسؤالات يريدون بها تبرير كفرهم وإصرارهم عليه.

٢ - إن سؤالات أهل الباطل في الآيات التي يحددونها ما هي إلا تعنت واستكبار ومُحادّةٌ لله ورسوله، وإلا فالآيات التي جاءت بها الرسل فيها ما يؤمن على مثلها البشر، كما في الحديث: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»**[1].

---

(١) صحيح البخاري (١٩٠٥/٤، رقم ٤٦٩٦)، (٢٦٥٤/٦، رقم ٦٨٤٦)، وصحيح مسلم (١٣٤/١، رقم ١٥٢).

٣ ـ يستفاد من هذا السؤال أن لا يأخذ الدعاة الانزعاج إذا ما رأوا الناس يردون دعوتهم ويعادونها، فليس الدعاة بأحسن حالًا مع الناس، ولا أقوى حجة من الرسل، ولا أكثر تأييدًا من الله، ولا أنصع بيانًا من الرسل عليهم السلام، ومع ذلك اتهمهم أهل الباطل بما اتهموهم به.

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] فكما أن الأنبياء تتشابه دعوتهم فكذلك الأقوام المعاندون تتشابه مواقفهم المعادية لدعوات الأنبياء عليهم السلام، فالتشابه في قساوة القلب ومرضه تظهر على الجوارح بخاصة اللسان، فيصدر منه ما يدل على خبث صاحبه وجهله، ولا أدلّ على هذا من هذه الأسئلة التي كان يوجّهها هؤلاء لأنبيائهم عليهم السلام تسلية للرسول ﷺ، فالمصاب إذا رأى أن غيره أصيب بمثل مصابه فإنه يتسلى بذلك ويخف عليه ألم المصيبة.

٥ ـ لا بد للدعاة من التزام الطرق الإقناعية الصحيحة عند الدعوة، وتقديم الأدلة الصحيحة لما يدعون إليه، وذلك بإقامة الحجج العقلية التي تلزم الخصم بالتسليم.



المطلب الثالث

طلب مجيء الله تعالى

سؤال مجيء الله ﷻ كان من الأسئلة التي وجّهها كفار قريش للنبي محمد ﷺ، والتي أرادوا بها التعجيز والتنصل من تبعات الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 90 ـ 93].

محل سؤال مجيء الله تعالى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾.

السائل في هذه الآيات: هم رؤساء مشركي قريش(1)، ذكر مقاتل أن السائل هو عبدالله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه(2).

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ، وقال لك يا محمد مشركو قومك»(3).

(1) تفسير الطبري (15/160)، تفسير القرطبي (10/331)، تفسير الواحدي (2/647).

(2) تفسير مقاتل بن سليمان (2/272)، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (1/241)، زاد المسير (5/86)، تفسير الرازي (21/49)، تفسير أبو السعود (5/195)، الكشاف (2/684)، تفسير السعدي (466).

(3) تفسير الطبري (15/160).

في سياق الآيات السابقة ذكر الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم كلامه، وأنه معجز، وتحدّى المشركين بأن يأتوا بمثله، فعجزوا عن معارضته، ومن ثم غلبوا على أمرهم، فلم يجدوا ردًّا مقنعًا يتعللون به إلا باقتراح إنزال أحد ستة أنواع من المعجزات، ومنها أن يأتيهم الله بنفسه، وهو النوع الرابع من المعجزات التي اقترحوها[١].

قال ابن جرير: «إن رؤساء قريش، كعتبة، وشيبة، وأبي جهل، وعبدالله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، اجتمعوا عند الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك اجتمعوا ليكلموك، فجاءهم سريعًا، وكان حريصًا على رشدهم فقالوا: يا محمد، إنّا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالًا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالًا، وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإذا كان الرِّئِيُّ الذي يأتيك قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو تعذر فينا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم»** ثم ابتدؤوا بسؤالاتهم التي تضمنت ستة مطالب حتى قال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا...»[٢].

في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

فقد بيّن الله تعالى أن القرآن الكريم معجزة، وأنه كلامه سبحانه، وأن محمدًا ﷺ نبيّ صادق، وبعد أن أعيت المشركين الحجة، فلم يجدوا جوابًا مقنعًا، راوغ رؤساؤهم بطلب أحد ستة أنواع من المعجزات[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/١٣٣)، التفسير المنير (٨/١٧٨).
(٢) تفسير الطبري (١٥/١٦٠)، تفسير الثعلبي (٦/١٣٥)، زاد المسير (٥/٨٦).
(٣) تفسير الطبري (١٥/١٦٠)، التفسير المنير (٨/١٧٨).

وسؤال مجيء الله هذا هو الرابع من سؤالاتهم، وجاء بثلاثة معان:

- ❑ أن يأتي الرسول بالله والملائكة كفيلًا وشاهدًا على صحة ما جاء به، قاله ابن عباس(١).
- ❑ أن يأتي بالله وبأصناف الملائكة فيضمنون له إتيانه بالرسالة(٢).
- ❑ أن يأتي بالله والملائكة قبيلًا يناصرونه ويدافعون عنه كما يفعلون في قبائلهم(٣).

وجاء في قوله تعالى: ﴿قَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٩٢] **ثلاثة أقوال:**

١ ـ أن تأتي بالملائكة قبيلًا يعني عيانًا أي إتيانًا ومقابلة يُنظر إليهم ولا يخفى على أحد شيء منهم، قاله قتادة وابن جريج ومقاتل(٤).

٢ ـ معناه مقابلة أي معاينة ومواجهة فيحدثونا بأنك رسول من عند الله، قاله أبو عبيدة(٥).

٣ ـ القبيل والكفيل والزعيم سواء من حيث المعنى والدلالة(٦).

وسؤالهم هذا يحتمل أمرين:

الأمر الأول: إما أن يأتي الرسول ﷺ بالله وبهذه الأشياء من عند نفسه.

الأمر الثاني: أن يسأل الله تعالى إظهارها على يديه لتدل على كونه رسولًا من عند الله.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/١٦٠)، تفسير القرطبي (١٠/١٣٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/١٣٣).
(٣) المرجع السابق.
(٤) تفسير الطبري (١٥/١٦٠)، تفسير البغوي (٣/١٣٧)، زاد المسير (٥/٨٨)، نظم الدرر (٤/٤٢٦).
(٥) الوجيز للواحدي (١/٣٧٠).
(٦) زاد المسير (٥/٨٨).

فالأول باطل، لأنه بشر والبشر لا قدرة له على هذه الأشياء، والثاني باطل، لأنهم قد جاءتهم معجزة وهي القرآن الكريم، فطلب هذه المعجزات لما لا حاجة إليه ولا ضرورة، فكان طلبها يجري مجرى التعنت، والرسول ﷺ عبد مأمور ليس له أن يتحكم على الله[(١)].

لم يجبهم الله إلى سؤلهم، وإنما أمر محمدًا ﷺ أن يرد عليهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٣].

وجاء في معنى هذه الآية أربعة أقوال:

القول الأول: أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك السائلين ما ليس لهم به حق سبحان ربي تنزيهًا لله عما يصفونه به وتعظيمًا له من أن يؤتى به وبملائكته[(٢)].

القول الثاني: أنه ليس لمحمد ﷺ سبيل إلى شيء مما يسألونه إياه، وهل كان إلا بشرًا رسولًا من بني آدم وعبدًا من عبيد الله سبحانه وتعالى، فكيف باستطاعته تحقيق ما سألوه من هذه الأمور، فالقادر عليها خالقه وخالقهم وليس عليه إلا أن يبلغهم ما أرسل به إليهم[(٣)].

القول الثالث: وقيل في الجواب ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسرَاء: ٩٣] تنزيهًا لله - ﷻ - أن يعجز عن شيء، وعن أن يعترض عليه في فعل أي شيء[(٤)].

القول الرابع: أن هذا كله تعجب في فرطهم في كفرهم وسؤالاتهم[(٥)]، ولما كانت هذه السؤالات سؤالات تتصف بالتعنت والتعجيز، ويتضح فيها سوء مقاصدهم، فهي جاءت من أسْفَه الناس وأظلمهم، وتضمنت رد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ

---

(١) تفسير الرازي (٤٩/٢١).

(٢) تفسير الطبري (١٦٤/١٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير القرطبي (٣٣١/١٠).

(٥) المرجع السابق.

هو الذي يأتي بالآيات، فأمر الله سبحانه الرسول ﷺ أن ينزهه بالتسبيح عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

يؤخذ من هذه الآيات الهدايات والدلالات التالية:

١ ـ في سؤال المشركين للنبي محمد ﷺ مجيء الله، تحكمٌ وقصور لإدراكهم العقلي في فهم كون القرآن الكريم معجزة، فنتج عن ذلك أن طالبوا بمجيء الله والملائكة.

٢ ـ يحسن بالدعاة توضيح معجزة القرآن الكريم وبيان دلالتها، وأن هذه المعجزة باقية تتحدّى كل مكذّب أو معادٍ للإسلام، وأن معجزة القرآن الكريم لا تزال قائمة حتى الآن تتحدى كل من يكذب أو يشكّك بنبوّته ﷺ وعموم رسالته، وأنها على خلاف معجزات الأنبياء السابقين فهي تنتهي بانتهاء حياتهم ولا يبقى منها إلا أخبارها، وليست حجة إلا على مَن شاهدها من الناس بخلاف القرآن فإنه معجزة خالدة للبشرية جميعًا يستوي في شأنه من نزل عليهم ومن قرأه بعد مئات السنين.

٣ ـ يحسن بالدعاة أن يسلكوا في إجاباتهم عن سؤالات المخالفين والمعرضين عن الدعوة والصادّين عنها المسلك الذي سلكه رسول الله ﷺ في إجابته عن سؤالات المشركين واقتراحاتهم بتنزيه الله ـ ﷻ ـ وتعظيمه.

٤ ـ في سؤالاتهم بيان لسخف عقولهم برضاهم للألوهية بحجر وإنكارهم الرسالة للبشر، وفيه دلالة قاطعة على حرصهم الأكيد على إبطال الدعوة الإسلامية.

٥ ـ اتفاق مشركي مكة وتواصيهم فيما بينهم، وهذا قريب مما يحدث اليوم، فكبراء القوم متفقون فيما بينهم على رفض الدعوة، بالرغم من الاختلافات فيما بينهم، كما نلاحظه في بعض البلدان من اتفاق الحكام ورؤساء الأحزاب العلمانية ومن قلّدهم، فهم متفقون على محاربة الدعوة الإسلامية، وتضييق الخناق عليها وإلصاق التهم

الباطلة بالدعاة إلى الله، مما يوجب على الدعاة الإصرار على التمسك بالدعوة، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وليتذكّروا قول رسول الله ﷺ للملأ من قوم مكة لما قال لهم: «**تقولون لا إله إلّا الله**» وقالوا: سَلْنَا غَيْرَها، قال ﷺ: «**لَوْ جِئْتُمُونِي بِالشَّمْسِ حَتَّى تَضَعُوهَا فِي يَدَيَّ مَا سَأَلْتُكُمْ غَيْرَهَا**»، وعلى الدعاة أن يتواصوا فيما بينهم على الثبات على دعوتهم، والاستمرار في تبليغها فهم على الحق المبين وأهل الحق أولى بهذا الثبات من غيرهم.

٦ - في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] أن الرسل كانوا لا يأتون أقوامهم إلا بما يلائم حالهم، ولم يكن أمر الآيات عائدًا إلى الرسل فليس لهم أن يتحكموا على الله بشيء منها.

٧ - سؤالات المشركين للرسول ﷺ واشتراطهم تحقيقها حتى يؤمنوا به لا مكان لها ولا مُسَوّغَ، فإنزال الآيات الخارقة أمرها بيد الله، وفق ما تقتضيه حكمته وليس لأحد من البشر أن يأتي إلا بما يظهره الله عليه.

٨ - أن مشركي مكة، مع ما كان من رفضهم للإسلام، كانوا يستهزئون ويسخرون ويشككون بأن يكون بشر منهم رسولًا، وهذا الصنيع منهج قديم سلكه الكفرة والمشركون مع رسلهم السابقين، فلا عجب أن يسخر في الوقت الحاضر أعداء الدعوة الملاحدة من الإسلام والمسلمين، فعلى الدعاة ألا يبالوا بهذه السخرية، فيسألوا الله الثبات ويتوكلوا على الله حق التوكل، ويثقوا تمام الثقة بنصر الله عاجلًا غير آجل، وأن عذاب الله سيحيق بالكفرة كما حاق بأسلافهم الساخرين برسل الله، والمؤمنين إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الله.

٩ - يحسن بالدعاة مقابلة الاستهزاء من الكفرة ومن على شاكلتهم بالصبر والاستمرار في الدعوة، فإن من المبطلين من لم يستجب إلى دعوة الحق إلا بعد عناد شديد وأمد بعيد.



المطلب الرابع

القتال

كان طلب أن يتولى النبي ﷺ القتال مع ربه من الأسئلة التي وجّهها بنو إسرائيل لموسى عليه السلام، وقصدوا به العناد والتمرد، والعصيان، والهروب من مشقة القتال وتبعاته لأنهم قوم يحبون الحياة، وفيه نوع من التطاول على الله ـ عز وجل ـ، وجهلهم به، وبما يجب عليهم له سبحانه من التعظيم والوقار.

وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤ ـ ٢٦].

لا يخفى أن السائل: هم بنو إسرائيل[1]. قال ابن جرير: «وهذا خبر من الله جلّ ذكره عن قول الملأ من قوم موسى لنبيّهم إذا رغبوا في جهاد عدوهم»[2].

المسؤول في هذه الآيات: هو موسى عليه السلام[3]، ويتضح ذلك من سياق الآية.

---

(١) تفسير الرازي (١١/١٥٥)، تفسير البيضاوي (٢/٣١٢)، تفسير ابن كثير (٢/٣٩).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٧٩).

(٣) تفسير الطبري (٦/١٧٩)، تفسير ابن كثير (٢/٣٩).

تتضح صلة السؤال بالسياق فإنه بعد أن أقام الله الحجة على بني إسرائيل في صحة نبوّة محمد ﷺ، ومناقشة أهل الكتاب في ذلك، أعقبها بذكر موقفين من مواقف اليهود، فيهما دلالة على عنادهم، أولهما جحود نعم الله الكثيرة عليهم، وثانيهما عصيانهم أوامر موسى بدخول أرض فلسطين ومحاربة الجبارين، ومن ثم جاء ذكر سؤالهم لموسى عليه السلام، فيكون ذلك مواساة للنبي ﷺ وبيانًا له بأن صدودهم عن الحق خُلُقٌ متأصل فيهم[1].

إن هذا القول الذي سبق سؤالهم: ﴿**قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ [المَائدة: ٢٤] فيه دلالة على شدة إصرار بني إسرائيل على العصيان، والتمرد على أوامر موسى عليه السلام بدخول أرض فلسطين، ويُظهر مدى جبنهم وخشيتهم من القتال، ومحاربة الجبارين، فهم اشترطوا خروج أهلها منها حتى يدخلوها، وقد علّلوا لموسى عدم انقيادهم له عليه السلام في الآيات السابقة بأن عدوّهم قوم جبّارون[2] ذوو خِلَق هائلة وقوًى شديدة، وهم لا يقدرون على مقاومتهم ومواجهتهم[3].

ومن ثم جاء سؤالهم لنبيّهم، في غاية من التنكر له عليه السلام، والبعد عن الأدب معه باقتراحهم عليه أن يذهب وحده مع ربه للقتال، في قوله تعالى: ﴿**فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ [المَائدة: ٢٤] فكأن الله ليس ربًا لهم إذا كانت ربوبيته تكلفهم القتال، فهم لا يريدون تحقيق وعد الله لهم بالعز والنصرة، والملك، والكرامة التي ثمنها مجاهدة الجبارين، فهم يريدون الأرض الموعودة رخيصة بلا جهاد، ولا قتال، فلا يستحيون من قولهم: ﴿**إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ**﴾ منتظرين هزيمتكم لهم وإخلاء الأرض المقدسة منهم[4].

---

(١) التفسير المنير (٣/٤٩٥).

(٢) صفوة الآثار (٨/٣٦٣).

(٣) تفسير الطبري (٦/١٨٠)، تفسير ابن كثير (٢/٣٨).

(٤) صفوة الآثار (٨/٣٦٤).

تعددت أقوال المفسرين في بيان المراد من قول بني إسرائيل: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ . . .﴾ [المَائدة: ٢٤] وما كان مقصودهم منه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أمر موسى عليه السلام بالذهاب مع الله للقتال وحدهما[١]. وهذا ظاهر في سياق الآية.

القول الثاني: اذهب أنت يا موسى، وليعنك ربك وينصرك عليهم، ورَدَّ ابن جرير هذا القول معللًا ذلك بقوله: «إن هذا القول جائز لو كان عن قوم مؤمنين وأصحاب هذا القول خلاف ذلك»[٢] وذكر الدوسري بقوله: «فلا وجه لتأويلها بأي معنى مجازي مع اتضاح وقاحتهم وتكرار مساوئهم وشدة غلوهم في المنازعة»[٣].

القول الثالث: أن يسأل ربه أن ينصره عليهم، كما نصره على فرعون وجنوده[٤].

والذي يظهر لنا أن سؤالهم ذهاب موسى وربه سبحانه وتعالى هو الراجح، لأن قولهم صريح بالذهاب وحده وأنهم لن يذهبوا معه، ولأن الله تعالى حكم عليهم بالفسق في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٦].

لم يجبهم موسى إلى سؤالهم، إنما دعا ربه دعوة فيها ألم واستسلام لله سبحانه وتعالى وإعلان للولاء الصادق بينه وبين أخيه هارون، والبراءة من قومه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ [المَائدة: ٢٥].

ثم دعا ربه أن يقضي ويفصل بينه وبين هؤلاء الفاسقين الخارجين

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٨٠)، المحرر الوجيز (٢/١٧٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٠).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٨٠)، فتح القدير (٢/٢٨).
(٣) صفوة الآثار (٨/٣٦٤).
(٤) تفسير السمرقندي (١/ ٤٠٦)، زاد المسير (٢/ ٣٢٧).

عن طاعة الله ويحكم لموسى عليه السلام وأخيه بما يستحقانه، وكذلك يحكم على قومه بما يستحقونه، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٥]. ويصح أن يكون المعنى فباعد بيننا وبينهم بالخلاص من صحبتهم[١]. فاستجاب الله لنبيّه موسى ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المَائدة: ٢٦] قال بعض المفسرين: أي أن الله حرّم على بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة أربعين سنة، وحكم عليهم في التيه في صحراء مقفرة يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون فلا يدرون أين مصيرهم.

وتتمة كلام الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٦] تسلية لموسى ألا يحزن على القوم المتمردين، فإنهم مستحقون لما حكم الله عليهم به من التيه[٢].

في الآيات عدد من الدلالات وهي:

١ ـ بيان جبن اليهود وسوء أدبهم مع ربهم وأنبيائهم.

٢ ـ يستفاد من هذا السؤال أن من قابل الأعداء عند القتال بالجزع والخوف وكله الله إلى نفسه، ومن قابلهم بالتحمل والصبر والتوكل على الخالق ضمن لهم النصر والفرج.

٣ ـ يستفيد الداعية من هذا السؤال أنه إذا حصل لديه اليأس أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يبث شكواه إليه ويطلب النصر والتأييد منه على أعدائه حتى يكونوا عبرة للآخرين، فسبحانه وتعالى قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

٤ ـ يستفاد من حكم الله تعالى على بني إسرائيل بالتيه أربعين سنة تطبيق الأحكام على المجرمين والمخالفين تعزيرًا لهم.

---

(١) التفسير المنير (٣/٤٩٨).

(٢) المرجع السابق.

المطلب الخامس

إعادة آبائهم إلى الحياة الدنيا

كان هذا المطلب من الأسئلة التي وجهها المشركون للنبي محمد ﷺ، وقصدوا منه إنكار البعث الذي توعدهم الرسول ﷺ بالعقاب بعده إن هم أصروا على كفرهم، ما دام أنه لا بعث ولا حساب، ولا عقاب بزعمهم، وقد ورد هذا السؤال في موضعين من القرآن الكريم:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدّخان: ٣٤ ـ ٣٧].

اختلف المفسرون في هذا على قولين:

الأول: أنهم مشركو العرب، قال به قتادة وابن كثير[١].

والثاني: أنهم مشركو قريش، قال به كثير من المفسرين[٢]. ولا يعد هذا اختلافًا.

تعددت وجهات النظر فيمن وجه له السؤال على ثلاثة أقوال وهي:

القول الأول: أنه محمد ﷺ، وحده وإن كان بصيغة الجمع،

---

(١) تفسير الطبري (١٢٨/٢٥)، تفسير ابن كثير (١٥٢/٤).

(٢) تفسير الطبري (١٢٨/٢٥)، تفسير القرطبي (١٣٧/١٦)، تفسير البحر المحيط (٣٨/٨).

قال ابن جرير: «وخوطب ﷺ وحده خطاب الجميع»[(١)]

القول الثاني: أنه الرسول ﷺ، ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يقولون: «إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ»، واستدلوا على ذلك بمجيء قوله: «ائتوا» و«صادقين» بصيغة الجمع. قال به كثير من المفسرين[(٢)].

القول الثالث: أن هذا السؤال وجّه للرسول، ولمن جاء قبله من الرسل الذين أخبروا بالبعث بعد الموت، وغلب الخطاب على الغيبة[(٣)]

والذي يظهر لنا أنه لا فائدة من هذا الخلاف سواء كان السؤال للنبي ﷺ وحده، أو قصد به الجميع، فغرض المشركين إنكار البعث، وإظهار عجز الرسول ﷺ لعدم قدرته على إحياء الموتى.

في الآيات السابقة للسؤال أصرّ المشركون على إنكار البعث، وحصروا الموت في موتتهم الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم ما هم بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب، ثم جاء سؤالهم إحياء من مات منهم استبعادًا منهم للبعث والنشور[(٤)]

المناسبة بين سبب النزول والسؤال: ذكر أهل التفسير: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [هُود: ٧] واستدل بها الرسول ﷺ، والذين آمنوا معه على البعث بعد الموت، قال أبو جهل: «يا محمد انشر لنا بعض آبائنا وليكن فيهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا». وروي أنهم طلبوا منه أن يحيي لهم لؤي بن غالب، ومُرة بن كعب، وقصي بن كلاب[(٥)]

---

(١) تفسير الطبري (١٢٨/٢٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٤٤/١٦)، تفسير البحر المحيط (٥٠/٨)، تفسير أبي السعود (٦٤/٨).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠٨/١٠، ٣٦٤).

(٤) تفسير البيضاوي (١٦٢/٥)، تفسير البحر المحيط (٣٨/٨)، نظم الدرر (٧٧/٧).

(٥) تفسير الطبري (١٢٨/٢٥)، تفسير العز بن عبدالسلام (١٧١/٣)، تفسير القرطبي (١٤٤/١٦).

في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة جاء تحقيرًا لكفار قريش، وحيثما وردت ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مفردة في القرآن كله فالمراد بها كفار قريش، لإنكارهم البعث بعد قيام الحجة البالغة عليهم. ويستدل المشركون في هذا الموضع أن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد ولم ينشر منهم أحد، ثم جاء سؤالهم الإتيان بهم إن كان النشور حقًّا وصدقًا، وقالوا ذلك من باب التحدي والتعجيز[١]، وهذا جهل منهم من وجهين أحدهما أنهم رأوا من الآيات ما يكفي في الدلالة فليس لهم أن يتنطعوا، والثاني أن الإعادة للجزاء وذلك في الآخرة، وهذا ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره[٢]

أما من جهة استجابة الله لسؤالهم، فإنه سبحانه لم يستجب لهم وإنما ردّ عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدّخَان: ٣٧]، في هذه الآية استفهام تقريري إذ لا يسع المشركين إلا أن يعترفوا بأن قوم تبع[٣]، والذين من قبلهم خير منهم، لأنهم كانوا يضرب بهم الأمثال في القوة، وليس المراد بالخيرية هنا التفضيل، فهم في الكفر سواء، وليسوا بأفضل من أولئك الذين سبقوهم من الأمم الكافرة بربّها فيصفح عنهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ يبيّن أن سبب إهلاك الأمم السابقة من قوم تبع والذين من قبلهم من الأمم هو إجرامهم وكفرهم به سبحانه[٤]. وإنما المراد أن قوم تبّع أقوى وقد أهلكهم الله تعالى.

الموضوع الثاني: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٢٨/٢٥)، زاد المسير (٣٤٧/٧)، التحرير والتنوير (٣٠٨/١٠).

(٢) زاد المسير (٣٤٧/٧).

(٣) تبّع: هم حِمْيَر وهم سكان اليمن وحضرموت من حِمْيَر وسبأ وقد ذكرهم الله تعالى في سورة قٓ.

(٤) تفسير الطبري (١٢٩/٢٥)، تفسير ابن كثير (١٤٤/٤)، التحرير والتنوير (٣٠٨/١٠).

محل السؤال: ذكر كثير من المفسرين[١] أنه قوله تعالى: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] فمنهم من قال إنه سؤال اقتراح، يطلب به تحقيق المسؤول، ومنهم من قال إنه مجرد احتجاج لإبطال القول بإثبات البعث[٢]، بدليل الآية: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

والذي يظهر أن الحجة والاقتراح هنا يتضمنان السؤال والطلب، وإن كان القصد من منكري البعث بيان أنهم يملكون الدليل على ما ذهبوا إليه بإقامة الاستدلال على قولهم بنفي البعث على جهة استبعاد وقوعه، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] فتصديقهم بما جاء به رسل الله في البعث بعد الموت متوقف على الإتيان بآبائهم[٣].

صدر هذا السؤال عن مشركي العرب ممن ينكر البعث والمعاد، ذكره ابن كثير في تفسيره[٤]. وتابعهم الدهريون من بعدهم.

المسؤول في هذه الآيات: هو النبي محمد ﷺ[٥]، ويتضح ذلك من سياق الآية التي جاءت بعدها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ...﴾ [الجاثية: ٢٦].

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] أي حين يسمع كفار قريش تلاوة النبي محمد ﷺ آيات القرآن الكريم الناطقة بالحق، الواضحة الدلالة الدالّة على قدرة الله في وقوع البعث، بما يخالف معتقدهم المنكِر للبعث، ما كان حجتهم وعذرهم للنبي محمد ﷺ إلا أن يقترحوا عليه أن يأتيهم بآبائهم الذين قد هلكوا أحياء إن كان صادقًا فيما يتلوه عليهم ويخبرهم به،

---

(١) تفسير الرازي (٢١٣/٢٧)، تفسير النسفي (١٢٦/٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١٤٥/١)، تفسير ابن كثير (١٤٤/٤)، التحرير والتنوير (٣٠٨/١٠).

(٣) تفسير السعدي (٧٧٧).

(٤) تفسير ابن كثير (١٤٤/٤).

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان (٢١٥/٣)، تفسير الطبري (١٥٣/٢٥).

حتى يصدقوا بحقيقة ما يقوله أن الله يبعثهم بعد مماتهم ومُحييهم من بعد فنائهم[(١)]، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٥] فطلبهم هذا يدل على نظرة قاصرة لا تدرك حكمة الله في الحياة والموت، ويسجل عليهم التلجلج عن الحجة البينة والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن أصل القضية إلى أمور غيبية يعلمون أنها لن تتحقق لهم[(٢)].

لم يجبهم الله تعالى على طلبهم، وإنما ردّ عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٦] أي: إن القادر على البداءة في إحياء الخلق بعد أن لم يكونوا، قادر على الإعادة بطريق أولى وأحرى قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٨، ٧٩]، وفي ذلك تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبدئها ومنتهاها، فسبحانه أحيا الناس في هذه الأرض ليمنحهم فرصة للعمل وليبتليهم الله فيما مكنّهم فيه، ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي أجله الله فيحاسبوا على ما عملوا[(٣)].

كشفت الآية أمورًا تتصل بهذا السؤال يمكن إيضاحها في المسائل التالية وهي:

١ ـ أن الغرض من السؤال في الأصل هو التهرب من اتباع الرسول، وأنهم يبحثون عن شبهات واهية ويعلمون مسبقًا أن الله لن يستجيب لهم.

---

(١) تفسير الطبري (١٥٣/٢٥)، نظم الدرر (١٠٧/٧)، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (١٢١٩/٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٦٤/١٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١٩٢/٤)، تفسير اللباب (١٩٧/١٤)، حسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٢٣).

٢ ـ أن هناك فرقًا في صيغة السؤال في الموضعين:

في الموضع الأول جاء سؤال إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿أَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] من المشركين الشاكين كما في الآيات السابقة للسؤال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩] فاقتصر الله تعالى بجوابه على سؤالهم بالتخويف من أن يتعرضوا للهلاك مثلما أهلك فرعون وقوم تبّع، لكون كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يجاب عنها، لكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك، أما في الموضع الثاني من سؤالهم إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقد جاء هذا السؤال من الدهريين، ومن وافقهم كما يظهر من سياق الآيات السابقة للسؤال ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] وفي ذلك تكذيب واضح للبعث وإنكار صريح للقيامة بقولهم: ما يميتنا إلا مرور الأيام والليالي فهو المفني والمهلك للأنفس، وهذا إنكار بيّن للإله الفاعل المختار فأُتبع برد مناسب لسؤالهم في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

٣ ـ ضرب الأمثلة الواقعة والقريبة منهم زمانًا ومكانًا فهي أشد وقعًا وتأثيرًا على النفس البشرية، كما ضرب الله المثل بقوم تبّع وهم قريبون منهم زمانًا ومكانًا.

٤ ـ تعليق الإهلاك بقوم تبّع دون تبّع نفسه، تقتضي أن تبّعًا نجا من هذا الإهلاك وأن هذا الإهلاك سلط على قومه، كما في الحديث المروي عن النبي ﷺ عن سهل بن سعد قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ**»[(١)]

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أحمد في المسند (٨٤/٥٠، رقم ٢٣٥٣٨).

المطلب السادس

الطلب بأن يجعل لهم آلهة مع الله

كان هذا السؤال من الأسئلة التي وجهها بنو إسرائيل لنبيّهم موسى عليه السلام والتي تتسم بالجهل والضلالة، وكأنهم لم يدركوا معنى التوحيد الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

بعد أن أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بالنجاة وأهلك عدوهم، بدلًا من أن يقابلوا هذه النعم العظيمة بمزيد من الإيمان والتوحيد والشكر، كان منهم أن سألوا موسى أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها تشبهًا بالمشركين.

يظهر في الآيات السابقة للسؤال أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أنواع نعمه على بني إسرائيل من إهلاك عدوهم، ثم إرثهم أرضهم وديارهم ثم إتباعها بنعمة أعظم وهي أن الله جاوز بهم البحر سالمين من الغرق، ثم ذكر كيف قابلوا تلك النعم بالكفر، والجهل، وذلك بسؤالهم موسى أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله لما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم[١].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٨٠)، المحقق: أحمد محمد شاكر، ط. الأولى، ١٤٢٠هـ، التفسير المنير (٥/٨٠).

في الآيات عرض القرآن الكريم بعد تجاوز بني إسرائيل البحر ورؤيتهم قومًا عاكفين على أصنام لهم، وإذا بهم يسألون موسى أن يتخذ لهم وثنًا يعبدونه من دون الله، أي أن يجعل لهم موسى من عنده إلهًا، يتقربون إليه من دون الله تعالى، فكان ردّ موسى التنديد بإطلاق الجهالة الكاملة، والشاملة على بني إسرائيل التي قادتهم إلى الانحراف عن التوحيد، كما في الآية: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثم كشف لقومه سوء عاقبة القوم العاكفين على تلك الأصنام بأنهم لا يستفيدون من هذا العمل في دنياهم، وآخرتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] ثم تعجب منهم بالإنكار: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠] بمعنى أن الإله هو القادر على الإنعام، والإحياء والإماتة، وجميع النعم، وهو المستحق للعبادة دون سواه(١).

يمكن أن يؤخذ من هذا السؤال وما صاحبه من تعقيب بعض من الهدايات التي يحسن استحضارها ومنها:

١ - أن في ذكر سؤال بني إسرائيل موسى عليه السلام تسلية للرسول ﷺ عمّا وجده من يهود المدينة، فأسلافهم قد فعلوا ما هو أعظم مع نبيّهم موسى عليه السلام، وبالمقابل فيه تذكير للمؤمنين أن يشكروا نعم الله وألّا يكونوا مثل بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

٢ - أن بني إسرائيل لو اتخذوا إلهًا من عند أنفسهم لكان الأمر أقل شناعة من سؤالهم موسى عليه السلام أن يتخذ لهم إلهًا غير الله، وهو الذي أخرجهم من مصر وجاوز بهم البحر باسم الإسلام والتوحيد.

٣ - يحسن بالداعية اختيار الألفاظ المناسبة التي تتسم بالحلم، والعلم،

---

(١) تفسير الرازي (١٤/١٨٢)، التفسير المنير (٥/٨٢).

والرفق في الإجابة على أسئلة المدعوين مهما بلغت من القبح والشناعة، كما كان ردّ موسى على قومه، فبالرغم من شناعة سؤالهم استعمل الألفاظ المناسبة التي تلائم وتنصح ولا تجرح.



المطلب السابع

سؤال العذاب

كان طلب نزول العذاب من باب الاستهزاء به من الأسئلة التي وجهها الأقوام الجهلة المعاندون لأنبيائهم تكذيبًا لهم وإنكارًا لنزول العقوبات بهم، لسوء ظنهم في كونهم رسلًا من عند الله، ولذلك لن يستجاب دعاؤهم، وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٧].

والسؤال صادر من قوم شعيب ﷺ على وجه التحدي والاستبعاد وهو موجه إلى نبي الله شعيب ﷺ وصلة هذا السؤال بالسياق ظاهر فإنه بعد أن استمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة، والتي منها تقوى الله ومخافة بأسه الذي لا يرد فلم يتأثروا بها، وقابلوها باتهام نبيّهم في عقله، فاتهموه بأنه كان مسحورًا، وإنه بشر مثلهم، وتحدّوه في رسالته فقالوا له: وما نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إليه، إلا ممن يكذب فيما يقول، كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦]، ثم جاء سؤالهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٧] استخفافًا بالوعيد والتهديد[١].

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (٣١٨٢/١).

يظهر من سياق الآية غرور وسفاهة قوم شعيب بسؤالهم له: إن كان صادقًا في تهديده، ووعيده لهم بالعذاب، وأنه نبي فليدع الله أن ينزل عليهم قطعًا من السحاب، فيها نوازل العذاب، وما كان سؤالهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، والعناد، واستبعادهم لوقوع العذاب، وهم بهذا ظنوا أنه إذا لم يقع العذاب، ظهر كذب شعيب، فردّ عليهم شعيب عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٨] أي إن الله أعلم بعملهم فيجازيهم عليه، إن كانوا يستحقون ذلك عاجلًا أو آجلًا، وأما هو فلا قدرة له على إنزال العذاب، فلما أصروا على التكذيب، واستمروا عليه استجاب الله لسؤالهم، وجازاهم بعذاب الظلّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٩].

الموضع الثاني: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٩٢].

لما كان لكل قوم وارث، فقد صدر هذا السؤال عن كفار قريش، والسؤال موجّه إلى النبي محمد ﷺ، بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

وعلاقة السؤال بالسياق تظهر الآيات السابقة لهذا السؤال تحدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ كفار قريش بأن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، وغلبوا على أمرهم، وتبين عجزهم، وظهر إعجاز القرآن الكريم، فأخذوا يتعلّلون، ويقترحون آيات أخرى تعنتًا، وحيرة، فطلبوا تحقيق إحدى آيات ست فجاء هذا السؤال من ضمنها[١].

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي:

جاء هذا السؤال ضمن سؤالات كفار مكة التي قصدوا بها التحدي والمراوغة والتعجيز، والاستهزاء بما وعدهم به من العذاب، إنكارًا لوقوعه فادَّعُوا أن إيمانهم بالله واتباع ما جاء به محمد ﷺ متعلقان باستجابته بتحقيق أحد تلك السؤالات، وإلا فلو كان القصد من السؤال

(١) تفسير السعدي (٣٢٠)، التفسير المنير (٨/١٧٩).

التوصل إلى التصديق، والإيمان، ومعرفة حقيقة النبوّة لأقنعهم وكفاهم القرآن الكريم معجزة، وهو معجزة ناطقة، وبراهين ساطعة على تصديق هذا النبي، وفي سؤال كفار قريش إنزال العذاب تحول وانتقال من سؤالهم الخوارق النافعة، إلى سؤال الخوارق الضارة لهم، فلم يجبهم النبي محمد ﷺ إلى سؤالهم رحمة بهم، فجاء أمر الله سبحانه وتعالى لنبيّه أن يرد عليهم بأمرين: **أولهما**: أن يسبح الله تنزيهًا له عن أن يعجزه شيء، وقيل أن ذلك كله تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم.

والثاني: أن يخبرهم بأنه رسول بشر كسائر الرسل، ما عليه إلا أن يبلغ رسالات ربه، وأن ينصح لهم، وأنه ليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بأمر الله على وفق حكمة، ومصلحة، وأن الأمر كله لله إن شاء أجابهم وإن شاء لم يجبهم[1].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

بعد أن بيَّن صالح عليه السلام لقومه وظيفته، وكشف لهم عن معجزته وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره، ذكَّرهم بنعم الله عليهم وبمصائر الماضين قبلهم، فسأل المستكبرون من الكفار مَن استضعفوهم من المؤمنين عن حال صالح، فقال المستضعفون: نحن مصدقون بما جاء به صالح[2]، فردّ عليهم المستكبرون: بأن الذي آمنتم به نحن به جاحدون، وزادوا على ذلك بعقر الناقة، ثم سؤالهم استعجال العذاب استهزاء، وجرأة منهم على الله، بل افتخارًا بفعلتهم الشنيعة غير مبالين بما فعلوا في المعجزة الباهرة التي جعلها الله لهم آية[3].

---

(١) التفسير المنير (١٧٨/٨).
(٢) تفسير الرازي (١٣٤/١٤).
(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (١٣١/١)، تفسير السعدي (٢٩٥).

في هذه الآية بيّن الله سبحانه وتعالى أن قوم صالح عقروا الناقة تمردًا، وعصيانًا لأمر الله ورسوله، ثم سألوا نبيّهم واستعجلوه بأن يأتيهم بما وعدهم به من العذاب، وإن لم يذكروا في هذا الموضع العذاب صراحة، فقد صرح القرآن الكريم بذلك في مواضع أخرى بأن ما وعدهم به هو العذاب الذي هددهم به نبيّهم إن تعرضوا للناقة بسوء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

فقد جمعوا في سؤالهم العذابَ بين كفر بليغ وبين ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية، وفي استعجالهم وقوع العذاب تكذيب لنبيّهم أنه رسول من عند الله، وإنكار لوقوع العقوبة عليهم، فاستحقوا العذاب باستجابة الله لهم فيما سألوا فأهلكهم الله بالرجفة، أي أخذتهم الصيحة التي زعزعتهم(١) فأصبحوا جالسين على ركبهم، وقد أبادهم الله.

في هذا الموقف المهيب والرهيب دلالات وهدايات يحسن بنا أن نشير إليها:

١ ـ أنه مهما أخفى الأعداء وراء سؤالاتهم من مقاصد باطلة فإن الله سيفضحهم كما فضح الله مكر قوم صالح لنبيّهم، ومكر المشركين لخاتم المرسلين محمد ﷺ، فسنّة الله جارية من بعدهم على أتباع الأنبياء وورثتهم، فما على الدعاة إلى الله إلا أن يتحلّوا بما تحلّى به الرسل من الحكمة، والصبر على ما أصابهم، وأن يصمدوا ويثقوا تمام الثقة بأنهم سيحققون النصر من الله، كما استحقه الرسل من قبلهم لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

٢ ـ أن دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم واحدة، وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له، ومن كذّب واحدًا منهم فقد كذّب جميعهم عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير الطبري (٥٤٣/١٢)، تفسير ابن كثير (٢٣٠/٢)، تفسير السعدي (٢٩٥).

٣ ـ يحسن بالداعية أن لا يثنيه استهزاء المستهزئين به عن الاستمرار في دعوته، بل عليه أن يصمد أمامهم ويتصدى للرد عليهم بالحكمة، والموعظة الحسنة، ولنا في رسول الله ﷺ قدوة حسنة فهو لم يقابل السيئة بمثلها، وإنما قابل السيئة بالحسنى، فهو لم يَرُدَّ عليهم بأسلوبهم نفسه، بل بأسلوب يظهر فيه الحرص والحنو على قومه، فلعله يؤثر فيهم.

٤ ـ على الدعاة أن يعووا حقيقة أمرهم بأنهم كمن سبقهم من الرسل وليس عليهم إلا البلاغ المبين، فلا يصد الداعية تجاهل القوم لدعوته، بل عليه الاستمرار في دعوته حتى يحكم الله بينه وبينهم، كما فعل شعيب عليه السلام مع قومه فلم يثنه عن دعوته قولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هُود: ٩١]، وكما لم يثن ذلك نبيّنا محمد ﷺ حين قال له المشركون: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٥].

٥ ـ أن من أسباب إعراض الأقوام عن اتباع الرسل والإيمان بما جاؤوا به كثرة المال والجاه الذي يحملهم على التمرد، ورفض الانقياد للحق الذي انقاد إليه الضعفاء.

٦ ـ يحسن بالداعية التنويع في العبارات من أمر ونهي وعكسه في القضايا التي تندرج تحت دعوته، فالمدعو إذا لم يتأثر بأحدها قد يتأثر بالآخر، كما كان أسلوب شعيب عليه السلام في دعوته مع قومه.



المبحث الثاني

سؤالات تتعلق ببشرية الرسل عليهم السلام

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: سؤالات الأقوام لأنبيائهم بإظهار قوتهم.

المطلب الثاني: سؤال الرسل الإتيان بالمعجزات.

المطلب الثالث: سؤالات عن المعجزات.

المطلب الرابع: طلب أن يكون الرسل على شاكلة واحدة.

المطلب الخامس: طلب إنزال كتاب وسورة.

المطلب السادس: سؤالات تتعلق باصطفاء الأنبياء بالرسالة.



المطلب الأول

سؤالات الأقوام لأنبيائهم بإظهار قوتهم

هناك أسئلة وجّهها الأقوام لأنبيائهم لإظهار قوتهم، لأنهم كانوا يستعظمون مقام الواسطة بينهم وبين الله، ولذا اشترطوا أن يكون الرسول أعلى من البشر، ولأن عقولهم القاصرة لم تستوعب أن يكون الرسول بشرًا، ويكون ذلك بأن ينزل الله عليه رسلًا من الملائكة، فلما استيأسوا توالت تنازلاتهم، فقالوا: لو أنزل مَلَكًا مُؤَيّدًا، للرسول في رسالته ويكون معه نذيرًا، ثم تنازلوا في سؤالهم إلى أن يكون نبيًّا مَلِكًا في الدنيا، أو أن يلقى إليه كنز من السماء، أو أسورة من ذهب، وقد أورد القرآن الكريم سؤالاتهم في ثمانية مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصّلت: ١٣ ـ ١٥].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فُصّلَت: ١٤].

السائل والمسؤول في هذه الآيات: قوم هود وقوم صالح، والمسؤول هم هود، وصالح[1].

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٤).

تظهر صلة هذا السؤال الذي جاء بصيغة الاعتراض بالسياق الوارد فيه السؤال في أن الآيات السابقة للسؤال أمر الله محمدًا ﷺ أن يقول لقومه محذِّرًا ومنذرًا لهم بوقوع عذاب عليهم يماثل العذاب الذي نزل بعاد، وثمود، إن سلكوا طريق أسلافهم في العناد والاستكبار، وأبوا إلا الإصرار على الكفر[1]. إذا جاءتهم رسلهم بما جاء به محمد ﷺ من عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوهم بذريعة أن الرسل بشر، فلما اتفق المشركون مع الأقوام السابقة في الكفر، واختلاق الذرائع للإعراض عن دعوة الرسل حتى كأنهم تواصوا به، ومن ذلك سؤالهم إنزال الملائكة[2] استحقوا مثل عذابهم.

ذكر المفسرون سبب نزول هذه الآية وهو يكشف عن صلتها بسياقها، فقد روي أن قريشًا بعثوا عتبة بن ربيعة، وكان أحسنهم حديثًا أن يكلّم رسول الله ﷺ وينظر ما يريده، فأتاه وهو في الخطيم، فلم يسأل الرسول شيئًا إلا أجابه، ثم قرأ سورة فصلت إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾ [فُصّلَت: ١٣] فناشده بالرحم، وأمسك على فيه ووثب مخافة أن يصيبه العذاب، ورجع إلى أهله فأخبرهم به فقال: والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة[3]

إن أعرض كفار قريش بعد أن جاءهم من الآيات والحجج والبراهين الدالّة على وحدانية الله وقدرته، ما الله به عليم؛ فأنذِرهم يا محمد، وخوِّفهم تخويفًا بعقاب مثل عقاب عاد وثمود، لاشتراكهم في السبب الموجب للعذاب من التكذيب والإعراض عن اتباع الرسل، ومن ذلك تشابههم مع الأقوام الكافرة في سؤالهم إنزال ملائكة من السماء، فاستحقوا بذلك صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، ولكن فضل الله ورحمته واسعة،

---

(١) نظم الدرر (٦/٥٥٩)، التفسير المنير (١٢/٥٢٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الوجيز للواحدي (٣/٣٨٢)، تفسير البغوي (١/١٦٦).

فقد أمهل قريشًا حتى آمن كثير منهم، واستأصل كفارهم بعذاب خاص[١]، وفي قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [فُصّلَت: ١٤]، الضمير عائد إلى قوم عاد وثمود، إذ بعث الله لهم هودًا وصالحًا، رسلًا من عنده، وجُمع الرسل هنا لأنهم جاؤوا جميعًا برسالة واحدة، فواحدهم يمثل جميعهم[٢].

وسؤال إنزال الملائكة متوارث بين المكذّبين من الأمم، قيل إنه جاء على سبيل الاستهزاء، وهو سؤال واهٍ، وإلا فليس من شروط صحة الرسالة أن يكون المرسل ملكًا، وإنما شرط صحتها أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه[٣].

ولم يجب الله الكفار على سؤالهم إنزال الملائكة، وفي هذا الموضع من القرآن الكريم اكتفى ببيان سبب كفر عاد وثمود وذكر ما اختص به كل منهما كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصّلَت: ١٥] فابتدأ في هذه الآية بذكر استكبار قوم عاد، فهم أقدم زمنًا من قوم ثمود، والاستكبار هو المبالغة في الكِبر والتعاظم عن امتثال أمر الله بإظهار النخوة، وعدم الالتفات إلى الآخرين،أو الاستعلاء على غيرهم[٤]، فتكبر قوم عاد هو ما صرفهم عن اتباع رسولهم، وسبب استكبارهم أنهم اغترّوا بقوة أجسامهم، وادعوا أنه لا يغلبهم أحد، وأن باستطاعتهم أن يدفعوا كل عذاب ينزل بهم، وردّ الله عليهم بأنه أشد منهم قوة، وجعل عقابهم مناسبًا لاستكبارهم بإهلاكهم، ثم جاء ذكر أسباب

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/٢٥٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/٣٤٦)، تفسير السعدي (٧٤٦)، أسرار التكرار في القرآن (١/١٤٨).

(٤) تفسير الرازي (١٣/٣٨٠)، تفسير البحر المحيط (٩/٤٤٨).

إعراض قوم ثمود في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصّلت: ١٧].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفُرقان: ٢١، ٢٢].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفُرقان: ٢١] والسائلون كفار قريش.

لما أنكر المشركون كون الرسول بشرًا يأكل، ويشرب، ويمشي في الأسواق، بيَّن الله تعالى سنّته في الرسل، وهي ما جعلوه وصمة في حقه، فهم جميعًا كانوا بشرًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، فلا وجه للطعن، فجاء سؤالهم إنزال ملائكة حتى يشهدوا أن محمدًا صادق في دعواه، وهذا سؤال يبين موقفًا عجيبًا من مواقف تعنت الكفار في عنادهم، وكفرهم بالرسل[(١)]

قال المشركون هذا القول الذي من شناعته لا يصدر إلا من الذين لا يتوقعون الرجوع إلى الله استهتارًا منهم، وعدم مبالاة بالبعث والحشر: هلّا أنزل علينا الملائكة، وهذا سؤال عجيب يظهر تعنت الكفار في الإصرار على الكفر والتكذيب للرسول ﷺ بوعد الله ووعيده[(٢)]

وسؤالهم هذا يحتمل أمورًا:

- أن يكونوا عالمين أن الله يرسل الملائكة إلى الأنبياء خاصة دون سواهم، فسألوا الله أن يريهم الملائكة عيانًا تشهد لهم بالرسالة وتؤيدهم عليها، قال به قتادة[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (٣٨/٥)، التفسير المنير (٤٨/١٠) بتصرف.

(٢) تفسير الطبري (١/١٩).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦٧٦/٨).

- ❑ أنهم أرادوا التعنت بسؤال آيات غير الآيات التي نزلت وقامت بها الحجة عليهم[1].
- ❑ أن يكون سؤالهم تنزيل ملائكة مستقلين يتميزون بالدعوة إلى الله ﷻ[2].

وقد ذكر الله تعالى أن سبب هذه الأسئلة والاعتراضات إنما هو الاستكبار والهروب من تبعات الإيمان[3]: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 21] والعتو والاستكبار: هو طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه، أو كان لائقًا به ولكنه يطلبه على سبيل التعنت[4]، ثم جاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفُرقان: 22] لتبيين أن للكافرين يومًا يرون فيه الملائكة من غير حجاب، وأول ما يرونهم وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وفي القبر حين يأتيهم منكر ونكير للسؤال، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم فتحل بهم النقمة وتزول عنهم الرحمة، وفي يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار زمرًا، فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه، وإن استمروا على إجرامهم فهم حينئذ يتعوذون من الملائكة ويتهربون منهم، ولكن لا منجى من الله إلا إليه فيقولون: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[5].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: 24].

---

(1) تفسير الرازي (24/61).
(2) تفسير السعدي (581).
(3) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (1/302)، تفسير أبو السعود (6/212).
(4) تفسير الرازي (24/59).
(5) زاد المسير (6/82)، تفسير السعدي (581).

السائل: قوم نوح. **والمسؤول**: نوح عليه السلام[1] بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

تظهر صلة السؤال بالسياق في أنه بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سياق الآيات السابقة للسؤال دلائل التوحيد وامتنانه عز وجل بتعداد نعمه على المشركين الذين كفروا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم معللين بأنهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم فشابهوا بذلك قوم نوح في الكفر بالله، وجحود وحدانيته، وتكذيب البعث والجزاء، والحساب، والمعاد واستنكارهم أن يكون النبي بشرًا رسولًا، ناسب ذلك أن يذكر موقف قوم نوح المشابه لموقف المشركين، ومن ذلك سؤالهم إنزال الملائكة تحذيرًا لهم أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح من العذاب[2].

في هذه الآية جاء وصف الملأ[3] بالكفر، مع اشتراك الملأ وعامة الناس بالكفر لتأصل الكفر في نفوسهم، والملأ: هم كبار القوم وسادتهم، وجاء القول منهم لأنهم هم الذين يتصدرون الناس بالكفر، ويصدّونهم عن الحق، فهم الذين قالوا لأتباعهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فاستنكارهم بشرية الرسول قد يكون اعتقادًا منهم أن الرسول لا بد أن يكون عظيمًا عند الله تعالى، وقريبًا له، والقريب لا بد أن يختص عن غيره بمزيد من الدرجة والرفعة، وبما أن نوحًا عليه السلام كان مساويًا لهم في البشرية كالغنى والفقر، والصحة والمرض، امتنع كونه رسولًا بالنسبة إليهم، أو أن ادعاءه النبوّة جاء لحبه للرياسة، وأن يكونوا أتباعًا له، فلم يجد سبيلًا إلى ذلك إلا بهذا الادعاء، وهذا هو الراجح لقوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فزعموا أن يطلب الفضل والرئاسة على قومه[4]،

(١) تفسير الرازي (١٦/١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٤٠/٨)، حوار الأنبياء مع أقوامهم (١١٧)، التفسير المنير (٣٥٥/٩).

(٣) الملأ: جمع القوم وهم الأشراف والسادة المتبوعون، ينظر المحرر الوجيز (١٤١/٤).

(٤) تفسير الرازي (٨٠/٢٣).

وقالوا ذلك لأنه يخالف أهواءهم، ومعتقداتهم بدعوتهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فكان ذلك سببًا لإغضابهم وإغراءً لهم على معاداته عليه السلام[(١)]، فجاء سؤالهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] قدحًا في نبوّته عليه السلام بمعنى لو شاء الله ألا يعبد سواه لسلك في ظنهم طريقًا يتحقق منه الغرض المقصود بإنزال الملائكة، وعبَّروا بقولهم إنزال الملائكة دون الإرسال: لإيمانهم بأن الملائكة خلق اصطفاهم الله عنده في السماء، وإرسال الملائكة للناس يستلزم نزولهم من السماء، وخصوا الملائكة في ذلك لعلوّ شأنهم، وشدة سطوتهم، وكثرة علومهم، فالخلق ينقادون إليهم، ولا يشكّون في رسالتهم، وفي قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أي ما سمعوا من آبائهم الأولين إرسال نبي لهم من الله يأمرهم بعبادته وحده ويرفض أصنامهم، أو ما سمعنا بمثله بشرًا جاء برسالة من ربه في أسلافهم وأجدادهم في القرون، ثم هم لا يكتفون بهذا التعنت والتحجر، بل يصفون نبيّهم بما هو بريء منه فيقولون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]»[(٢)].

وبعد أن استمع نوح عليه السلام إلى ما قاله قومه في شأنه من ضلالات وسفاهات، لجأ إلى ربه عز وجل يشكو إليه ما أصابه منهم، ويلتمس منه النصر عليهم، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فاستجاب الله له، ونصره عليهم فأغرقهم وأنجاه هو والذين آمنوا[(٣)].

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

يمكن أن يكون هذا السؤال غير المباشر بإنزال الملائكة لتبلّغ عن ربها قد صدر عن كفار قريش أو عمن قبلهم، ونفهم من السياق أنه إشارة

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٣٠).

(٢) تفسير الرازي (٢٣/ ٨١)، تفسير القرطبي (١٢/ ١١٨)، تفسير البيضاوي (٤/ ١٥٢)، فتح القدير (٣/ ٤٨١).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/ ٨١).

إلى ما مضى من الأقوام جميعًا فلا وجه لتخصيصه بقوم دون قوم، وإن كان السياق يجعل كفار قريش في المقدمة.

في الآيات السابقة للسؤال إنكار المشركين معجزة القرآن الكريم، وسائر الآيات التي أيّد الله بها نبيّه محمدًا ﷺ، وسؤالات منهم تضمنت اقتراحات لأجل التعنت لا لطلب الحق، وبعد أن رد الله سبحانه وتعالى عليهم أن وظيفة الرسل إبلاغ الناس، وليس تحقيق الآيات المقترحة، جاء ذكر السبب الواهي الذي منعهم من الإيمان، وهو سؤالهم الذي قصدوا به استبعاد أن يبعث الله رسولًا من البشر.

في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] أي ما منع المشركين عامة في كل زمان ومكان من الإيمان بالله وبرسله وبما جاؤوا به من الحقّ والبيان إلا قولهم جهلًا منهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١) بمعنى أنه ليس للمشركين حجة سوى اعتراضهم أن يكون أحد من البشر رسولًا، وهم بذلك يقترحون أن يكون الرسول ملكًا منزّلًا من السماء ظنًّا منهم أن الملك أعلى حالًا من البشر، وغفلوا عن رتبة الإنسان الكامل الذي سجد له الملائكة المقرّبون بأمر الله، وأودع فيه سرّ الخلافة، فهم ينكرون أن يتصل بشر بالله عن طريق الوحي، وينكرون أن يكون واحد من هؤلاء البشر رسولًا من عند الله، فهم لم ينظروا إلى الحكمة التي قضاها الله سبحانه وتعالى في إرساله واحدًا من البشر، ولم يجبهم الله سبحانه وتعالى على سؤالهم، إنما أمر الله نبيّه أن يردّ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] أي أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون الرسول من الملائكة، فالرسول من جنس المرسل إليه، لحكمة قضاها الله سبحانه وتعالى، فالجنس إلى الجنس أميل، فبما أن أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر، فالملائكة لا يستطيع رؤيتهم إلا من خصّه الله

---

(١) تفسير الطبري (٥٥٨/١٧).

من بني آدم برؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها[1]، ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن يقول لهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٦] وفي ذلك شهادة من الله تعالى على صدقه، فمن شهد الله له بالصدق فهو صادق بلا شك، ومن اعترض بعد ذلك بأن الرسول يجب أن يكون ملكًا لا إنسانًا فهو اعتراض وتحكم فاسد لا يلتفت إليه، ويروى أن كفار قريش حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٣]، قالوا: فمن يشهد لك أنك رسول الله[2]؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسـراء: ٩٦] فهو يعلم ظواهرهم وبواطنهم، ويعلم أنهم لا ينكرون صحة نبوّة محمد ﷺ إلا لمحض الحسد، وحب الرياسة، والاستنكاف من الانقياد للحق[3].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعَام: ٨].

ورد هذا السؤال بطلب من زعماء قريش من على شاكلتهم من جيرانهم ممن اجتمعوا على الكفر، وسعوا إلى التشكيك بنبوّة محمد ﷺ بشتّى الوسائل، وهذه واحدة منها.

قال مقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، وعبدالله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد، وقيل: كفار العرب[4]، وقيل: من أهل الكتاب[5].

والمسؤول: النبي محمد ﷺ.

جاء في سياق الآيات السابقة للسؤال ذكر بعض المواقف من عناد

---

(١) تفسير الطبري (١٥/١٦٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/٣٣٢).
(٣) تفسير الرازي (٢١/٥٠).
(٤) تفسير البحر المحيط (٤/٨٢)، تفسير ابن كثير (٥/٩٥).
(٥) تفسير البحر المحيط (٤/٨٢).

المشركين وجحودهم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] وقالوا ذلك لا لقصور فيما جاء به محمد ﷺ بل هو تعنت منهم مبني على الجهل، وعدم العلم بالمعقول، ثم جاء سؤالهم استئنافًا لبيان قدحهم بنبوّته عليه الصلاة والسلام بما هو أصرح من الأول[1]، ليثبت عليهم ما سبق ذكره عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

قال محمد بن إسحاق: «دعا رسول الله قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم فقال له زمعة بن الأسود بن عبد المطلب، والنضر بن الحارث، وعبدة بن عبد بن يغوث، وأبيُّ بن خلف والعاص بن وائل: لو جعل الله معك يا محمد ملكًا يحدث عنك الناس ويُرَى معك، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]»[2].

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] جاء قوله: ﴿لَوْلَآ﴾ للتحضيض بمعنى (هلّا)، واستعمله مشركو قريش من أجل التعجيز على حسب اعتقادهم، فهم سألوا النبي أن يريهم ملكًا، ظنًا منهم أن ذلك تعجيز وقدحٌ في نبوة محمد ﷺ، فكانوا يتعلّلون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل. لم يجب الله سؤالهم وإنما ردّ عليهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي أَنَّ المَلَكَ لو أنزل وعاينوه كما اقترحوا بحيث يشاهدونه، ويخاطبونه، ثم لم يؤمنوا عند نزوله، ورؤيتهم له، فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة

---

(١) نظم الدرر (٢/٥٩١)، تفسير الألوسي (٥/٢٣٦)، التفسير المنير (٤/١٤٨)، تفسير السعدي (٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/١٩١، رقم ٧١٥٧)، والطبري في تفسيره (٧/١٥٣).

بالعقوبة، فقد جرت سنة الله بذلك فيمن قبلهم، ولو أنزل الله ملكًا من السماء لجعله على هيئة رجل، كما مُثّل جبريل في صورة دحية الكلبي[١]، وذلك: لأن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك، ولو جعل الله الملك في صورة البشر، لالتبس عليهم الأمر فهم سيظنون أن ذلك الملك من البشر، ولذلك سيرفضون رسالته ويكررون سؤال إنزال الملك[٢].

الموضع السادس: من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

في سياق الآيات السابقة جاء ذكر تطاولهم على الله سبحانه وتعالى تكذيبًا منهم بكون القرآن الكريم كلامه سبحانه الذي أنزله على نبيّه، وقالوا إنه من كلام البشر، ثم جاء سؤالهم الذي يتضمن تعديًا على مقام الرسول ﷺ باعتراضاتهم الفاسدة وسؤالاتهم المتعنتة بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧].

قال ابن عباس: «لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة[٣]: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام من عند ربه معزيًا له، فقال: السلام عليك يا رسول الله رب العزة يقرئك السلام ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠][٤].

جاءت هذه الاعتراضات على بشريته من أنه يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويحتاج إلى كل ما يحتاج إليه البشر، وكان يتردّد في الأسواق طلبًا للتكسب، والتجارة، ويأمرهم وينهاهم، فلا ميزة لهذا النبي

---

(١) رجل من الصحابة الكرام.

(٢) تفسير الرازي (١٢/١٣٤)، تفسير القرطبي (٦/٣٩٤)، تفسير ابن كثير (٢/٢٢٥).

(٣) الفاقة: الحاجة، ينظر المحيط في اللغة (٢/٤)، تهذيب اللغة (٣/٢٨٤).

(٤) أسباب النزول (٣٣٢).

الذي يدّعي الرسالة، فالرسول لا بد أن يكون له منزلة خاصة عند الله، فيأتيه رزقه منه مباشرة، ولا حاجة له بدخول الأسواق والابتياع وقضاء حاجته، فجاء هذا التصور المادي المحسوس لقصر نظر وفساد عقول المشركين، وإلا فتميز الرسل على البشر من خلق وقيم معنوية، ونفوس طاهرة زكية، وأخلاق رفيعة بفضل وكرم منه جعلهم بذلك أهلًا للرسالة، وقدوة حسنة يقتدى بهم، ثم تمادوا في سؤالاتهم من أن يكون الرسول ملكًا مستغنيًا عن الأكل والكسب(١)، إلى سؤال آخر بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أي إن كان صادقًا فهلّا أنزل إليه ملك من السماء يعضده، ويساعده، ويصدّقه على ما يقول، ويكون له مؤيدًا، ونذيرًا، يشهد له بالرسالة، ويرد على من خالفه، ثم استمرّ كبار الكافرين بصدّ الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ محاولين تشكيك المؤمنين(٢) بقولهم: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا عقلُه، فهو يهذي بما لا حقيقة له.

ولم يستجب الله لسؤالهم، وإنما أمر نبيّه ﷺ بالنظر والتفكر في كيفية ضربهم له الأمثال فمثلوه مرة بمسحور، وأخرى بمجنون، وثالثة بكذاب، ورابعة بتلقي القرآن الكريم عن أعاجم، فهم بذلك قد ضلّوا طريق الحق والمحاجة الصحيحة، فلا يجدون إليهما سبيلًا(٣)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٩، ١٠].

الموضع السابع: قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٧٧)، التفسير المنير ١٩/٢٢)، أيسر التفاسير لأسعد حومد (١/٢٧٤٤).

(٢) تفسير النيسابوري (٦/٣٦)، المنتخب (٢/١١٧)، فتح القدير (٤/٩١)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣١١٣).

(٣) المنتخب (٢/١١٧).

هذا سؤال من كفار قريش وُجّه إلى النبي ﷺ على عادة كفار قريش ومن سبقهم من الكفار في الهروب من الإيمان بالرسل من خلال طرح طلبات لا صلة لها بأصل الموضوع.

في سياق الآية السابقة للسؤال تصوير للفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وما كان يعتري صدر الرسول ﷺ من الضيق، والحرج، وما يعانيه عند تلاوة القرآن الكريم على مشركي مكة مخافة سؤالهم ما لا طاقة له به إفحامًا وتعجيزًا وردًا لدعوته، وتعريض للمشركين برد اعتقادهم من أن الرسول سيأتيهم بما يسألونه من الخوارق، فإذا لم يأتهم بها جعلوا ذلك سندًا لتكذيبهم إياه[1]، وتمهيدًا للرسول في أنهم سيسألونه ما كان يخافه ويخشاه من خوارق الأمور، ثم جاء سؤالهم أن يدعمه ربه بكنز أو بمجيء ملك من السماء يعضده ويسانده[2].

المناسبة بين السؤال وسبب النزول: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبالَ مكة ذهبًا إن كنت رسولًا، وقال آخرون: إئتِنا بالملائكة يشهدوا بنبوّتك[3].

في هذه الآية وجّه رب العزّة والجلال الخطاب إلى محمد ﷺ بمعنى: لعلك تترك تبليغ قومك فيما يلقى إليك من ربك مخافة ردّهم لك وتهاونهم بك لعظيم ما تراه منهم من الكفر، والتكذيب والجهل، والتعنت، والاقتراحات البعيدة بعدًا كاملًا عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها فيضيق صدرك، لأنهم كانوا لا يعدّون القرآن الكريم معجزة، ويتهاونون به وبغيره من الأمور الخارقة التي جاء بها محمد ﷺ بحجة أن ما أنزل عليه من البيّنات الباهرة والبراهين الساطعة مما لا يريدونه[4].

---

(١) التحرير والتنوير (١٠٢/٧).

(٢) تفسير البيضاوي (٢٢٤/٣)، تفسير أبو السعود (٣٢٤/٣)، التفسير المنير (٣٣٧/٦).

(٣) زاد المسير (٨٢/٤)، تفسير الرازي (١٥٤/١٧)، تفسير أبي السعود (٣٢٤/٣)، تفسير الألوسي (١٨٢/٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٥٨/١٥)، الكشاف (٧١/٣)، تفسير القرطبي (١٢/٩)، تفسير النسفي (١٤/٢).

وهذا الأسلوب في القرآن الكريم قصد به تحريك وإيقاد همة الرسول ﷺ[١]. وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هُود: ١٢] جاء فعل المضارع: ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ [هُود: ١٢] لتحدد هذا السؤال، وتكرره منهم بقرينة العلم بأنه صدر منهم في الماضي كسؤال الكنز، وإنزال الملك، وبقرينة التحذير من أن يكون ذلك سببًا في ضيق صدره، لأن التحذير إنما يتعلق بالمستقبل، وهذا ما ذكره ابن عاشور في تفسيره[٢]، وقوله: ﴿لَوْلَآ﴾ جاءت للتحضيض بمعنى أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: إن كنت صادقًا في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقوة، والقدرة على كل شيء، وأنك عزيز عنده فهلّا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك، وما تعين به أنصارك[٣]. وقالوا: أنزل ولم يقولوا أعطي لأنهم قصدوا من ذلك التعجيز بأن ينزل عليهم كنز من السماء على خلاف العادة، فإن الكنوز إنما تكون في الأرض[٤]، أو إن كنت صادقًا فهلّا أنزل الله عليك ملكًا يشهد لك على صدق قولك بالرسالة، ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك. وسؤالهم إنزال الكنز، ومجيء الملك، جاء جحودًا، واستكبارًا، واستهزاءً، وحسدًا من عند أنفسهم، وجهلًا منهم بحقائق الأمور، وتوهّمًا منهم بأنّ الله سيعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، فهم قاصرون عن فهم المعجزات الإلهية، ومَدى التأييد الربّاني، ولم يستجب الله لسؤالهم، واكتفى ببيان وظيفة الرسول كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢] أي ما على الرسول إلا أن ينذرهم، أما هدايتهم فأمرها إلى الله تعالى، والآيات التي يسألونها عنده، وفي سلطانه تتنزل بأمره وبمشيئته[٥]، فسبحانه وكيل عليهم

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/٥)، أضواء البيان (٣١٦/١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٥).

(٣) تفسير الخازن (٤٤١/٣).

(٤) تفسير الألوسي (١٨٢/٨).

(٥) تفسير الطبري (٩/١٢)، تفسير البحر المحيط (٢٠/٥).

يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء، وهو الرقيب على عباده، وفي ذلك أمرٌ للنبي ﷺ أن لا يبالي بهم، ولا يضيق صدره بما يقولون، فالله أعلم بحالهم ومجازيهم على أعمالهم[(١)].

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٣].

جاء هذا الطلب على لسان فرعون وقومه، وقد وُجّه إلى موسى عليه السلام.

تظهر علاقة السؤال بسياق الآيات، فقد جاء لذكر اعتزاز فرعون في قومه بملكه، وسلطانه، وفصاحة لسانه، وتمام خلقه، فلما وصف نفسه بالعزة والملك، وازن بينه وبين موسى عليه السلام، فوصفه بالضعف، وقلّة الأعضاد، وتنقَّصه بما نسب إليه من الرِّتة التي كانت في لسانه، ثم فرع على موسى بسؤال قصد من ورائه التعجيز، والتحدي لموسى في أن يكون له قوة مساندة[(٢)]، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٣].

(لَولا) حرف تحْضيض مستعمل في التعجيز، أي: هلّا ألقي على موسى من ربّه الذي أرسله أسورة من ذهب من السماء[(٣)]، إن كان صادقًا وسيّدًا تجب علينا طاعته. والأسورة: هو جمع سوار، وهو القُلْب الذي يجعل في اليد، وكان لبسه زي أهل الشرف المعتاد في ذلك الوقت[(٤)]، وجاء سؤال فرعون إنزال أسورة لظنّه أن رتبة الرسالة كرتبة المُلْك، فكما أن الأسورة شعار الملوك فانتفاء الأسورة عن الرسل أمارة على انتفاء الرسالة، قال مجاهد: «كانوا إذا سوّدوا رجلًا سوّروه بسِوارين وطوّقوه

(١) تفسير السعدي (٣٧٨).

(٢) تفسير البيضاوي (١٦٦/٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٨/١٣).

(٤) تفسير الطبري (٦١٩/٢١).

بطَوق من ذهب علامة لسؤدده»[(١)]، ثم أتبع سؤاله بسؤال آخر كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرُف: ٥٣].

﴿أَوْ﴾ جاءت للترديد، أي إن لم تُلْق عليه أسورة من ذهب، فهلّا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه مقترنة قد اقترن بعضهم ببعض، فتتابَعُوا يمشون معه يشهدون له بأنه رسول من الله إليهم فيدلّون على صحة نبوّته، وحتى يتكثر ويتباهى بهم ويصرفهم بأمره ونهيه، فيكون ذلك أهْيَب للقلوب، فأوهم فرعون قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا على هيئة الجبابرة، ومحفوفين بالملائكة، ويكونوا كرسل الملوك، في الشاهد على ملكهم، وتجاهل فرعون أن رسل الله إنما أيّدُوا بالجنود السماوية، بدلالة حفظ الله لموسى من كيده مع كثرة أتباعه، وإمداد الله لرسوله بالمعجزات التي كانت أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعوانًا. وذكر فرعون الملائكة مع أنه لم يؤمن بخالقهم إذ لعله سمع من موسى عليه السلام أن لله ملائكة في مقام الدعوة فأراد تحدّيه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له[(٢)]

قال القرطبي: «ولم أقف على أنهم كانوا يثبتون وجود الملائكة بالمعنى المعروف عند أهل الدين الإلهي، فلعل فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى، إذ لعله سمع منه أن لله ملائكة، أو نحو ذلك في مقام الدعوة، فأراد إفحامه أن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له»[(٣)]

ولم يجب الله سؤال فرعون وهو القادر على إجابته، وإنما أَتْبَعَ سؤالهم ببيان فسق قومه لمَّا استخفّهم وخدعهم بمقولته فأطاعوه على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى عليه السلام، وعلى الرغم

(١) تفسير البغوي (٦٥٢/١).

(٢) تفسير مقاتل (٢٢١/٣)، تفسير الطبري (٣٦١/٢١، ٦١٩)، تفسير القرطبي (١٠٠/١٦).

(٣) تفسير القرطبي (١٠٠/١٦)، وقال عنه ابن عاشور ولم ينسبه إلى القرطبي (٣).

ممّا أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربّه فيكشف عنهم البلاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٤]. ثم بيّن سوء عاقبة فرعون وقومه بأن اشتد غضب الله عليهم لإفراطهم بالفساد، فأوقع عليهم العذاب وجعلهم عبرة لمن كفر بعدهم باستحقاق عقوبة مثل عقوبتهم[١]، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزّخرف: ٥٥، ٥٦].

كشفت المواضع المتقدمة عن هدايات قرآنية يحسن الوقوف عليها وهي:

١ ـ سؤال الأقوام لأنبيائهم بإظهار قوتهم كان من أسبابه الإعراض عن اتباع ما جاء به الرسل، والاستهزاء استكبارًا، وتكذيبًا، لاغترارهم بقوة أجسامهم، وعزة أممهم، ومنعة حصونهم، حتى ظنوا أن باستطاعتهم أن يدفعوا كل عذاب ينزل بهم، وهذا الشعور الكاذب الذي يشعر به الطغاة والجاهلون يتجدد في كل زمان ومكان.

٢ ـ اتفاق المشركين في عهد النبوّة مع الأقوام السابقة في الكفر، والضلال، والتنطع بكثرة السؤال، فكأنهم تواصوا به وتوارثوه فيما بينهم.

٣ ـ التحذير والإنذار لمن كفر، وضلّ عن الطريق بعد أن جاءه الحق بعذاب مماثل للعذاب الذي نزل بعاد، وثمود، ومن جاء قبلهم، ومن جاء بعدهم من الأمم.

٤ ـ بيان أن الرسول ﷺ لمْ يُكَلَّفْ هداية الناس، وإنما كُلِّفَ إنذارهم عاقبة كفرهم وعصيانهم، وعلى الله تعالى بعد ذلك مجازاتهم.

٥ ـ إباحة دخول الأسواق للعلماء، وأهل الدين والصلاح، خلافًا لمن كرهه منهم.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٠١).

٦ ـ أن المشركين أنكروا أن يكون الرسل بشرًا، وإن كان الرسول من البشر فلا بد أن يكون مؤيدًا بملك يناصره ويعضده.

٧ ـ في هذا السؤال تسلية للرسول ﷺ ممّا يلقاه من عناد المعرضين، وتعنت المكذبين، وفيه تطمين لقلب الرسول، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، أسوة بمن سبقه من الأنبياء.

٨ ـ أن الرسول بشر يتوقع منه ما يتوقع من النفس البشرية، أن يضيق صدره من جهل وتعنت من يدعوهم، لكن الله تعالى يشرح صدره ويثبّته، ويلقي عليه الصبر.



المطلب الثاني

سؤال الرسل الإتيان بالمعجزات

كان من الأسئلة التي وجهها الأقوام لأنبيائهم اختلاق المعجزات من تلقاء أنفسهم سواء كانت آيات كونية معينة، أو معجزات مخصوصة، زاعمين أن رسل الله تعالى لديهم القدرة على الإتيان بتلك الخوارق، ويكون ذلك دلالة على نبوّتهم، وصدق رسالتهم، وقد ورد ذلك في موضعين من القرآن الكريم:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

السائل والمسؤول في هذه الآيات: الأقوام ورسلهم[(١)].

علاقة السؤال بالسياق ما يلي: في الآيات السابقة للسؤال بيّن الله سبحانه وتعالى أن الرسل كلهم أمروا أقوامهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة أي مخلوق، وأنهم مؤيّدون من عند الله بالمعجزات، والحجج، والبراهين الباهرة والقاطعة التي تثبت صدقهم

(١) تفسير الطبري (٥٣٦/١٦)، تفسير ابن كثير (٥٢٦/٢)، تفسير أبو السعود (٣٧/٥).

في دعوتهم إلى الله، وقابل الأقوام ذلك بتصريحهم لرسلهم بأنهم كافرون، وأنهم شاكُّون فيما جاؤوا به من الوحي والمعجزات، واختلقوا المعاذير بأنهم بشر مثلهم، ثم أتبعوه بسؤالهم كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠](١)

يظهر في هذه الآية موقف الرسل من أقوامهم تجاه تشكيكهم في وجود الله ووحدانيته سبحانه وقدرته، باستفهام منهم للتقريع، والتوبيخ، والاستنكار، وجاء هذا الاستفهام من الرسل لأقوامهم لنفي ما اعتقدوه من وقوع الشك في وجود الله تعالى، وفي وحدانيته سبحانه، وهو خالق السموات والأرض، الذي أنشأهما من العدم على غير مثال سابق، وجيء بقوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] دليلًا على نفي الشك في وجوده سبحانه، وفي وجوب إخلاص العبادة له، وهو الذي يدعو الأمم إلى الإيمان؛ ليغفر لهم ذنوبهم، ويؤخرهم إلى أجل قد قدَّره لهم، فما كان جوابهم لرسل الله إلا أن قالوا: إن أنتم إلا بشر مثلنا في الصورة والهيئة، وإنما تريدون بقولكم الذي تقولونه لنا أن تصرفونا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان، فأرادوا بذلك إفحام الرسل بنفيهم اختصاصهم بشيء زائد في صورتهم البشرية، يثبتون به اصطفاءهم بالرسالة دون غيرهم، وهم بذلك ظنوا أن قولهم هذا حجة قاطعة، لأن المماثلة بينهم وبين الرسول محسوسة، ولا تحتاج إلى تطويل في الاحتجاج، ثم جاؤوا بسؤال الحجة المبينة لحقيقة وصحة ما يدعون إليه بأن يأتوا بمعجزات محسوسة تثبت أن الله اختارهم بالرسالة، فقالوا: كيف نتّبعكم بمجرد قولكم، ولم نر منكم معجزة؟(٢): ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (السلطان المبين): أي البرهان والبينة، قاله مجاهد(٣)، والمعنى: إن الأمم كانت تقول لرسلها إن كنتم رسلًا من عند الله كما تدعون فأتونا بما يدل على صحة ما تدعونه من الرسالة، وما يدل على فضلكم

---

(١) أضواء البيان (٢/٢٤٤)، التفسير المنير (٧/٣٣٩).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٣٤٦)، تفسير ابن كثير (٤/٤٨٢)، التحرير والتنوير (٦/٢٠٠).

(٣) تفسير الطبري (١٦/٥٣٧).

واستحقاقكم لتلك المرتبة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبًا عن جد[١]، ولا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية.
والذي يظهر أن المراد من سؤالهم السلطان هنا: هو ما يطلبونه من الآيات على سبيل التعنت واللجاج، وإلا فما جاء به الرسل من الدلائل والآيات كافٍ، ولكنهم قلدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضلال، فزعموا بأن ما جاءهم به الرسل من المعجزات أمور معتادة وليست من باب المعجزات الخارجة عن قوة البشر، فلم يعتبروا بما جاؤوهم به من البيّنات والحجج، فاقترحوا على رسلهم آيات أُخر، فلذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠][٢]. فقابل الرسل أقوالهم بالمنطق الحكيم، وبالأسلوب المهذّب على سبيل الإرشاد والتنبيه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ. . .﴾ [إبراهيم: ١١] أي: نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم كما قلتم، فأفهموهم بطريق الاستدراك، أن المشاركة في الجنس لا تمنع التفاضل، فالبشر كلهم عباد الله، ولكنه سبحانه يمنّ على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم، فالرسل عليهم السلام قد سلموا للمكذبين دعواهم المماثلة في البشرية في أول الأمر، لأن فيه إطماعًا في الموافقة، ثم كروا على قولهم بالإبطال فقالوا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١] حتى يبيّنوا لأقوامهم جهلهم، وسوء تفكيرهم في أن هذه المماثلة بينهم في البشرية، لا تمنع من أن يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده بأن يمنحه النبوّة أو غيرها من نعمه التي لا تحصى.

ثم جاء رد الرسل على سؤال المكذبين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما صح، واستقام لنا أن نأتي بحجة من الحجج فضلًا عن خارقة من الخوارق التي تسألونها إلا بإذن الله، وإرادته وأمره، فهم عباده

(١) تفسير الألوسي (٩/٣٣٣).
(٢) تفسير الرازي (٩/٢٢١)، تفسير البيضاوي (٣/٢٤٩)، تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤٦٧).

ولا يتصرّفون إلا بإذنه، ثم أكدوا تمسكهم بالمضي في دعوتهم فقالوا كما حكى الله في القرآن الكريم عنهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: من المشركين، **والمسؤول**: قال قتادة: هذا قول كفار قريش إلى محمد ﷺ[1].

علاقة السؤال بالسياق ما يلي: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سياق الآيات السابقة للسؤال إغواء الشياطين وإضلالهم، بيّن في هذه الآية نوعًا من أنواع الإغواء والإضلال، وهو أنهم كانوا يسألون آيات معينة ومعجزات مخصوصة على سبيل التعنت، فإذا لم يُجَب سؤالهم أتبعوه بسؤال آخر، بقولهم: هلّا اختلقتها من عند نفسك جريًا على اعتقادهم بأن القرآن الكريم من عند محمد[2] كما جاء في القرآن الكريم حكاية: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبإ: ٤٣].

في هذه الآية إعلام لمحمد ﷺ بأن الكفار المكذبين لا يزالون في تعنت وعناد، ولو جاءهم بالآيات الدالّة على الهدى والرشاد وعلى صدقه لن ينقادوا له، وإذا لم يأتهم بآية مما اقترحوها، أو آية من القرآن الكريم قالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ أي هلا اختلقتها وتقوّلتها من تلقاء نفسك زعمًا منهم أن القرآن الكريم من عنده، أو أنه متمكن من الإتيان بالآيات

---

(١) تفسير الطبري (٩/١٦٠)، زاد المسير (٣/٣١١)، تفسير الصنعاني (٢/٢٤٧)، تفسير السعدي (٣١٤).

(٢) تفسير الرازي (١٥/٨٢)، التفسير المنير (٥/٢٣٨).

الكونية والمعجزات المخصوصة، فكأنه المنزّل للآيات، ولم يعلموا أنه ليس له أن يخترع معجزة من عند نفسه[1].

فجاء الردّ حاسمًا لهذا السؤال في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ [الأعراف: ٢٠٣] بأن أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن يقول لهم إنما أنا عبد مُتَّبع، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبتْه حكمته البالغة، ثم نبّههم سبحانه وتعالى إلى ما يحقق الهدف بأن أرشدهم إلى أن هذا القرآن الكريم أعظم المعجزات الذي يشتمل على البصائر للقلوب كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، فالقرآن الكريم هو الآية التي لا تضمحل على تعاقب الأوقات، والحجة التي لا تبطل في جميع الآنات، ثم خصه بأنه هدى ورحمة لمن آمن، واهتدى به واتبعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] فالمؤمن المهتدي بالقرآن الكريم المتبع له سعيد في الدنيا والآخرة، وأما من لم يؤمن به فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة[2].

دلّت الآيات على مجموعة من المعالم القرآنية التي ينبغي التأمل فيها والإفادة منها وهي:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] إرشاد الرسل لأقوامهم بأيسر الطرق في الدعوة إلى التوحيد، وأقربها إلى معرفة الحق، وهو الاستدلال بآيات الله وسننه الكونية وتفرده سبحانه بتصريفها، على تفرده بالإلهية واستحقاقه أن يعبد وحده لا شريك له، فذلك أهدى سبيلًا، وأقوى في إقناع الخصم.

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] اتحاد نظرة الأقوام للرسل في كل زمان ومكان، فهي متماثلة فهم يميلون إلى

(١) تفسير الطبري (١٦٠/٩)، زاد المسير (٣١٢/٣)، تفسير السعدي (٣١٣).
(٢) المحرر الوجيز (٤٩٣/٢)، التسهيل لعوم التنزيل (٥٦/٢)، تفسير السعدي (٣١٤).

تقليد آبائهم ويصرون على الكفر وإنكار ما جاء به أنبياؤهم من معجزات بطعنهم فيها زاعمين أنها ليست معجزات فيسألون معجزات أخرى محسوسة وخارقة للعادة يختارونها من عند أنفسهم.

٣ ـ يستفاد من إجابات الرسل لأقوامهم:

- مقابلتهم لسؤالات أقوامهم المتعنتة بالمنطق الحكيم بالتنزل مع الخصم كموافقتهم لهم بالمماثلة في البشرية طمعًا في اتباعهم لما جاؤوهم به من دعوتهم إلى الحق.
- إرشادهم وتنبيههم إلى أن التدبير ليس لهم، ولا لغيرهم، إنما التدبير بيد الله سبحانه وتعالى.
- إعلامهم أن مهمة الرسل هي التبليغ والإنذار والتبشير، وإن قدراتهم البشرية محدودة.
- الأمر بالتوكل على الله، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه[1].

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] بيان تعنت وتشدد أهل مكة مع النبي ﷺ ومطالبهم التي قصدوا من ورائها التحدي، والتعجيز، لا للتوصل إلى التصديق والإيمان، وإلا أقنعهم القرآن الكريم معجزة، وآية على تصديق هذا النبي.

٥ ـ سؤال كفار قريش للنبي محمد ﷺ أن يأتيهم بآية من عند نفسه اتهام له بأخطر أنواع الاتهام، وهو اختلاق القرآن الكريم من عند نفسه وتمكنه من الإتيان بالمعجزات وخوارق العادات.



---

(١) تفسير السعدي (٤٢٢).

المطلب الثالث

سؤالات عن المعجزات

كان من الأسئلة التي وجهها الكفار الجهلة المعاندون من أهل الكتاب والمشركون لمحمد ﷺ استكبارًا وعتوًّا، واستخفافًا بالآيات التي جاء بها طعنًا في نبوّته، وتشكيكًا في رسالته، وقد ورد ذلك في ثمانية مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البَقَرَة: ١١٨، ١١٩].

محل السؤال: في الآية قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ﴾ بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: هم اليهود، والنصارى، والمشركون[١]، قال البيضاوي: «لا دليل على تخصيص بعض دون بعض، بل يرجح العموم لكون الآية مدنية»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٦٣)، التحرير والتنوير (١/٦٨٩)، وللاستزادة ينظر إلى مطلب التكليم في المبحث الأول.

(٢) تفسير البيضاوي (١/٣٩٦).

والمسؤول: هو النبي محمد ﷺ بدلالة سياق الآية اللاحقة للسؤال.

علاقة السؤال بالسياق: الآيات السابقة للسؤال ذكرت أباطيل الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، والرد عليهم بما يظهر زيفها ويبطلها نهائيًا، ثم جاء سؤالهم الذي يحمل في طياته سوء تصورهم الذي ماثل من سبقهم من الأقوام الكافرة في طبيعتهم، وضلالهم كاشتراطهم أن يكلمهم الله، أو تأتيهم آية حتى يؤمنوا بالله ويوحدوه بالعبادة، ويصدقوا محمدًا ﷺ في نبوّته ورسالته[(١)]

المناسبة بين سبب النزول والسؤال: عند النظر في الآيات نجد أن السؤال هو سبب نزول الآيات كما ورد عن ابن عباس قال: «قال رافع بن خزيمة لرسول الله ﷺ: إن كنت رسولًا من الله كما تقول: فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. . .﴾ [البَقَرَة: ١١٨]»[(٢)]

في هذه الآية إشارة إلى الجهلة من المشركين والمتجاهلين من أهل الكتاب الذين سألوا محمدًا ﷺ آيات محسوسة، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] فجاءت ﴿ءَايَةٌ﴾ نكرة للتنوع، فهم أرادوا مطلق آية، والآية: هي العلامة الدالة على صدق الرسل، فالآيات بنظرهم هي الحوادث الكونية، أو المخلوقات العظيمة الملموسة، وما علموا أن القرآن الكريم هو أعظم آية علمية، وعقلية، لعمومه ودوامه، فقد عجزوا عن معارضته، وتحدّاهم أن يأتوا ولو بسورة، فما استطاعوا، وقصدوا بذلك المكابرة والجحود لما جاءهم من الآيات[(٣)]، فكما سأل كفار قريش وتمنّوا على ربهم، فقد سألت اليهود ربها أن يريهم نفسه جهرة أو تأتيهم آية، فتشابهت قلوب اليهود، والنصارى، والمشركين، في تمردهم على الله، لقلة معرفتهم بعظمته سبحانه، ولجرأتهم على الأنبياء ورسله، ونفي العلم

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٦٣)، تفسير الألوسي (١/٣٧٠)، أيسر التفاسير (١/٥٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٥)، والطبري في تفسيره (١/٥١٢).

(٣) تفسير الطبري (١/٥١٢)، التحرير والتنوير (١/٦٩١)، صفوة الآثار (١/٣٥٦).

عن أهل الكتاب لأنهم لم يعملوا به، وعن المشركين لأنهم ليس لهم كتاب ولا هم أتباع نبوّة[١].

وقد أعرض الله عن إجابتهم، واكتفى بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨] أي قد بيّنت لهم آيات القرآن الكريم وما اشتملت عليه من الدلائل، أما هؤلاء الكفار والمشركون فليسوا أهلًا للجواب، لأنهم لم يريدوا إلا المكابرة والعناد، لا الوصول إلى الحق، وإلا فمن المعلوم والمشهور أن الصحابة كانوا يراجعون النبي ﷺ في ما لم يظهر دليله، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل، فهؤلاء هم الناس الذين تتنزل الشرائع من أجلهم، فهم لديهم الاستعداد بحسن التلقي وصدق العمل، فلولا استعدادهم بذلك لما كانوا بهذه الصفات الجليلة ولا استحقوها، فكل من سار على نهجهم انتفع بهداية القرآن الكريم، وحصل على دلالة الإيقان، وأما من يطلب الآيات مع ظهورها فهو من الكفار المعاندين مع رسلهم، فهم قصدوا سؤالات التعنت لا سؤالات الاسترشاد، وإلا فالرسل جاؤوا بآيات يؤمن بمثلها البشر[٢].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ بدلالة الصيغة وسياق الآية.

السائل: كفار قريش، قيل رؤساؤهم، وقيل الحارث بن عامر وأصحابه[٣].

والمسؤول: محمد ﷺ[٤].

(١) تفسير البيضاوي (٣٩٢/١)، تفسير الألوسي (٣٧٠/١).
(٢) تفسير السعدي (٦٤).
(٣) تفسير ابن أبي زمنين (١٨٠/١)، التسهيل لعلوم التنزيل (٨/٢)، تفسير أبي السعود (١٣٠/٣).
(٤) تفسير الطبري (١٣٨/٧)، تفسير ابن أبي زمنين (١٨٠/١)، التسهيل لعوم التنزيل (٨/٢).

علاقة السؤال بالسياق ما يلي: في سياق الآيات السابقة للسؤال تسلية للرسول ﷺ بما يشرح صدره ويسرّ خاطره، وإعلامه بأن أمر هداية الخلق بيده سبحانه، ولو شاء لهداهم أجمعين، ثم أظهر الله تعالى حقيقة علمية تساعد النبي ﷺ على الثبات والصبر، وهي أن الذين يستجيبون لدعوته هم الذين يسمعون سماع التدبر ويتفهمون الآيات بإمعان ورويّة، والمعرضون عن الدعوة هم الذين يعطلون حواسهم فلا يسمعون سماع التدبر ولا يتفهمون الآيات، ثم جاء سؤال هؤلاء المعرضين تنزيل آية محسوسة تعنتًا، وإعراضًا عن الحق، فصاروا كأنهم موتى بموت قلوبهم لا موت أجسادهم، وإلا فالحجة عليهم هي القرآن الكريم الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله لما فيه من الأخبار والمغيبات، وسلامته من التناقض والتعارض[١].

تظهر الصلة بين السؤال وسبب النزول من خلال ما نقل عن ابن عباس أنه قال: «نزلت في رؤساء قريش»[٢].

فقد جاء فيها سؤال كفار قريش لمحمد ﷺ إنزال آية من ربه على سبيل التعجيز، عنادًا، وجحودًا، فهم لم يعتدّوا بما جاء به فطعنوا في القرآن الكريم، فقالوا: إنه من جنس الكتب والكتاب لا يكون من جنس المعجزات[٣]. فسألوا آية تضطرهم إلى الإيمان من غير نظر ولا تفكر[٤]، فطلبوا معجزات كونية قاهرة من جنس معجزات الأنبياء، مثل فلق البحر[٥]، وقيل إنهم قصدوا بذلك آيات الاقتراح التي اقترحوها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسرَاء: ٩٠] وقيل قصدوا نزول ملك يشهد له بالنبوّة[٦].

---

(١) تفسير الطبري (١٣٨/٧)، التفسير المنير (٢٠٠/٤)، أيسر التفاسير (٣٣٢/١).
(٢) تفسير البحر المحيط (٩٥/٤)، زاد المسير (٣٤/٣).
(٣) تفسير أبي السعود (١٣٠/٣).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٨/٢).
(٥) تفسير الرازي (١٧٤/٢).
(٦) تفسير السعدي (٢٥٥).

والله ﷻ لم يجبهم إلى سؤالهم وإنما أمر رسوله أن يرد عليهم كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] فابتدأ باسم الله في الرد إشعارًا بعلوّه، وإظهارًا لهيبته سبحانه، أي قل: يا محمد، إن الله قادر على أن يجيبهم عن سؤالهم بإنزال الآية والحجة على ما يريدون، ولكن حكمته تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل الآية وفق ما طلبوا، ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأقوام السابقة، ونفى الله العلم عن أكثرهم لأنهم يعلمون حقيقة أمر النبوّة، وصدق الرسالة فلم يفدهم علمهم فهم يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادًا(١)

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠].

محل السؤال في الآية: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

السائل: من المشركين، وقيل أهل مكة، **والمسؤول:** محمد ﷺ(٢).

علاقة السؤال بالسياق ما يلي:

في سياق الآيات السابقة أقام الله الأدلة على فساد عبادة الأصنام، لأنها لا تقدر على نفع، أو ضر، ويتشفعون بها عند الله، ثم ذكر ما كان عليه الناس من الوحدة في الدين، ثم ما صاروا إليه من الاختلاف، ثم الوعيد الشديد على الاختلاف المؤدي إلى الشقاق، ثم حكى سبحانه لونًا آخر من ألوان تعنت المشركين وجهالاتهم بسؤالهم إنزال آية(٣).

في هذه الآية يقول الكفار المعاندون: هلّا أنزل محمد آية واحدة

---

(١) تفسير الألوسي (١٤٢/٧).

(٢) تفسير الطبري (٩٩/١١)، تفسير القرطبي (٣٢٣/٨)، فتح القدير (٤٣٤/٢).

(٣) تفسير أبو السعود (١٣٣/٤)، تفسير الألوسي (٤٦٧/٧)، الوسيط لسيد طنطاوي (٢٠٩٦/١).

من ربه خارقة للعادة، تكون دليلًا على أن محمدًا محق فيما يقول، وقيل: إنهم أرادوا بالآية عذابًا[1] وذلك من فرط عنادهم، وشدة ضلالهم، وتماديهم في التمرد وانهماكهم في الغي، فهم لا يعتدّون بما أنزل عليهم من الآيات العظيمة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها.

فلذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]. فهو وحده يعلم متى يأتي كفار قريش العذاب، ولم تطل مدة الانتظار ونزل بهم العذاب ببدر فهلك رؤساؤهم وأكابر المستهزئين.

الموضع الرابع: قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧].

هذا طلب من كفار قريش للنبي محمد ﷺ، وقد تكرر هذا منهم في مواضع كثيرة، كلّما دعاهم إلى الإيمان بحثوا عن حجج واهية لتسويغ كفرهم على حدّ زعمهم.

جاء في هذه الآية سؤال كفار قريش لمحمد ﷺ إنزال آية كفرًا وعنادًا، وابتدؤوه بـ﴿لَوْلَآ﴾ وهو حرف تحضيض، وذلك للتمويه على الرسول ﷺ في أنهم راغبون في نزول آية غير القرآن الكريم ليؤمنوا، فقالوا: هلّا أنزل عليه علامة على نبوّته كإنزال الملَك، أو الكنز، أو...، وذلك لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه، وقصدوا بذلك التعجيز، ويجعلون هذا القول منهم عذرًا لهم في عدم الاستجابة للرسول ﷺ، فجاء الرد من الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فقصر سبحانه مهمة النبي ﷺ على صفة الإنذار والتخويف من سوء العاقبة، وجعله ناصحًا كغيره من الرسل، ومبلغًا لهذه الأمة الرسالة، فالله وحده هو الذي ينزل الآيات، وجعل لكل قوم إمامًا يأتمُّون به، ومن ذلك دعوة الرسل وأتباعهم الأقوام إلى عبادة الله وحده،

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٢/٤٥٩).

ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى لعلهم يهتدون[(١)].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

سؤالات من كفار قريش تدلّ على جاهليتهم وسفاهة أحلامهم، حين طلبوا طلبات لا صلة لها البتة بالدعوة التي جاء بها النبي ﷺ، ولا تمتّ هذه الطلبات إلى حقيقة الدعوة بصلة، وهي كلها تتجه إلى شخص النبي ﷺ وليس إلى ما جاء به النبي ﷺ، وهذا هو منبع الانحراف وأساسه لدى كفار قريش ولدى كل من تابعهم إلى يومنا هذا.

روي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في رؤساء قريش، مثل عتبة، وشيبة، وأبي سفيان، وأبي جهل، اجتمعوا على ظهر الكعبة، وبعثوا إلى الرسول ﷺ، فطلب منهم أن يوحّدوا الله ويعبدوه، فرغّبوه بالمال والرئاسة، حتى يترك ما يدعو إليه، فأبى، فقال لهم: «**مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ لِطَلَبِ أَمْوَالِكُم، وَلَا لِلشَّرَفِ فِيكُم، وَلَا لِلمُلْكِ عَلَيْكُم، ولَكِنَّ الله ﷻ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالَةَ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُم بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**» قالوا له: يا محمد إن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك علمت أنه ليس أحد أضيق بلادًا ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك فليسيّر عنا

(١) تفسير النسفي (٢/٢١١)، فتح القدير (٣/٦٨)، التحرير والتنوير (٨/٩٤).

هذه الجبال التي ضيقت علينا وسله فيجعل لك جنانًا، وكنوزًا، وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم في الأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ بِهَذَا إِلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا**»، فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات، تلك المطالب(١)

قال كفار قريش للنّبي محمد ﷺ: لن نصدّق أنك رسول من الله لنا حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب، وخصّوا هذه الجنة بأن تكون له إظهارًا منهم أن هذا السؤال لا يريدون منه نفعًا لأنفسهم، فهم أرادوا أن يكون خاصًا به ﷺ، وأن يفجر الأنهار فيها، أو أن يكون له بيت من زخرف(٢)، ثم انتقلوا من سؤال فيه منافع لهم وله، إلى سؤال فيه مضرتهم، بأن يحقق لهم ما أنذرهم به من العذاب.

لم يجبهم الله، إنما أمر نبيّه أن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٣] بتنزيه الله سبحانه وتعالى من أن يأتي من يتحكم عليه، أو يشاركه في القدرة، ولو كان نبيًا رسولًا، ثم تعجب الرسول ﷺ من اقتراحاتهم وبيّن أنه بشر من جنس البشر، ورسول من جنس الرسل الذين لا يأتون أقوامهم إلا بما يظهره الله عليهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم، فليس لهم أن يتحكموا على الله تعالى حتى يتخيّروها(٣).

تتضمن السؤالات الماضية عددًا من الهدايات التي يحسن أن نذكرها:

١ - الآية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العَنكبوت: ٥٠] جاءت

---

(١) تفسير الطبري (١١٠/١٥)، أسباب النزول (٢٩٢)، زاد المسير (٨٦/٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠٨/٦).

(٣) تفسير البيضاوي (٤٦٧/٣).

في أربعة مواضع من القرآن الكريم بصيغة واحدة، واتفقت في المعنى الإجمالي للسؤال، وجاءت الردود متنوعة في كل موضع لتتكامل.

٢ ـ أن سؤال الكفار للآيات جاء بعد أن عجزوا عن معارضة القرآن الكريم، ومع ذلك لم يرضوا به معجزة، فأخذوا يتعنتون بسؤال المعجزات المحسوسة، لجهلهم بالحكمة الإلهية في الإتيان بالمعجزات المناسبة لحال المرسل إليهم.

٣ ـ تشابه قلوب اليهود والنصارى، والمشركين في تجاهلهم عظمة الله سبحانه، وتمردهم وجرأتهم على الأنبياء والرسل، واستجابتهم للشيطان وطاعتهم له في كل زمان ومكان.

٤ ـ أن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، سواء أنزل الله على الرسول آية على وفق ما سألوه واختاروه، أو أنزل آية اختارها الله من عند نفسه لحكمة قضاها.

٥ ـ سؤال الآيات جاء من أجل الطعن في نبوة محمد ﷺ، والطعن في القرآن الكريم فقالوا: إنه من جنس الكتب، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات.

٦ ـ على الدعاة أن يدعوا إلى الله تعالى، وليس عليهم أن يهدوا الكفار، إذ الهداية بيد الله، أما الدعوة فهي في قدرة الإنسان وهو مكلف بها.

٧ ـ إن نزول الآيات غيبٌ، ولا يعلم الغيبَ إلا الله، فالرسل ليسوا مستقلين بهذه الآيات فلا يملكون أن يأتوا بهذه الآيات، أو بهذا الوحي؛ فهم يتلقون من الله؛ وكذلك الرسول ﷺ إذا طُلب منه الآيات لا يستطيع أن يأتي بها.



المطلب الرابع

طلب أن يكون الرسل على شاكلة واحدة

ظهر هذا الطلب جليًّا من حوارات كفار قريش مع النبي ﷺ، ويبدو أن صلتهم بالأمم السابقة من يهود ونصارى أورثهم شيئًا من المعلومات عن الديانات والأنبياء الذين جاؤوا بها، وصار عندهم بعض علم يسير عن معجزات الأنبياء السابقين، فأراد كفار قريش أن يروا مثل هذه المعجزات على يد النبي محمد ﷺ، وقد سوّل لهم الشيطان أنهم بهذا الطلب سوف يعجزون النبي ﷺ ويظهرون كذبه بزعمهم، ولقد جاءت أسئلتهم هذه في ثلاثة مواضع ذكرها القرآن الكريم:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٥ ـ ٧].

أخبر الله تعالى عن تخبط الكفار، وضلالهم وترددهم في وصف القرآن الكريم، فقالوا: إنه تخاليط أحلام رآها في المنام، ثم قالوا عنه: إنه كلام مفترى مختلق من عنده، ثم ادعوا بأن رسول الله ﷺ ساحر، إلى أن قالوا: إنّه شاعر، وعلى جميع هذه التقديرات لا يثبت كونه عندهم معجزًا. ولمّا فرغوا من تقدير هذه الاحتمالات التي تضمنت الاضطراب،

والتناقض في أقوالهم، جاء سؤالهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥][(١)]

جاء السؤال في هذه الآية جواب شرط محذوف[(٢)]، أي: إن لم يكن ساحرًا، أو شاعرًا، فليأتنا بآية جليّة، كما أُرسِلَ موسى بالعصا، وصالح بالناقة، حتى نؤمن به[(٣)]، وهذا من التناقض والمكابرة، فالظاهر أن إقرارهم بإرسال الأولين ليس عن يقين، بل هو أمر اقتضاه اضطرابهم، وتحيرهم، فهم لم يثبتوا على صفة، ولا رأي في إرسال الرسل، فالأصل أنهم منكرون أن يبعث الله بشرًا رسولًا[(٤)]، فحاولوا بشتّى الادعاءات التنصّل من الانصياع إلى الحق والدخول في الدين، وإلا فهم قد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كانشقاق القمر وتسبيح الحصى، وغير ذلك من المعجزات المادية المحسوسة[(٥)] ولم يجب الله سبحانه وتعالى كفار قريش على سؤالهم، وإنما ردّه عليهم بقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] فابتدأ سبحانه الجزء الأخير من هذه الآية باستفهام، بمعنى نفي الإيمان عنهم كما نفاه عن من سبقهم من الأقوام الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا، فأهلكهم الله، فكيف يؤمن هؤلاء المقترحون على محمد ﷺ إذا جاءتهم الآيات، وهم أشد عتوًّا ونكثًا من أسلافهم من الأمم السابقة[(٦)]

---

(١) تفسير الرازي (١٠/٤٩٥)، تفسير ابن كثير (٩/١٥)، تفسير اللباب لابن عادل (١١/٢٦٣).

(٢) تفسير الألوسي (١٦/٣٢٨).

(٣) تفسير الطبري (١٨/٤١١)، تفسير الرازي (١٠/٤٩٥)، أضواء البيان (٤/١٣٥)، تفسير الألوسي (١٢/٣٢٨).

(٤) تفسير الألوسي (١٢/٣٢٨).

(٥) تفسير القرطبي (١١/٢٧٠)، تفسير النسفي (٢/٣١٥)، تفسير أبي السعود (٤/٤٠١)، فتح القدير (٥/٤٢).

(٦) تفسير القرطبي (١١/٢٧٠)، تفسير أبي السعود (٤/٤٠١)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢٨٨١).

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨].

محل السؤال: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ بدلالة الصيغة والسياق.

السائل والمسؤول في هذه الآيات: ذكر المفسرون أن اليهود أمروا قريشًا أن يسألوا محمدًا ﷺ أن يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام(١).

صلة السؤال في سياق الآيات السابقة تظهر حين ذكر سبحانه وتعالى أنه لئلا يقول المشركون عند نزول المصيبة من العذاب في الدنيا على كفرهم: هلّا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك، أبطل الله تقوُّلهم هذا، وأرسل الرسول محمدًا ﷺ إليهم، فكفروا به وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، وهذا يدل على أنه لا قصد لهم إلا الزيغ والعناد(٢)

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي: عن مجاهد رضي الله عنه عند حديثه عن هذه الآية: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قال: «إن اليهود تأمر قريشًا أن تسأل محمدًا مثل ما أوتي موسى من قبل، فيقول الله لمحمد قل لقريش يقولوا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا﴾(٣).

لما جاء محمد ﷺ بالقرآن الكريم وما فيه من الهدى إلى المشركين، لم يجدوا من المعاذير إلا ما لقنهم اليهود فقالوا: هلّا أعطي مثل ما أعطي موسى من الآيات المعجزات كالعصا، واليد أو ينزل عليه القرآن الكريم جملة واحدة كالتوراة، فكان سؤالهم من باب التسليم

---

(١) تفسير الطبري (١٩/٥٨٧)، بحر العلوم للسمرقندي (٣/٣٢٠)، تفسير الرازي (١٠/٤٩٥).

(٢) تفسير الرازي (١٠/٤٩٥)، أيسر التفاسير للجزائري (٣/١٧٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١١/٣٠٦).

الجدلي، فمرة يكونون مشترطين، ومرة يكونون معطلين، والأصل أنهم يجحدون رسالة الرسل قاطبة، والشاهد قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ [القَصَص: ٤٨] فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به فهم لا يؤمنون بموسى، ولا بما جاء به، وإنما كانوا يقلدون اليهود تقليدًا أعمى، ويطيعونهم في جميع ما يوعزون به إليهم، وإن نافى معتقداتهم إرضاءً لهم واستجلابًا لودّهم ومعاونتهم لهم على الرسول ﷺ. فكثير من مثل هذه الأسئلة كان صادرًا عن اليهود، ثم تبعهم فيه المشركون وصاروا يردّدونه عنهم[(١)]

لم يجبهم الله إلى سؤالهم، فقد بيّن القرآن الكريم أنهم لم يكونوا صادقين في اقتراحهم فردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨]. فواجه كفار قريش بكفرهم بموسى ومحمد صلّى الله عليهما وسلّم، فكانوا يقولون عنهما إنهما ساحران، وما جاؤوا به سحر، فشابهوا من سبقهم كفرعون وقومه، وواجه أيضًا اليهود المعاصرين للنبي بتحريفهم التوراة، وإخفائهم نعت الرسول ﷺ وكفرهم بما جاء به[(٢)]

أظهرت الآيات المتقدمات دلالات وهدايات نبرزها في المسائل التالية:

١ - تعنت اليهود الذين ردُّوا ما جاء به الرسول ﷺ من البيّنات، بأن قرنوا إيمانهم بإتيان النبي محمد ﷺ بقربان تأكله النار. فجمعوا بذلك بين الكذب على الله، وبين حصر آيات الرسل بما سألوه، ورفضوا مكرمة من الله وهي إباحة أكل القرابين والغنائم التي جعلها الله من خصائص أمة محمد، لكمال يقينهم وإخلاصهم وقتالهم لله، فهم يذبحون لله ويأكلونها[(٣)].

(١) تفسير الطبري (١٩/٥٨٧)، تفسير الرازي (١٠/٤٩٥)، فتح القدير (٥/٤١٠)، التحرير والتنوير (١٠/٤٠٧).
(٢) تفسير الرازي (١٠/٤٩٥).
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٧/٤٨٤).

٢ ـ يحسن بالدعاة عند المخاصمة إقحام الخصم بما يدعيه ليكون أبلغ في دحض حجته، لأنه إذا خوصم بما يقوله لم يبق له حجة.

٣ ـ سؤال كفار قريش للنبي محمد ﷺ آية كما أرسل الأولون يحمل في طياته التناقض والمكابرة، فهم في الأصل منكرون أن يبعث الله بشرًا رسولًا.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٣].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: رؤساء اليهود، **والمسؤول:** محمد ﷺ(١).

تناولت الآيات السابقة للسؤال تسجيلًا لبعض قبائح اليهود وجرائمهم الشنيعة التي منها قتل الأنبياء قديمًا، ثم جاء الوعيد للمعاصرين منهم بعذاب الحريق، مع أن الجرائم كانت من أجدادهم، لأن هؤلاء اليهود متعاطفون مع بني جنسهم، ولا ينكرون عليهم جرائمهم، ثم جاء سؤالهم زاعمين أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يقرّب قربانًا فتنزل النار فتأكله(٢).

يكشف سبب النزول عن صلته بالسؤال فقد قال ابن عباس: «نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وفنحاص بن عازوراء، وجماعة من اليهود أتوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إن الله عهد إلينا أن لا نصدق من يزعم أنه رسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، وقال بمثله الكلبي(٣).

---

(١) التسهيل لعوم التنزيل (٩٨/٩)، تفسير البغوي (٣٨٠/١)، تفسير القرطبي (٢٩٥/٤).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١٢٦/١)، تفسير الرازي (٣٩٨/٢)، صفوة الآثار (٤٥٥/٤).
(٣) أسباب نزول القرآن (٤٦/١)، زاد المسير (٤٠٧/١)، تفسير القرطبي (٢٩٥/٤).

المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في هذه الآية هم اليهود، حين دعاهم محمد ﷺ إلى الإسلام فطلبوا هذه الآية[١]، وأنت يا محمد، ما فعلت ذلك فلست من الأنبياء، فكان هذا القول دعوى كاذبة منهم، وإلا فمعجزات النبي ﷺ دليل قاطع في إبطال دعواهم وكذلك معجزات عيسى، ومن وجب صدقه وجب تصديقه[٢]، وسؤالهم هذا هو نظير ما يقترحونه من الآيات على سبيل الإفحام، والتعجيز لمحمد ﷺ[٣]. لم يستجب الله لسؤالهم إنما أمر نبيّه أن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وفي هذا الرد مواجهة وتكذيب لهم، بأن سؤالهم لا غاية له إلا التعنت، فلا يجاب طالبه، فالرسل من قبل قد جاؤوا بالحجج، وأتوا بالقربان الذي تأكله النار، وبالمعجزات الباهرة، فلمَ لم يؤمنوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم في أنّ الله عهد إليهم ذلك، بل لم يكتفوا بتكذيبهم فقتلوا زكريا، ويحيى، وحاولوا قتل عيسى، وبهذا الجواب أظهر الله كذبهم وعنادهم وتناقضهم وأنه لا غاية من سؤالهم سوى العناد والمماطلة[٤].



(١) تفسير الطبري (٧/٤٤٨)، تفسير الواحدي (١/٢٤٦)، تفسير القرآن الكريم (٢/٥٠٣).
(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٩٥).
(٣) الكشاف (١/٤٧٦)، تفسير الألوسي (٤/١٤٤).
(٤) تفسير البحر المحيط (٣/١٣٧)، تفسير السعدي (١٥٩).

المطلب الخامس

طلب إنزال كتاب وسورة

كان هذا الطلب من الأسئلة التي وجهها اليهود وكفار قريش لمحمد ﷺ تعنتًا وتكذيبًا وإنكارًا لنبوّته، وكذلك سؤال بعض المسلمين محمدًا ﷺ إنزال سورة تأمرهم بالجهاد، وقد ورد ذلك في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأول: قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ [النِّساء: ١٥٣].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [النِّساء: ١٥٣] بدلالة الصيغة، وسياق الآيات.

السائل: هم اليهود، والنصارى. وقيل: هم اليهود، «قالت اليهود: إن كنت صادقًا أنك رسول الله، فآتنا كتابًا مكتوبًا من السماء، كما جاء به موسى»(١). **والمسؤول**: محمد ﷺ.

والذي يظهر لنا أن السائلين هم اليهود، بدلالة سياق الآيات اللاحقة للسؤال بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ﴾ فموسى من أنبياء

(١) تفسير الطبري (٩/٣٥٦).

بني إسرائيل، ورجح ابن جرير هذا القول بقوله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا رسولَ الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء»[١].

علاقة السؤال بالسياق ما يلي:

في سياق الآيات السابقة للسؤال ذم ووعيد بعذاب جهنم للذين يكفرون بالله ورسله ويفرّقون بين رسله، فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض، فلما أخبر الله سبحانه وتعالى عن تناقض أهل الكتاب، وسوء معاملتهم لرسول الله ﷺ أتبعه بذكر تعنتهم وتحكمهم على الله ورسوله بسؤالهم إنزال كتاب من عند الله[٢]

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي:

قال مقاتل: «إن كعب بن الأشرف، وفنحاص اليهودي، قالا للنبي ﷺ: إن كنت صادقًا بأنك رسول، فائتنا بكتاب غير هذا، كما جاء به موسى، فلذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [النِّساء: ١٥٣][٣]

قال ابن جرير في تفسيره: «جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فائتنا بالألواح من عند الله لنصدقك، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النِّساء: ١٥٣]»[٤].

والذي يترجح لنا أن سبب النزول أن اليهود سألو النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا مكتوبًا من السماء كما نزلت التوراة على موسى.

في هذه الآية جاء قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ بصيغة المضارعة لقصد

---

(١) تفسير الطبري (٣٥٦/٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٢٤٩/٢)، صفوة الآثار (٢٤/٧).

(٣) تفسير مقاتل (٣٦٥/١)، بحر العلوم للسمرقندي (٤٣٨/١)، تفسير البغوي (٣٠٥/٢).

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٣٥٦/٩).

استحضار حالتهم العجيبة في هذا السؤال حتى كأن السامع يراهم، ودلالة على تكرار السؤال، وتجدده مرة بعد أخرى بقصد التعنت، والتمادي في الإضلال، ولذلك قال بعده: فقد سألوا موسى(١). والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة، بدليل سياق الآيات الكريمة التي ذكرت أوصافًا تنطبق عليهم.

ولم يجبهم الله سبحانه وتعالى إلى سؤالهم، بسبب تعنتهم، واكتفى بالرد عليهم بالتوبيخ، والتقريع للسائلين، وبالتسلية لنبيّه ﷺ عما لحقه منهم من أذى وسوء أدب: بأن لا يعظُمَنَّ عليك مسألتهم ذلك، فإنهم من جهلهم بالله وجراءتهم عليه واغترارهم بحلمه، لو أنزل عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم، لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحيائه لأسلافهم من صعقتهم، فاتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون خالقهم وبارئهم الذي أرَاهم من قدرته وعظيم سلطانه ما أراهم، وكان تذكيرهم بسؤال أسلافهم وأجدادهم، وذكر عقوبتهم بالصاعقة مناسبًا لحالهم، وفيه تربية قاسية على مجاوزتهم الحد، فالسؤالان أسندا إلى جنس أهل الكتاب ولا يقتضي أن يكون الأفراد الذين أسند إليهم السؤال الأوَّل هم الذين أُسند إليهم السؤال الثاني، لأن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ لحقهم عار أسلافهم وأجدادهم بموافقتهم على رأيهم.

الموضع الثاني: قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

السائل: هم المشركون. **والمسؤول**: هو محمد ﷺ(٢).

علاقة السؤال بالسياق ما يلي: في سياق الآيات السابقة للسؤال أثبت الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن الكريم كلامه وأنه معجز،

---

(١) نظم الدرر (٢/٣٤٥)، التحرير والتنوير (٣/١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٥/١٦٠)، الكشاف (٢/٦٨٤)، تفسير الرازي (٢١/٤٩).

ثم تحدى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، فغلبوا على أمرهم، ولم يجدوا ردًا مقنعًا إلا المراوغة بسؤال محمد ﷺ إنزال كتاب من السماء[(١)]

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي: قال عبدالله بن أبي أمية: «لن نؤمن حتى تضع على السماء سلمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك[(٢)].

معنى هذه الآية أن كفار قريش قالوا لمحمد ﷺ: لن نصدّقك على ما جئت به حتى تصعد إلى السماء ونحن ننظر إليك، وأدخل في هذه الآية حرف ﴿فِي﴾ بدل حرف «إلى» لتدل على معنى الكلام، وفي ذلك إشارة إلى أن الرقي بمعنى أن يتدرج في السماوات كمن يصعد في المرقاة والسلم[(٣)] ثم تعنتوا في الاقتراح فسألوه إذا صعد إلى السماء أن يرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرؤونه، فيه شهادة له بأنه بلغ السماء.

لم يجبهم الله إلى سؤالهم، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن يرد عليهم ردًا يحمل التعجب من سؤالاتهم وقبح أقوالهم بالتنزيه لله ﷻ من أن يأتي أو يتحكم عليه أحد أو يشاركه في القدرة[(٤)]، بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٦٥)، تفسير الرازي (٢١/٤٩)، تفسير أبي السعود (٥/١٩٥).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/٥٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/١٦٥).
(٤) تفسير الطبري (١٧/٥٥٣).

محل السؤال في الآية: قوله تعالى: ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يُونس: ١٥].

السائل: مشركو أهل مكة، قال به قتادة، ومجاهد[١]. وقال ابن عباس: «إن خمسة من الكفار هم: الوليد بن المغيرة، و.... قالوا: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى»، وقال بمثله مقاتل[٢]، **والمسؤول:** محمد ﷺ بدلالة الصيغة، وسياق الآيات.

علاقة السؤال بالسياق ما يلي: بعد أن ذكر الله تعجب المشركين من إنزال الوحي على محمد وهو من البشر وتخصيصه بالنبوّة، وسؤالهم تعجيل العذاب استخفافًا وطعنًا في نبوّته، جاء ذكر نوع ثالث من المطالبات بأن يأتي بقرآن يوافق أهواءهم بالتشكيك في القرآن الكريم بسؤالين: أن يأتيهم بقرآن غير هذا، أو أن يبدله[٣].

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي: قال ابن عباس: «إن خمسة من الكفار هم: الوليد بن المغيرة، و... يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم قالوا: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى[٤]. وقال بمثله مقاتل:... إن كنت تريد أن نؤمن بك فـ﴿ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك[٥].

في هذه الآية إشعار للجميع بأنه كلما قرئت آيات الله الواضحات، سواء كان القارىء للقرآن الرسول ﷺ خاصة، أو أي أحد من العامة، يتجدد إعراض وكفر الذين لا يخافون العذاب، ولا يرجون الثواب،

---

(١) تفسير الطبري (٥٨/١١)، تفسير أبي السعود (١٢٨/٤).
(٢) تفسير الطبري (٥٨/١١)، أسباب النزول (٢٦٤).
(٣) تفسير الرازي (٤٦/١٧).
(٤) تفسير الطبري (٥٨/١١)، أسباب النزول (٢٦٤).
(٥) الكشف والبيان للثعلبي (١٣/٧)، تفسير البغوي (١٢٥/٤).

فيقولوا لمن يتلو عليهم آيات القرآن الكريم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥] وهذا القول منهم تضمن أن يأتي بكتاب غيره من نمط آخر(١) أو أن يبقى القرآن الكريم على ذاته، ولكن يبَدّله إلى وضع آخر، والتبديل الذي سألوه، فيما ذكر، أن يحوّل آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيدًا، والحرامَ حلالًا، والحلال حرامًا(٢)، والغرض من سؤالهم لمحمد ﷺ الإتيان بغير هذا القرآن الكريم الكيد والتعريض بأن ما جاء به هو من عند نفسه، وأنه قادر على الإتيان بمثله أو تبديل آخر به، وأما سؤالهم التبديل فلاختبار الحال، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فيتخلصوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه، فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحًا لادعائهم بافترائه على الله(٣)

ولم يجب الله كفار قريش إلى سؤالهم، وإنما أمر الله نبيّه أن يردّ عليهم بقوله: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس: ١٥] أي أن هذا الأمر الذي سألتموه من الإتيان بقرآن آخر، أو تبديله أمر خارج عن إرادتي، ولا ينبغي لي ولا أستطيعه من تلقاء نفسي، فليس لي من الأمر شيء، إنما وظيفتي أن أبلغ عن الله ﷻ آياته ووحيه، ثم بيّن ﷺ أن الاستجابة لسؤالهم وإبداله من تلقاء نفسه تعد معصية عظيمة تعرضه لعذاب الله الشديد(٤).

في هذه السؤالات هدايات نوجزها فيما يلي:

١ - أن سؤال اليهود إنزال الكتاب فيه دلالة على خبثهم وعنادهم، وإلا فكيف يصدر ذلك منهم، وهم العارفون لمعنى النبوّة، فإن أوصاف النبي كانت معروفة عندهم في التوراة، فخلاصة الأمر أنهم

---

(١) تفسير الطبري (٦/٧)، تفسير الرازي (١٧/٤٦).
(٢) المرجع السابق.
(٣) ينظر الكشاف (٣/١)، تفسير النسفي (١/٤٧٨).
(٤) تفسير الرازي (١٧/١٤١)، التحرير والتنوير (٥/١١٨).

ليسوا كالجهلة الذين يستساغ منهم هذا السؤال، ولكنهم معاندون يسألون ما فيه التعجيز والمراوغة، وذلك لما يكنونه من خبث السرائر[١]

٢ ـ أن في الرد على سؤالهم هذا تسلية للرسول ﷺ أن لا يستغرب هذا السؤال منهم، فقد سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك، وهذا يظهر رسوخ أقدامهم في الكفر.

٣ ـ جاء سؤال كفار قريش إنزال كتاب من السماء دفعة واحدة تحريضًا وإيعازًا من اليهود، فهم لا يذعنون للحق، ويطالبون بأمور على سبيل العناد، والتعنت والمراوغة.

٤ ـ رفض مطالب المشركين وإعلان كون القرآن الكريم كلام الله، وأن مهمة الرسول ﷺ تبليغ ما يوحى إليه، واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد، وتحريم وتحليل وأمر ونهي.

٥ ـ وفي تلك المواضع من السؤالات تسلية للدعاة، فما من حق إلا يقابله باطل، وما من مصلح صادق إلا له أعداء، فكما جعل الله لنبيّه أعداءً من الكفار ومشركي قومه، جعل لكل من جاء بعده من دعاة الحق، أعداءً من قومهم، فما على الدعاة المصلحين إلا الصبر كما صبر الأنبياء المتقدمون، فالله سبحانه وتعالى لأهل الحق والصلاح هادٍ وناصرٌ لهم على كل من عاداهم.



---

(١) صفوة الآثار (٢٨/٧).

المطلب السادس

سؤالات تتعلق باصطفاء الأنبياء بالرسالة

من الأسئلة التي وجهها كفار قريش لمحمد ﷺ اعتراضهم على اصطفائه بالرسالة، طمعًا أن يكونوا هم أنفسهم مرسلين من عند الله، أو أن يكون المرسَل واحدًا منهم ذا منزلة عظيمة في المال والجاه والنسب، وهذا يدل على حسدهم، وشدة جهلهم، وسخافة عقولهم فهم جعلوا كثرة المال والجاه في الدنيا موجبًا لاستحقاق النبوّة وتنزيل الوحي، وقد ورد ذلك في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

محل السؤال في الآية قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

السائل: مشركو مكة، **والمسؤول:** محمد ﷺ(١).

تظهر صلة السؤال بالسياق حين جاء في سياق الآيات السابقة للسؤال ذكر حال أكابر المجرمين في كل قرية مع أنبيائهم لمشابهتهم أحوال أكابر مجرمي مكة، وكانت مكة هي المقصودة من عموم كل قرية، فالمجرمون يقاومون دعوة الرسل والإصلاح في كل زمان ومكان حسدًا

(١) تفسير البغوي (١٢٨/٢)، تفسير ابن كثير (١٧٤/٢).

منهم ومكرًا، ثم تكون عاقبة مكرهم مُحيقةٌ بهم، ثم بيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا الحسد يظهر لدى زعماء مكة، فكلما ظهرت لهم معجزة قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤][(١)]

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي: قال مقاتل: «نزلت في أبي جهل حين قال: زاحمنا عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفَرَسَي رهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا حتى يأتينا وحي كما يأتيه»[(٢)]. وقال الوليد بن المغيرة: «لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سنًّا وأكثر منك مالًا»[(٣)]

قال بعض المفسرين: إن القوم طلبوا أن تأتيهم آيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المتقدمين كي تدل على صحة نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام[(٤)]. وقيل أرادوا أن تحصل لهم النبوّة وتأتيهم الملائكة من الله بالرسالة، كما حصلت لمحمد ﷺ.

والذي يظهر لنا أن هذا القول هو الراجح بدلالة سياق الآية وأسباب النزول. وفي قولهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ دلالة على حسدهم، واستبعاد إيمانهم إذ علقوه بمستحيل عندهم، وقولهم: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ليس فيه إقرار بالرسل، وإنما قالوا ذلك للتهكم والاستهزاء، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبعوا محمدًا ﷺ الذي جرت على يديه معجزات حسيّة خارقة، ولم يجبهم الله إلى سؤالهم، وإنما ردّ عليهم على سبيل الاستنكار؛ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بمعنى أنه سبحانه لا يصطفي للرسالة إلا من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالجهة

---

(١) تفسير الرازي (١٣/١٤٣)، تفسير أبي السعود (٣/١٨٢).
(٢) تفسير مقاتل (١/٤٦٣)، ينظر الكشف والبيان للثعلبي (٥/٢٨٨)، تفسير البغوي (٢/١٢٨).
(٣) تفسير البغوي (٢/١٢٨)، تفسير القرطبي (٧/٧٩)، تفسير أبي السعود (٣/١٨٢).
(٤) تفسير الطبري (١٢/٩٥)، تفسير القرطبي (٧/٧٩)، التحرير والتنوير (٥/١١٤).

التي يضعها فيها، وقد وضعها فيمن اختاره لها، محمد ﷺ[١]. وذكر العباس: أنه لما بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس، صعد المنبر فقال: «**مَنْ أَنَا؟** قالُوا: أنت رسول الله، فقال: **أَنَا مُحمدُ بنُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِب، إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ القَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا**»[٢].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

محل السؤال في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: مشركو قريش[٣]، قال قتادة: «بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادعته وقالوا هو منّا، فكنّا نحدث أن الرجلين الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي»[٤].

وأكثر المفسرين لم يذكروا صراحة من هو المسؤول[٥].

والذي يظهر لنا أنه سؤال وُجه إلى النبي ﷺ سواء صرح به أو لم يصرح به، بدليل سياق الآية في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط (٥/٢٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٣٨، رقم ١٨١٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٥/٦٦)، تفسير النسفي (٤/١١٤)، تفسير ابن كثير (٤/١٢٨)، الدر المنثور (٧/٣٧٥).

(٤) تفسير الطبري (٢١/٥٩٢).

(٥) تفسير الطبري (٢١/٥)، تفسير ابن كثير (٤/١٢٨)، تفسير الألوسي (٢٥/٧٨).

فهو ﷺ الواسطة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فمن البديهي أن يوجه السؤال إليه.

جاء في سياق الآيات السابقة للسؤال أن قريشًا كانوا مشركين عن غفلة، فلمّا جاءهم الحق ببعثة محمد ﷺ صاروا مشركين عن عناد ومكابرة، فأخذوا يتعلّلون بالعلل الواهية لإنكار الحق، فادّعوا أنَّ القرآن سحر، ثم زادوا تعنتًا وكفرًا فقالوا: إنّا به كافرون، أي: كافرون بأن القرآن من عند الله، ثم جاؤوا بطعن آخر منهم في صحة نبوّته ﷺ بسؤالهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١][(١)].

المناسبة بين سبب النزول والسؤال ما يلي: قال قتادة: قال الوليد بن المغيرة: لو كان ما يقول محمد حقًّا لأنزل علي هذا القرآن، أو على عروة بن مسعود الثقفي، فنزلت الآية[(٢)].

قال كفار قريش: هلّا أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين! يعنون مكة والطائف، وتعددت الأقوال في الرجل الذي اصطفوه ووصفوه بأنه عظيم، والمشهور من الأقوال أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، والأولى أن ينسب السؤال إلى كفار قريش عامة؛ كما قال ابن جرير[(٣)] وهم قالوا: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ على هذا الوجه للاستهانة به، والإنكار والتكذيب له، كأنه قيل هذا الكتاب الذي جاء به محمد لو كان حقًّا لنزل على رجل من القريتين عظيم، وأرادوا بعظم الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا وغاب عنهم أن العظيم من كان عند الله عظيمًا[(٤)].

ولم يستجب الله لهم وإنما وجّه الخطاب إلى النبي ﷺ مبيّنًا له

---

(١) تفسير الطبري (٦٦/٢٥)، التحرير والتنوير (٢٠٢/١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٨٢/١٠، رقم ١٨٥٠٣)، والطبري في تفسيره (٦٦/٢٥).

(٣) تفسير الطبري (٦٦/٢٥).

(٤) الكشاف (٢٥١/٤)، تفسير النسفي (١١٤/٤)، تفسير الألوسي (٧٨/٢٥).

جهلهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزّخرُف: ٣٢] فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم، والتعجب من تفكيرهم وتحكمهم بنزول القرآن العظيم على من أرادوا[١]، فنفى الله أن يكون لهم الاختيار والإرادة، والمراد من الرحمة في قوله: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي النبوّة، وما أنزله الله على نبيّه ﷺ من وحي وما منحه إيّاه من خلق كريم، وخير عميم[٢]، وفي إضافة الرب إلى ضميره ﷺ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى مؤنسه، ومؤيده، وناصره، ومتولّي أمره وتدبيره، فرفع الله بذلك شأنه تعظيمًا له ﷺ بإظهار أن الأمر ليس إلى كفار قريش بل إليه سبحانه وتعالى. ثم ختم الله الآية بالردّ عليهم بأن رحمة الله خير من المال الذي جعلوه عمادًا لاصطفاء الرسالة، وسببًا للتفضيل.

يستفاد من هذه السؤالات ما يلي:

١ ـ كان سؤال زعماء قريش هذا اعتراضًا منهم على اصطفاء محمد ﷺ بالرسالة حسدًا، فهم يرون أنهم أحق بالرسالة منه ﷺ.

٢ ـ سؤالهم لم يأتِ لطلب الحجة والدليل، وإنما جاء إصرارًا على الكفر واستبعادًا لإيمانهم، فهم علّقوا إيمانهم على حصول مستحيل.

٣ ـ الحكمة ظاهرة من تفضيل الله تعالى لبعض الناس على بعض سواء في الرسالة أو في الرزق:

١ ـ أن المفضل للعباد في الأرزاق يفضل بينهم في الرسالة.

٢ ـ أنه لا تلازم بين الاصطفاء بالرسالة وكثرة فضل الله على العبد بالرزق.

٣ ـ أن أسباب رزق الله للعبد مغايرة لأسباب اصطفاء العبد بالرسالة.

٤ ـ ليسخِّر بعضهم لبعض في الحِرَف والأعمال والصنائع، فإذا كان

---

(١) تفسير الألوسي (٧٨/٢٥).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (٣٧٩٥/١).

الناس سواسية في الغنى لم يحتج بعضهم إلى بعض، فتتعطل كثير من المصالح والمنافع، وفيه دليل على أن نعمة الله الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزّخرُف: ٣٢].



المبحث الثالث

سؤالات تتعلق بأمور دنيوية وشهوات حسية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تنظيم الحكم.

المطلب الثاني: رفع العذاب الدنيوي.

المطلب الثالث: طلب إنزال مائدة من السماء.



المطلب الأول

تنظيم الحكم

سأل بنو إسرائيل نبيًّا لهم من بعد موسى عليه السلام أن يعين لهم ملكًا، ويفرض عليهم القتال، فلمّا أجابهم الله سبحانه وتعالى إلى ما سألوا، بادروا بسؤال آخر اعتراضًا على من اصطفاه الله عليهم بالملك، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧].

محل السؤال قوله تعالى: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: بنو إسرائيل، **والمسؤول**: نبي من أنبياء بني إسرائيل لم يصرّح القرآن باسمه.

علاقة السؤال بالسياق تبدو في سياق الآيات السابقة للسؤال أمر الله المسلمين بالقتال في سبيله، ولمّا كان القتال في سبيل الله يقتضي السخاء

والجود بالمال لتجهيز المقاتلين وتشجيعهم، والمال غال على النفوس، حثّ الله على بذله وجعل البذل في القتال متاجرة رابحة معه سبحانه، ثم ساق القرآن قصة من قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم، فيها العظات والعبر، ومن ذلك انهزامهم أمام أعدائهم وتوليتهم الأدبار تاركين ديارهم وأبناءهم، ثم جاء ذكر سؤالهم نبيّهم الإذن لهم بالقتال مع ملك يقودهم للقتال، وبعد أن استجاب الله لبني إسرائيل بفرض القتال واصطفاء طالوت ملكًا عليهم، جاء سؤالهم الآخر أن يختار لهم ملكًا آخر غير طالوت[١]

المعاني اللفظية والشرعية التي يترتب عليها فهم السؤال وكيفية الجواب عنه:

ابتدأت الآية باستفهام للتعجب والتشويق، وعبر عن الأمر المحكي عنه بالرؤية للإشعار بأن هذا الأمر وصل إلى رتبة المرئي والمشاهد، وكأنه مشهد منظور: فالرؤية هنا: بمعنى العلم أي: أَلَم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء الملأ من أشراف بني إسرائيل[٢]، وذلك أنهم أتوا إلى نبيّ لهم بعد موسى[٣]، وسألوه أن يفرض عليهم القتال، ويعيّن لهم ملكًا يقاتلون تحت لوائه فقال لهم نبيّهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦] وهو يخشى من قومه أن يتقاعسوا، وأن يحجموا عن القتال إذا كتب عليهم لعدم ثقته بكلامهم، فأجابوه بأن لديهم من الأسباب ما يحفزهم على القتال، ومن ذلك إخراجهم من ديارهم وسبي أبنائهم: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦] ولكن هذه الحماسة لم تدم فقد تخلفوا عن الجهاد فجبنوا عن قتال الأعداء، إلا قليلًا منهم، عصمهم الله وثبتهم وقوّى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦]،

---

(١) تفسير الطبري (٥/٢٩١)، تفسير أبي السعود (١/٢٢٩)، صفوة الآثار (٣/٤٣٢).
(٢) صفوة الآثار (٣/٤٣٢).
(٣) تفسير السعدي (١٠٧).

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٥] أي: أن الله عليم بالذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد والتولي عنه، فهو يجازيهم بما يستحقونه من العذاب، فهم أذلة في الدنيا معذبين في الآخرة[١]، ثم قال لهم نبيّهم بعد أن استجاب الله دعاءه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] فاعترضوا عليه اعتراضًا يحمل في طيّاته الأنانية والحسد باستنكارهم اصطفاء طالوت ملكًا عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] كيف يكون ملكًا علينا ونحن أحق منه بالملك، فاستبعدوا تملكه لفقره، ولم يستجب الله لسؤالهم إنما أمر نبيهم أن يرد عليهم بأنه اختاره من بينهم وهو أعلم به منهم، وعلل نبيهم سبب اصطفاء الله تعالى لطالوت بأنه زاده بسطة في العلم والجسم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] وفي ذلك إشارة إلى أن تدبير شؤون الدولة في الحرب والسلم تحتاج إلى الوصفين بسطة في العلم وبسطة في الجسم[٢].

ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] للتشديد على ما سبق أن الله له المشيئة في فعل كل شيء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فكان عليهم القبول والانقياد وترك الاعتراض[٣].

يستنبط من هذه المحاورة بين بني إسرائيل وأحد أنبيائهم ما يلي:

١ - في عرض القرآن لسؤالات بني إسرائيل لنبيهم دلالة على صحة رسالة النبي محمد ﷺ، فهذه القصة لا يعلمها إلا القليل من حذاق بني إسرائيل.

---

(١) صفوة الآثار (٣/٤٣٤).

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٣١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٠٢)، تفسير السعدي (١٠٨).

٢ ـ أن القتال كان مشروعًا في الأمم السابقة وليس حكمًا خاصًا بالمؤمنين.

٣ ـ فيها فوائد اجتماعية تدل على أن الأمم وإن فسدت وضعفت قد تفكر في مواجهة العدو عند الحاجة إليها، لكن قد لا يستمر رأيها فتكون النتيجة الهزيمة المنكرة.

٤ ـ إن اعتراض بني إسرائيل على اصطفاء طالوت بالرسالة كان حسدًا من عند أنفسهم وتعنتًا وإلحادًا عن أمر الله، وهي عادة بني إسرائيل في كل زمان ومكان.

٥ ـ إن القيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس وشجاعة العقل والقلب، فهي المؤهلة للولاية وأما المال فليس بركن من أركان السؤدد والزعامة، فكثيرًا ما يكون صاحب المال جبانًا وفاقدًا للرأي السديد.



المطلب الثاني

رفع العذاب الدنيوي

كان من الأسئلة التي وجهها فرعون وقومه لموسى عليه السلام، طلب رفع العذاب الدنيوي، وقد ورد ذلك في موضعين من القرآن بصيغة واحدة مع اختلاف علاقة السؤال بالسياق، والجواب في كلا الموضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

محل السؤال قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، بدلالة الصيغة، وسياق الآية.

السائل: فرعون وقومه، **والمسؤول**: موسى عليه السلام[(١)].

ذكر الله في سياق الآيات السابقة للسؤال مجيء موسى إلى فرعون وقومه بالمعجزات الدالة على قدرة الله العظيمة وصدق نبوته، ثم بين موقفهم من ذلك وسخريتهم واستخفافهم بما جاء به، فابتلاهم الله بالعذاب لكي يؤمنوا بالله وحده لا شريك له ويطيعوا موسى عليه السلام، في أمره ونهيه، ولم يصرح بنوع العذاب في هذا الموضع، ثم جاء سؤالهم كشف العذاب عنهم[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (٧٩/٢٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٣/٢)، تفسير الرازي (١٧٨/٢٧)، الدر المنثور (٥٢٥/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣٠/٤)، الوسيط لسيد طنطاوي (١٦٧٦/١)، التفسير المنير (١٧٦/١٣).

ابتدأت هذه الآية بمناداة فرعون وقومه لموسى عليه الصلاة والسلام، بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، أي يا أيها العالم الماهر الحاذق، قيل إنما قالوا هذا توقيرًا وتعظيمًا له على سبيل التذلل، لأن السحر كان عندهم علمًا عظيمًا[١]، قال ابن جرير: «إن الساحر كان عندهم معناه العالم ولم يكن السحر عندهم مذمومًا»[٢]، ووافقه على هذا القول أغلب المفسرين[٣]، ولم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا»[٤]، ثم جاء سؤالهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩] على سبيل الاختصاص كأن الله ربه وحده، وبلغوا بذلك غاية العتو، وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف: ٤٩] أي سل لنا ربك بما عهد الله لك، وقيل بما عهده عنده من أن دعوته مستجابة[٥]، وعلقوا هدايتهم بكشف العذاب عنهم بقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] فاستجاب الله لنبيه ورفع عنهم العذاب الذي نزل بهم لكنهم نكثوا العهد الذي عاهدوه عليه، ولم يهتدوا إلى سبيل الحق، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠][٦].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

محل السؤال قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) تفسير البغوي (٤/١٤١)، الكشاف (٤/٢٦٠)، تفسير أبو السعود (٨/٤٩)، أيسر التفاسير (٢/١١٩٥).

(٢) تفسير الطبري (٢٥/٨٠).

(٣) تفسير النيسابوري (٦/٤٨٤)، تفسير البغوي (٧/٢١٦)، تفسير القرطبي (١٦/٩٧)، تفسير الرازي (١٣/٤٨١).

(٤) تفسير القرطبي (١٦/٩٧).

(٥) تفسير النسفي (٣/٢٩٥)، تفسير الخازن (٣/٨٥).

(٦) تفسير الطبري (٢٥/٨٠).

السائل: فرعون وقومه، **والمسؤول**: موسى عليه السلام[١].

ذكر ابن عباس: أنه لمّا أتى موسى إلى فرعون بالرسالة أبى أن يؤمن وأبى أن يرسل معه بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان فقالوا: «يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا هذا لنؤمن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا الله فكشف عنهم المطر، فقالوا: والله ما نحب أنّا لم نكن أمطرنا هذا المطر، ولقد كان خيرًا لنا فلن نرسل معك بني إسرائيل، فبعث الله عليهم الجراد... فكشف الله عنهم فلم يفعلوا، فأنزل الله»[٢]: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

علاقة السياق بالسؤال ما يلي: في سياق الآيات السابقة للسؤال أشار الله سبحانه وتعالى إلى آيات التنكيل والتضييق على فرعون ابتداءً بالجدب ونقص الثمرات لعلهم يتّعظون، فلما أصروا على الكفر وعدم الإيمان بموسى، أرسل الله إليهم آيات أكبر لعلهم يرجعون، فلما اشتد عليهم العذاب ظهر سوء حالهم بتذللهم واستعطافهم لموسى أن يسأل ربه لهم أن يرفع العذاب عنهم[٣].

ابتدأت هاتان الآيتان بمناداة فرعون لموسى بلفظ يحمل في طياته الوقاحة، فلم يقولوا: يا رسول الله، بل قالوا بكل جفاء يا موسى مجردًا، ثم تجرَّؤوا على الله سبحانه وتعالى بسؤالهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] كأن الله رب لموسى وحده وليس ربًا للعالمين، فهم مع كثرة ما رأوا من آيات الله البينة لم يؤمنوا، فسألوا موسى أن يسأل ربه كشف العذاب عنهم بقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي بما تقدم إليك به أن تدعوه فيجيبك، ثم جاء قولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] على معنى القسم لئن رفع عنهم

(١) تفسير الطبري (٧٩/٢٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (٤٣/٢)، تفسير الرازي (١٧٨/٢٧)، تفسير أبو السعود (٦٢/٦).

(٢) تفسير الطبري (٣٧/٩).

(٣) تفسير الطبري (٣٧/٩)، حوار الأنبياء مع أقوامهم (٤٧٣).

العذاب الذي هم فيه أن يقروا بدعوته ويصدقوا بما جاء به، ويأذنوا بذهاب بني إسرائيل معه حيث شاؤوا[١]، وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب[٢].

فاستجاب الله لنبيه، ورفع عنهم العذاب الذي نزل بهم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥]. وكان المتوقع أن يرجع فرعون وقومه عن غيهم وعنادهم ولكنهم زادوا عُتُوًّا ومغالطة لأنفسهم في إدراك الحقيقة فنقضوا عهودهم التي عاهدوا موسى عليها وأصروا على الكفر والضلال، فأخر الله تعالى هلاكهم وعذابهم إلى الوقت المعلوم وهو الغرق، وتحرير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين في الأرض[٣] كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا...﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

يظهر مما تقدم بيانه:

سوء حال فرعون وقومه، وتناسيهم ألوهية فرعون فهم عند نزول البلاء يستعطفون موسى إن شفع لهم عند ربه بسؤاله كشف العذاب عنهم آمنوا وأرسلوا معه بني إسرائيل، وعند رفعه ينكثون عهدهم ويصرون على ما كانوا عليه من الشرك والمعاصي.

كما يتضمن هذا العرض تسلية للرسول ﷺ، بأن نظير ما وقع له من رمي قومه له بالسحر قد وقع من فرعون وقومه لموسى عليه السلام، وتوبيخ لقريش بالإشارة إلى أنهم يرمون رسولهم بالسحر كمن مضى من الأقوام السابقة.

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (١/١٣٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٥٥٠)، ينظر تفسير الألوسي (٩/٣٦).

(٢) تفسير السعدي (٣٠١).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/٢٢٨).

المطلب الثالث

طلب إنزال مائدة من السماء

من الأسئلة التي وجهها الحواريون إلى عيسى عليه السلام، طلب إنزال مائدة من السماء وقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢، ١١٣].

ذكّر الله عيسى في الآيات السابقة، بإنعامه عليه وبالمعجزات التي أيده الله بها وبإلهامه للحواريين أن يؤمنوا بالله وبما جاءهم به، وجعلهم الله لنبيه أصحابًا وأنصارًا، ثم جاء ذكر سؤالهم إنزال المائدة(١).

ابتدأ الحواريون في حوارهم مع عيسى بندائه باسمه، لأنهم كانوا يعتقدون فيه الاعتقاد الصحيح من نسبته إلى أم دون أب، وفيه رد على من ادعى ألوهية عيسى(٢). ثم جاء سؤالهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المَائدة: ١١٢]. وظاهر سؤالهم يشعر أنهم يريدون نزول مائدة فيها طعام من السماء تعنتًا أو شكًا في قدرة الله، أو في نبوة عيسى. ولهذا لم يجبهم عيسى على سؤالهم؛ بل قال لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢] فكان ردُّهُ عليهم أن أمرهم بملازمة التقوى

---

(١) التحرير والتنوير (٣٤٢/٤) صفوة الآثار (٥١٠/٩).

(٢) صفوة الآثار (٥١٠/٩).

والخضوع لله والانقياد بالطاعة لأمره، إن كانوا مؤمنين فالمؤمن يحمله ما معه من الإيمان على أن لا يسأل آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها من العواقب الوخيمة[١]، فكان رد الحواريين أن بينوا مقصدهم من وراء سؤالهم إنزال المائدة وهي الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى في نبوته. كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [المَائدة: ١١٣] وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء، شكًّا منهم في قدرة الله، أو في نبوته ﷺ. ثم بعد ذلك استجاب لهم عيسى فدعا لهم ربه أن ينزل عليهم مائدة طعام من السماء، يتخذون من يوم نزولها عيدًا لهم، يعظمونه هم ومن جاء بعدهم، وتكون المائدة علامة وحجة من الله على وحدانيته سبحانه وعلى صدق نبوته، ثم ختم دعاءه بأن يرزقهم الله من عطائه الجزيل، وهو خير الرازقين كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المَائدة: ١١٤] فابتدأ ﷺ بالأشرف نزولًا إلى الدون ثم الدون، فقدم الأغراض الدينية وأخر الدنيوية، على نقيض تدرج الحواريين في سؤالهم، فقد قدموا الأغراض الدنيوية على الأغراض الدينية الروحية[٢]، واستجاب الله لدعاء نبيه بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: ١١٥] بمعنى أنه سبحانه وتعالى منزل مائدة الطعام عليهم، ووعده حق فمن يجحد منهم بعد ذلك وحدانيته ونبوّة عيسى ﷺ فإنه سيعذبه عذابًا شديدًا، لا يعذبه أحدًا من العالمين. وقد نزلت المائدة كما وعد الله[٣].

---

(١) تفسير الرازي (١٠٧/١٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (١٩٣/١)، تفسير القرطبي (٣٦٦/٦).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١٩٤/١)، تفسير الرازي (١٠٩/١٢).
(٣) تفسير الطبري (٨٤/٧) تفسير ابن كثير (٢١٧/٢)، تفسير أبي السعود (٩٧/٣).

يستنبط من الآيات السابقات وما تضمنته من حوارات بعض الهدايات القرآنية وهي:

١ ـ أن ذكر الله ﷻ لسؤال الحواريين لعيسى عليه السلام إنزال مائدة من السماء وتخصيص إعلام محمد ﷺ بهذا العلم الغيبي هو من الكرامات التي امتنّ الله بها على نبيّه والتي يجهلها النصارى ولا يعرفونها إلا من المسلمين، وذلك إما بسبب ما حل بكتبهم من التحريف أو بسقوطها من كتبهم أو إخفاء علمائهم لها عن عامة الناس.

٢ ـ أن الحواريين في تبريرهم لعيسى عليه السلام صحة سؤالهم، قدموا الأغراض الدنيوية على الأغراض الدينية الروحية، وهذا على النقيض من ترتيب سؤال عيسى عليه السلام ربه إنزال المائدة، فإنه ابتدأ بالأشرف نزولًا إلى الدون ثم الدون، فقدم الأغراض الدينية وأخر الدنيوية تأدبًا مع الله وإعظامًا له.

٣ ـ أن في إنزال المائدة على عيسى آية بينة على قدرته سبحانه وتعالى واستجابة منه للدعاء الخالص من عبده، ودلالة على صدق نبوّته عليه السلام.

٤ ـ وأن فيه تحذيرًا من الله تعالى للمؤمنين من أن يسلكوا مع نبيهم محمد ﷺ سبيل من قبلهم من الأمم التي أهلكت بسبب عصيانها وكثرة سؤالهم لأنبيائهم الآيات.





الفصل الثاني

أغراض السؤالات

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الاطمئنان والتصديق.

المبحث الثاني: التَّعنت، والتَّشدّد، والتضييق.

المبحث الثالث: السخرية والإستهزاء.

المبحث الرابع: أسئلة متفرقة لأغراض متعددة.



المبحث الأول

الاطمئنان والتصديق

لا يخفى أنه ما من سؤال إلا وله غرض كان حاضرًا لدى السائل، وهذه الأغراض تتنوع بتعدد السائلين واختلاف أوصافهم ومقاصدهم ولقد غلب على أسئلة الأقوام أنها لم تكن لغرض الاستفهام الحقيقي وإنما كانت لأغراض تدل على طبيعة القوم وتكشف عن أمراض من الشبهات والشهوات طغت عليهم وحملتهم على هذه الأسئلة.

الاطمئنان والتصديق من الأهداف التي يقصدها بعض من يوجه الأسئلة إلى الأنبياء ولذلك سأعرف بهما ومن ثم أتكلم عن المواضع التي كان فيها الاطمئنان غرضًا للسؤال.

تعريف الاطمئنان لغة: هو مصدر للفعل اطمأَنَّ. يقال: اطمأن القلب: سكن ولم يقلق[(١)]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] أي يسكن إلى المعاينة بعد الإيمان بالغيب[(٢)]. والمراد من الاطمئنان هنا: سكون النفس والفكر في أمر لا يخالجه شك أو يعتريه وهْم، بالمعاينة لأمر نازل من السماء[(٣)].

---

(١) لسان العرب (١٣/٢٦٨).

(٢) لسان العرب (١٣/٢٦٨).

(٣) المحرر الوجيز (١/٤٤٧)، تفسير الثعالبي (٢/٣٧١)، تفسير السعدي (٢٤٨).

والتصديق لغة: مصدر صدّق، وهو اعتقاد مطابقة الخبر للحقيقة ومطابقته للمخبر به[١].

وقيل: هو الصورة الذهنية التي يقصد بها محاكاة أمر واقع لا تجري فيها التخطئة والتغليط[٢].

وقيل: هو الإذعان والقبول[٣]. والمراد بالتصديق هنا: علم إيمان وإيقان ومشاهدة وعيان يندفع به الاعتراض، لما في رؤية العين من حصول الطمأنينة بها فوق ما يحصل بالخبر[٤].

وقد ورد ذكر هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢ ـ ١١٤].

وقد جاء هذا الغرض الطمأنينة والتصديق، صراحة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المَائدة: ١١٣].

ورد في المقصود بالاطمئنان أقوال:

الأول: الاطمئنان إلى أن الله بعث عيسى نبيًّا إليهم[٥].

---

(١) التعريفات (١/١٢)، البحر المحيط (١/٢١٨).

(٢) حاشية العطار على شرح الجدال (١/٢٧).

(٣) التقرير والتحبير (٣/٢٥١)، (٦/١٨٨).

(٤) أصول السرخسي (٢/١٢٨) تفسير الألوسي (٥/١٨٦).

(٥) تفسير الطبري (١١/٢٢٢)، تفسير البحر المحيط (٥/٥٨)، تفسير القرطبي (٦/٣٣٦).

والثاني: الاطمئنان إلى أن الله قد قبل استجابتهم لدعوة عيسى عليه السلام[١].

والثالث: الاطمئنان إلى أن الله قد أجابهم إلى ما سألوه[٢].

والذي يظهر لنا أن الاطمئنان يشمل جميع هذه الأقوال ولا تضاد بينها.

وكذلك ورد في المراد بالتصديق أقوال:

الأول: أراد الحواريون الاطمئنان إلى أن الله قبل صيامهم وعملهم[٣].

الثاني: أنهم أرادوا التثبت من أن عيسى صادق في أنه نبي لهم بنزول المائدة فيعلمون صدقه عيانًا فتزداد قلوبهم اطمئنانًا بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه[٤].

والثالث: أنهم أرادوا أن يستيقنوا قدرة الله فتسكن قلوبهم[٥].

والذي يظهر لنا أن هذا القول هو الراجح، وأنه كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

أما من جهة هل هذا الغرض غرض صحيح ويقصده العقلاء فيحتمل احتمالين:

الاحتمال الأول: أنه غرض صحيح يقصده العقلاء:

- بدلالة أن عيسى ابن مريم، لما رأى أن الحواريين موقنون من السؤال بأنه نبي مبعوث من الله وأن سؤالهم جاء لزيادة العلم

---

(١) تفسير الطبري (١١/٢٢٢)، تفسير البحر المحيط (٥/٥٨)، تفسير القرطبي (٦/٣٣٦)، أيسر التفاسير (١/٣٨٦).

(٢) تفسير الطبري (١١/٢٢٢)، النكت والعيون (١/٣٩٠)، تفسير البحر المحيط (٥/٥٨).

(٣) زهرة التفاسير (٥/٢٤٠٣).

(٤) تفسير النسفي (١/٣١٤)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٤١٠).

(٥) تفسير الطبري (١١/٢٢٢)، تفسير البغوي (٣/١١٧)، فتح القدير (٢/٢٨٢).

لا للتعنت، استجاب لهم فدعا لهم ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء[١].

قال النسفي: «ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت، قال عيسى ابن مريم: اللَّهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء»[٢].

❑ ويمكن أن يقال بأن سؤالهم هذا جاء قبل علمهم بمعجزاته، بإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله.

الاحتمال الثاني: أن غرضهم من السؤال غير صحيح ولا يقصده العقلاء:

لأنه يدل على الشك في قدرة الله تعالى، ومن ثم إلزامهم الوعيد الشديد بالعذاب الأليم إن كفروا بعد نزول المائدة التي اقترحوها وأصروا على طلبها، قال ابن جرير: «وخبر الله تعالى عن القوم يُنبي بخلاف ذلك، أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢] نريد أن نأكلَ منها وتطمئن قلوبنا، فقد أنبأ عن قيلهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته، فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم شك في دينهم وتصديق رسولهم، وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختبارًا»[٣].

والذي يظهر لنا أن غرضهم صحيح، بدلالة موقف عيسى عليه السلام لما علم أنهم لا يريدون بسؤالهم تعجيزه دعا الله أن ينزل عليهم المائدة[٤]. وقد يعكِّر على القول بأن الغرض صحيح، أمران هما:

١ - تحذير عيسى لهم بقوله: «اتقوا الله».

٢ - الوعيد الذي ذكره الله لهم إن كفروا بعد نزولها.

---

(١) تفسير البيضاوي (١/١٣٦).

(٢) تفسير النسفي (١/٣١٤)، تفسير البيضاوي (١/١٣٦).

(٣) تفسير الطبري (١١/٢٢٣).

(٤) تفسير المراغي (٧/٥٨).

بيان هذين الأمرين على ظهورهما في القرآن لا يتنافيان مع كون سؤالهم صدر عن نيّة حسنة وغرض مقبول.

كيفية عرض القرآن لهذا الغرض:

فصل القرآن في عرضه لأغراضهم من سؤالهم إنزال المائدة التي اشتملت على الأكل والاطمئنان والتصديق، والشهادة لله بكمال قدرته، ولعيسى عليه السلام بالنبوة[١].

وعرض القرآن أغراضهم على طريقة حكاية المحاورات[٢].

وأغراضهم هذه تصور مستوًى معينًا للحواريين، فهم دون مستوى أصحاب محمد ﷺ.

قال بعض المفسرين: «ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة أتباع عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون إذ بينهم وبين أصحاب محمد ﷺ فرق بعيد». فالصحابة لم يطلبوا من محمد ﷺ خارقة واحدة بعد إسلامهم، بل اكتفوا بمعجزة القرآن وبذلك يظهر لنا الفرق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام، وحواريي محمد ﷺ، فهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله وأولئك مقبولون، لكن تبقى المستويات متباعدة كما أراد الله[٣].

وهذا الغرض لم يقتصر على زمن عيسى عليه السلام، ولم يختص به الحواريون، بل جاء من كفار قريش أسئلة تحتمل أن يكون غرضهم منها الاطمئنان والتصديق، وذلك أنهم سألوا أن يحول لهم الصفا ذهبًا، ويفجر فجاج مكة أنهارًا. عن ابن عباس قال: «قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبةً فإنْ أصبَح ذَهَبًا اتبعناك وعرفنا أن ما قلت كما قلت فسأل ربه ﷻ فأتاه جبريل: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة

---

(١) تفسير الرازي (١٩٧/٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٤٥/٤).

(٣) صفوة الآثار (٥٠٧/٩).

فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة، قال: **لا بل افتح لهم باب التوبة**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) مسند أحمد بن حنبل (١/٣٤٥)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/١٥٢، رقم ١٢٧٣).

المبحث الثاني

التعنت والتشدد والتضييق

من الأغراض التي قصدها الأقوام من خلال توجيههم الأسئلة إلى أنبيائهم وتوارثوها على مر العصور التعنت من أجل التنصل من الدخول في الدين، كفعل قوم شعيب وكفار قريش، وجاءت من بني إسرائيل تمردًا على أنبيائهم، وتباطؤًا عن تنفيذ أمر الله.

والتعنت لغة: مصدر الفعل تعنّت، وهو المشقة والشدة[١] بإدخال المشقة والأذى على الآخرين بالعسف والحمل على المكروه[٢]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠] أي لو شاء لشدد عليكم، وتعبدكم بما يصعب عليكم أداؤه كما فعل بمن كان قبلكم[٣].

والمراد به هنا: تكلف الأقوام بسؤال الأنبياء ما لا يحتاجون إليه، كما في قوله ﷺ: «**ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم**»[٤].

التشدد لغة: مصدر للفعل تشدَّد، وهو الصلابة المناقضة للِّين[٥].

(١) معجم لغة الفقهاء (١/٣٢٣).

(٢) مقاييس اللغة (٤/١٢٢)، التعريفات (١/١٨٩).

(٣) تاج العروس (١/١١٣٢).

(٤) أصول السرخسي (٢/٢١٥).

(٥) لسان العرب (٣/٢٣٢)، تاج العروس (١/٢٠٥٤).

والمشادة: التشدد في الأمر والمغالبة فيه، كما في قوله ﷺ: «**وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**» أراد غلبه الدين أي غلب من يقاومه[١].

والمراد بالتشدد هنا: إصرار الأقوام على ما هم عليه من الكفر، والتباطؤ في تنفيذ أوامر الله بطرح الأسئلة على أنبيائهم مشادَّةً ومناقضة للحق بالانقياد لما يخالفه وليس لبيانه.

التضييق لغة: مصدر فعل ضيّق، وهو مخالف للسعة[٢]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المَائدة: ١٠١] أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق.

والمراد بالتضييق هنا: تضييق الأقوام على أنبيائهم بتكليفهم بما يشق عليهم القيام به، وتضييقهم على أنفسهم بسوء عاقبة طرحهم الأسئلة المتعنتة على أنبيائهم.

وقد ورد سؤال الأقوام لأنبيائهم في القرآن للتشدّد والتضييق في تسعة مواضع:

الموضوع الأول: سؤال قوم شعيب نبيهم أن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان من الصادقين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٦، ١٨٧]. ففي هذه الآية زعموا أن غرضهم من سؤالهم هو البينة على صدق ما يدعيه نبيهم. هذا في الظاهر، لكن غرضهم، في الحقيقة هو التعنت والتشدد والتضييق.

أجمع المفسّرون أن غرضهم من هذا السؤال غير صحيح ولا يقصده العقلاء، فقد جاء هذا القول منهم تعنتًا واستبعادًا وتعجيزًا[٣]. واستخفافًا بتوعد شعيب ﷺ وتهديده لهم بالعذاب لمن أعرض وكفر، وإلا فقد

---

(١) القاموس المحيط (١/٢٨٨)، تاج العروس (١/٢٠٥٥).

(٢) القاموس المحيط (١/٨١٣).

(٣) تفسير الرازي (٢٤/١٤١)، تفسير ابن كثير (٦/١٦١)، قصص الأنبياء (١/٢٧٤).

جاءهم عليه السلام، بالبينات والحجج الواضحة، الدالة على صدق ما جاء به، وأنه مرسل من ربه.

كيفية عرض القرآن للغرض: كان العرض على طريقة حكاية المحاورات: بذكر محاولة قوم شعيب الطعن في صحة رسالته عليه السلام، وتصميمهم على تكذيبه، وعنادهم واستبعادهم وقوع العذاب ظنًا منهم أنه لن يقع، وبذلك يظهر بزعمهم كذبه عليه السلام.

المتأمل في سؤال قوم شعيب لنبيهم يجد أنه لم يحقق غرضهم فيما سعوا إليه من إضعاف عزيمة نبيهم في الدعوة إلى الله ولكن وقع لهم ما سألوا على وجه التعنت والعناد فحاق بهم ما كانوا يعملون كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] فناسب أن يحق عليهم من العذاب ما استبعدوا وقوعه[١]. وغرضهم هذا متوارث بين الأقوام كما أخبر الله تعالى عن بني إسرائيل مع أنبيائهم[٢].

الموضوع الثاني: سؤال بني إسرائيل موسى عليه السلام، أوصاف البقرة التي جاءت استجابة لسؤالهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٨ ـ ٧١].

ويظهر من السياق أن غرض سؤالهم في كل الآيات هو التعنت والتشدد والتضييق.

وهذا بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٦١)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢١٨٢).

(٢) التفسير المنير (١٠/٢٣٧)، حوار الأنبياء مع أقوامهم (٤٤٢).

فسبحانه لم يعين البقرة بأوصاف معينة، وإنما ذكرها مطلقة، فلو عمدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم، وكان هذا التوجيه كافيًا لهم في التنفيذ والامتثال، ولكنهم ردوا عليه رد الذين جبلوا على السفاهة وفظاعة القول، فاتهموه بأنه يسخر منهم ويستهزىء بهم كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] فشدّدوا فشدد الله عليهم. فقالوا بجفاء أخلاقهم وغلظ طبائعهم وسوء فهمهم وتكلف ما قد وضع الله عنهم مؤونته تعنتًا ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] فشدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فأمرهم بذبح بقرة موصوفة بهذه الصفات التي يعز وجودها في بقرة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] وذلك أن تكون متوسطة في السن لا هي مسنة ولا شابة إنما هي وسط بينهما، وقد كان هذا التشديد كافيًا في تأديبهم، وما عليهم إلا أن يعمدوا إلى بقرة متوسطة السن فيذبحوها ويستريحوا من مشقة التعقيد والتضييق على أنفسهم، ولكنهم عاودوا السؤال مرة أخرى لِيَجُرُّوا عليهم أعباء جديدة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٦٩] فأجابهم الله على لسان نبيه: أن هذه البقرة صفراء شديدة الصفرة، فلا يخالط لونها لون آخر تسر الناظرين؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٩] فقد كان ذلك كافيًا في تنفيذ الأمر، لكنهم بعد هذا كله شددوا وتعنتوا بسؤال أخر معللين أن البقر تشابه عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ٧٠] ثم جاء قولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٠] استثناءً منهم وإنابة ودليل حرص على موافقة الأمر، فأجيبوا بجواب يزيد المشقة ويضيّق عليهم دائرة الاختيار بأن تكون البقرة غير مذللة بالحراثة وليست معدة للسقي وليس فيها شيء من العيوب؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧١]، وبعد كثرة ترددهم وتباطئهم في تعيين البقرة بالصفة المذكورة، بسبب تعنتهم، ذبحوها.

التحقق من دعوى عقلانية غرضهم من هذا السؤال إنه يحتمل أمرين:

الأول: أن غرضهم غير صحيح ولا يقصده العقلاء: فلو كانوا عقلاء لامتثلوا الأمر بذبح البقرة، وانتظروا النتيجة، لكنهم قوم لا يعقلون[١]. قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوِ اعْتَرَضُوا بقرة فَذَبَحُوهَا، لَأَجْزَأَتْ عَنْهُم، وَلَكِنَّهُم شَدَّدُوا، فَشَدَّدَ الله عَلَيْهِم**»[٢].

الثاني: أن غرضهم صحيح ويقصده العقلاء: فالقوم لم يقصدوا التعنت والتشدد والتضييق.

نقله الطبري، وابن حيان، والألوسي، وابن عاشور[٣]. ورجحه الرازي: «وإنما كان سؤالهم على سبيل الاسترشاد لا على وجه الإنكار والعناد ويحتمل أنهم أرادوا من الدعاء النداء الجهير بناء على وهمهم أن الله بعيد المكان»[٤].

والذي يظهر لنا أن غرض سؤال بني إسرائيل هو التَّعنُّت والتَّشَدُّد والتضييق وضعف الانقياد لأنبيائهم من خلال سؤالاتهم المتكررة، والتباطؤ في تنفيذ ما أمرهم الله به.

عرض القرآن الكريم أغراضهم على طريقة حكاية المحاورات[٥]. وقيل إن أول القصة هو المذكور بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: ٧٢]، وأن قول موسى أن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ناشىء عن قتل النفس المذكورة، وأن قول موسى قُدِّم لأن خطاب موسى عليه السلام جاء ذمًّا لهم في الاستخفاف والاستهزاء في تلقي التشريع والتعنت في المسألة، فجاء تقديم جزء القصة تقريعًا لهم كما ذكره صاحب الكشاف[٦].

---

(١) تفسير الطبري (٢/٢٠٥)، تفسير القرطبي (١/٤٤٨)، تفسير السعدي (٥٥).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/٣٠)، وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) تفسير الطبري (٢/٢٠٥)، تفسير البحر المحيط (١/٣٢٢)، تفسير الألوسي (١/٣٥٧).

(٤) تفسير الرازي (٢/١٤٩).

(٥) التحرير والتنوير (١/٢٣٥).

(٦) الكشاف (١/٧٧).

كيفية تحقيق السؤال لغرضهم:

جاء جواب القرآن الكريم على سؤالهم ﴿مَا هِيَۚ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] بذكر الصفات التي شقت عليهم؛ تأديبًا لهم على سؤالهم الذي قصدوا من ورائه العصيان والتنصل من فعل ما أمروا به.

قال ابن عاشور: «وإن كان سؤالهم ناشئًا عن ظنهم أن الاهتمام بهذه البقرة يقتضي صفات لها نادرة، وهو ظاهر قولهم بعد ذلك: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٠] فجاء تكليف الله سبحانه وتعالى بهذه الصفات العسيرة التي يتعذر وجودها مجتمعة وفيه تأديب علمي على سوء فهمهم في التشريع، كما يُؤدَّبُ طالب العلم إذا سأل سؤالًا لا يليق بمرتبته في العلم، وموقف القرآن الكريم منهم الذم لهم في سوء تلقيهم الأوامر والتقصير في شكر الله على نعمه».

موقف القرآن الكريم من غرضهم: أنزلهم القرآن الكريم منزلة المنكرين بسبب تعنتهم بالسؤال، والمتأمل يجد أن القرآن الكريم أجاب على لسان نبيهم فلم يقل لهم من أول الأمر إنها بقرة عوان، بل قال لا فارض ولا بكر، فجاء بالوصفين السابقين للتعريض بغباوتهم والتلميح بعدم فهمهم الأساليب الموجزة، لذا فصّل في وصفها حتى لا يترك لهم مجالًا لإعادة السؤال وقصد في قوله تعالى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال[(١)].

الموضوع الثالث: في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦]. ففي هذه الآية زعموا أن غرضهم من سؤالهم هو القتال في سبيل الله تحت قيادة وإمرة ملك

---

(١) التحرير والتنوير (١/٢٣٥)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٨).

يختاره لهم، لكن غرضهم من ذلك، في حقيقة الأمر، هو التعنت والحياد عن أمر الله على عادتهم[1]. ودل على ذلك اعتراضهم على اختيار الله طالوت ملكًا عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧].

بعد تأمل هذا الغرض نجد أنه مقصد غير صحيح لا يقصده العقلاء، وذلك لأنه لما فرض عليهم القتال، وبعث الله لهم طالوت ملكًا تولوا وأعرضوا إلا قليلا منهم، وجاء إعراضهم هذا مع أنهم كانوا مقرين بنبوة ذلك النبي، ويدل على ذلك ظاهر الآية؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦]، فإخبار النبي عن الله تعالى أنه جعل طالوت ملكًا عليهم حجة قاطعة في ثبوت الملك له، وهذا يطلعنا على سمة خاصة من سمات بني إسرائيل من نقض العهود، ونكث الوعود، والتفلت من الطاعة، والعصيان عند التكليف فتناقضت أفعالهم مع أقوالهم[2]، وبرروا إعراضهم بأنه لم يتحقق غرضهم من سؤالهم باستبعادهم أن يكون طالوت ملكًا عليهم[3].

لم يحقق سؤالهم غرضهم فيما سعوا إليه من تعيين ملك حسب أهوائهم، لكن وقع لهم ما سألوه من الإذن لهم بالقتال في سبيل الله.

موقف القرآن الكريم من غرضهم: لما علم نبيهم عليه السلام تعنتهم وجدالهم في الحجج احتج عليهم بالحجة القاطعة إذ بين لهم تعليل اصطفاء الله طالوت ملكًا عليهم بإنه سبحانه زاده بسطة في العلم والجسم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] ثم أتمّ كلامه الذي لا اعتراض عليه

---

(١) البحر المحيط (٢/٢٢٦).

(٢) تفسير الطبري (٥/٢٠٧).

(٣) الكشاف (١/٣٢٠)، تفسير الرازي (٦/١٤٧)، تفسير أبي السعود (١/٢٤٠).

وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧]، لتأكيد أن الله هو الحاكم، فسبحانه هو الواسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عالم بمن يستحق الملك ومن لا يستحقه فلا تتخيروا عليه(١).

الموضع الرابع: في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [النِّسَاء: ١٥٣].

في هذه الآية يبرز التعنت من المعاصرين لمحمد ﷺ، فهؤلاء قد زعموا أن غرضهم من طلب إنزال كتاب من السماء هو البينة على صدق ما يدّعيه محمد ﷺ بأنه مرسل من الله. هذا في ظاهر سؤالهم، لكن في حقيقة الأمر كان غرضهم من ذلك هو التعنت والتشدد.

هذا الغرض غير صحيح ولا يقصده العقلاء، فهو قد جاء على سبيل التعنت والتشدد والتضييق بدلالة سياق الآيات التي جاءت بعد سؤالهم، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النِّساء: ١٥٣]. فهم قد شابهوا آباءهم في سؤالهم رؤية الله سبحانه وتعالى جهرة وعيانًا، بسؤال محمد ﷺ، إنزال كتاب ورفض الإيمان بالله ﷻ(٢)، ولو كان غرضهم طلب الحق لاكتفوا بالقرآن الكريم آية ظاهرة، والمعجزات الباهرة التي أيّد الله بها رسوله محمدًا ﷺ(٣)، وقد أجمع المفسرون على أن غرضهم من سؤالهم التعنت، لا الاستبصار(٤).

قال ابن كثير: «وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد»(٥).

---

(١) تفسير الطبري (٢/٦٠٦)، المحرر الوجيز (١/٣٣١)، تفسير ابن كثير (١/٣٠٢).
(٢) تمهيد الأوائل (١/٣١٠).
(٣) تفسير النيسابوري (١/٣١٣)، تفسير أبي السعود (٢/١٧٦).
(٤) تفسير الطبري (٦/٧)، تفسير البغوي (٢/٣٠٥)، تفسير الرازي (٦/١٧١).
(٥) تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).

وغرضهم هذا يصور مستوًى معينًا لهم فهم قد شابهوا أسلافهم في تعنتهم على أنبيائهم.

ذكّرهم الله تعالى بسؤال أسلافهم ما لا يحق لهم أن يسألوه ثم ذكّرهم بأنه عاقبهم بالصاعقة فكانت مناسبة لحالهم وفيها تربية قاسية على مجاوزتهم الحد.

لم يحقق سؤالهم غرضهم الذي سعوا إليه من إضعاف الدعوة والتشكيك بنبوته ﷺ.

قلل الله من مكانة سؤالهم الذي جاء تعنتًا وعنادًا؛ كما في قوله تعالى مخاطبًا محمدًا ﷺ ومسليًا له: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ [النِّساء: ١٥٣] بأنه إذا استنكرت هذا السؤال من أهل الكتاب، فلا تعجب منه ولا تبال بسؤالهم، لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك.

وهذا الغرض لم يقتصر على قوم شعيب وبني إسرائيل مع أنبيائهم ولا على أهل الكتاب المعاصرين للنبي، بل جاء من كفار قريش، وقد ورد ذلك في خمسة مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٥].

يزعم كفار قريش أن غرضهم من الأسئلة هو البينةُ بينما قصدهم التعنت على صدقِ ما يدعيه محمد ﷺ.

لم يجبهم الله سبحانه وتعالى على اقتراحاتهم، وإنما أمر نبيه ﷺ

أن يرد عليهم برد فيه تنزيه لله ﷻ وأن يظهر أن مهمته ﷺ ليست إقامة البينات وإنما توضيح الشريعة، وهذه المعجزات لا حاجة إليها، وإلا فقد جاءهم محمد ﷺ بمعجزة القرآن الكريم، وفيه دلالة كافية على كونه معجزًا، فسؤالهم لم يكن طلبًا للبرهان، إنما كان وسيلة من وسائل التعنت[١]؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. في هذه الآية زعم كفار قريش أن غرضهم من سؤالهم البينة الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعوهم إليه.

إنَّ سؤالهم إنزال الكنز من السماء كان تعنتًا وتعجيزًا لا استرشادًا، لأنهم لو كانوا يسألون الحقيقة لكانت آية واحدة مما جاء به محمد ﷺ كافية لإرشادهم[٢].

كما أنهم التمسوا أن ينزل عليهم من السماء كنز على خلاف العادة، فالكنوز إنما تكون في الأرض، قال ابن حيان: «في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ إن كفار قريش قالوا: ﴿أُنزِلَ﴾ ولم يقولوا أعطي لأن مرادهم التعجيز»[٣].

وموقف القرآن من غرضهم: لم يجبهم الله تعالى إلى سؤالهم، إنما أمر نبيه ﷺ بتأكيد أن من مهامه التي جاء من أجلها الإنذار بالعذاب الشديد لمن أعرض وكفر، وأن الآيات التي يسألونها عند الله، فهو القادر على إرسالها فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وهو الوكيل على عباده،

(١) تفسير الرازي (٢٩٣/١).
(٢) الكشاف (٣٦٢/٢).
(٣) تفسير البحر المحيط (٣٧٨/٦).

يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء[١]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعرَاف: ٢٠٣] في هذه الآية زعم كفار قريش أن غرضهم من سؤالهم التيقن من إنه نبي ورسول فيخترع المعجزات من عند نفسه.

التحقق من دعوى عقلانية غرض كفار قريش من هذا السؤال:

بتأمل هذا الغرض من سؤال كفار قريش نجد أنه غير صحيح ولا يقصده العقلاء، لأن سؤالهم آيات معينة على سبيل التعنت، يحمل نوعًا خاصًا من الإغواء والإضلال باتّهام الرسول ﷺ بأخطر أنواع الاتهام، وهو افتراؤه القرآن وتمكنه من الإتيان بما شاؤوا من المعجزات والخوارق المادية[٢]، قال الكلبي: «كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتًا فإذا تأخرت اتهموه، وقالوا: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ جريًا على عادتهم بزعمهم أن القرآن من عند محمد ﷺ»[٣].

وموقف القرآن من غرضهم: بيّن أن محمدًا ﷺ لم يجبهم إلى سؤالهم باختراع آية، وإنما أمر الله نبيه أن يرد عليهم بأنه لا يخترع القرآن ولا يطلب آية من الله، فليس لنبي أن يقترح على ربه، ثم أمره أن يشير إلى أن هذا القرآن الذي جاءهم به هو هدى ورحمة، وأنه معجزة كافية لإثبات النبوة كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: ٢٠٣].

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرّعد: ٧]. في هذه الآية زعم كفار قريش أن إيمانهم بما جاء به محمد ﷺ متوقف على نزول معجزة خارقة عليه من عند ربه.

---

(١) تفسير الطبري (٥٢/١٢)، تفسير البحر المحيط (٢٠/٥)، تفسير السعدي (٣٧٨)، تفسير اللباب (٧٢/٩).

(٢) تفسير الرازي (٨٢/١٥).

(٣) تفسير البغوي (٣١٨/٣).

بتأمل هذا الغرض في سؤال كفار قريش يظهر أن السؤال في غير محله فالآيات الدالة على صدق النبي ﷺ واضحة، ولم تدركها عقولهم لفساد إدراكهم[١].

وفي ضوء ما تقدم لم يحقق السؤال غرضهم فيما سعوا إليه من إنكارهم أن القرآن الكريم آية دالة على النبوة.

وبناءً عليه لم يجبهم الله سبحانه وتعالى إلى طلبهم، بل أمر نبيّه ﷺ أن يرد عليهم بأن سؤال الآيات من الرسل جهل، فسبحانه هو المضل والهادي، فالهداية والضلالة ليست بأيديهم حتى يجعلوا هدايتهم متوقفة على نزول الآيات، وكان أنفعَ لهم من سؤالهم الآيات أن يسألوا الله الهداية إلى الدين الذي ارتضاه لعباده[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧].

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبيَاء: ٥]. في هذه الآية زعم كفار قريش أن غرضهم من سؤالهم محمد ﷺ أن يأتيهم بآية كالتي أتى بها الأنبياء السابقون، لا يتطرق إليها شيء من الاحتمالات المذكورة، للدلالة على صدقه بأنه رسول من الله.

إن غرضهم غير صحيح ولا يقصده العقلاء، لأنهم كانوا عالمين بأن القرآن الكريم ليس بسحر ولا رؤيا، ولكنهم مكابرون معاندون، فإذا هم لم يؤمنوا بآية هي من جنس ما هم أعلم الناس به فكيف يؤمنون بآية غيرها؟

لهذا لم يحقق السؤال غرضهم فيما سعوا إليه من التضييق على الرسول ﷺ للطعن في نبوته.

ولم يجبهم الله على سؤالهم لبطلان غرضهم، وإنما رد عليهم مفندًا

---

(١) التحرير والتنوير (٧/٣٧٠)، الوسيط (١/٢٣٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥١٣)، تفسير السعدي (٤١٧).

كذبهم ومشيرًا إلى عدم إفادة الآيات المنزلة عليهم بسبب إمعانهم في الكفر، فما آمن أهل قرية من القرى التي بعث الله إليها الرسل بالمعجزات الظاهرة على أيديهم، بل كذبوا فأهلِكوا، فكيف يؤمن كفار قريش بالآيات؟ ولو رأوها فهم في الكفر سواء[١]؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦].

❁ ❁ ❁

(١) التفسير المنير (١٦/٩).

المبحث الثالث

السخرية والاستهزاء

كان من الأغراض التي قصدها كفار قريش في توجيههم الأسئلة لمحمد ﷺ السخرية والاستهزاء بالنبي ﷺ وبدعوته، لأنهم توهموا أنه لن يستطيع الإجابة عليها أو أنها سوف تسبب له الحرج.

السخرية لغة: مصدر سَخِرَ، وسخر منه وبه: أي استهزأ[١]. وقيل السخرية: استجهال مع استهزاء[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصَّافات: ١٤]. **والمراد بالسخرية هنا**: التعجب باحتقار واستحماق للرسول ﷺ، وما جاء به[٣].

الاستهزاء لغة: مصدر فعل استهزَأ، وهو السخرية والاستخفاف بالمرء[٤]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤]. **والمراد به هنا**: إطلاق ما لا يحل إطلاقه على الله تعالى، أو على رسوله، أو على الملائكة، أو الأنبياء، أو الصحابة، وغيرهم من الناس، بقول أو بفعل أو بمحاكاة أو بإشارة[٥].

(١) المحيط في اللغة (٣٤٨/١)، لسان العرب (٣٥٢/٤).
(٢) المحرر الوجيز (٤٢١/٣)، تفسير البحر المحيط (٤٠٠/٦).
(٣) ينظر التحرير والتنوير (٣٧٠/٤).
(٤) الكشاف (٤٠/١)، تفسير الألوسي (١٦٧/١).
(٥) ينظر القوانين الفقهية (١٣١/٣).

واختلف أهل العلم في التفريق بين السخرية والاستهزاء عن ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن السخرية والاستهزاء متحدان معنى واستعمالًا، قال ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤]، ساخرون بأصحاب محمد ﷺ[١].

القول الثاني: أن السخرية والاستهزاء معناها متقارب، ذكره ابن حيان[٢].

القول الثالث: أن هناك فرقًا بينهما، ذكره العسكري، والأصفهاني، وأبو البقاء.

والفرق بينهما ما يلي:

- السخرية: فيها معنى طلب الذلة لأن التسخير في الأصل التذليل.
- الاستهزاء: أن يُستهزأ بالإنسان من غير أن يسبق منه فعل يُستهزأ به من أجله.
- الهزء يجري مجرى العبث؛ لهذا جاز أن يقال هزأت مثل عبثت وعبثت لا يقتضي معنى التسخير، فالفرق بينهما بيّن، والهزء: يقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول[٣]

والذي يظهر لنا أن السخرية والاستهزاء بينهما عموم وخصوص، فقد ذكر في القرآن الكريم أن الكفار سخروا بالرسل وبالآيات والمؤمنين، ولم يرد أنهم سخروا بالله ﷻ لأن السخرية أقوى، فهي جاءت بمعنى: استجهال مع استهزاء، وقد علم المشركون أنهم لا يمكن أن يتجاهلوا الله ﷻ، أما الاستهزاء فقد ورد استهزاؤهم بالله، ورسله وملائكته وآياته،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٨٣).

(٢) تفسير البحر المحيط (٣/١٤٦)، التحرير والتنوير (٤/٣٧٠).

(٣) الفروق اللغوية (١/٢٧٥)، المفردات (٧٩٠)، الكليات (٢/٨٧).

والمؤمنين، وفي موضع آخر من القرآن الكريم جمع بين السخرية والاستهزاء ولم يُكتف بأحدهما كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. وقد ورد هذا الغرض في موضعين من القرآن الكريم:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [السَّجدَة: ٢٨].

زعم كفار قريش أن غرضهم من السؤال استعجال وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم والتَّحقُّق من صدق ما كان يعدهم به الرسول ﷺ والذين آمنوا معه.

بتأمل هذا الغرض نجد أنه غير صحيح ولا يقصده العقلاء، فقد جاء منهم استهزاءً وسخرية واستبعادًا وتكذيبًا لوقوعه، وفيه دلالة على جهلهم وطيشهم(١). قال قتادة: «قال أصحاب النبي ﷺ للكفار: إن لنا يومًا نتنعم فيه ونستريح ويحكم بيننا وبينكم فقالوا استهزاءً متى هذا الفتح»(٢).

والمتأمل في هذه الآيات يجد أن سؤالهم لم يحقق أغراضهم من سخرية واستخفاف بالعذاب، وكان هدفهم إفحام الرسول وإضعاف دعوته والتقليل من أتباعه، لأنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون حتى إذا رأوا ما يوعدون تحقق عكس ما كانوا يأملون(٣).

وموقف القرآن الكريم من غرضهم:

يقتضي الجواب تعيين اليوم المسؤول عنه، فلما كان غرضهم السخرية أمر الله نبيه بالرد عليهم حسب غرضهم، وبأن لا يستعجلوا، فهو آت، وقد حصل لهم ما أُوعدوا به، واستنظروا فلم يُنظروا(٤) كما في

---

(١) أيسر التفاسير (٢١٩/٣).

(٢) تفسير البغوي (٣١٠/٦).

(٣) تفسير البغوي (١٣٠/٥)، التحرير والتنوير (٣٩٩/٧).

(٤) تفسير أبي السعود (٣١٦/٥)، تفسير الألوسي (٢٥/١٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السَّجدَة: ٢٩].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسرَاء: ٩٢]. في هذه الآية عرض كفار قريش أن غرضهم من سؤالهم الاستخفاف والاستهزاء بقولهم: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ ولم يظهر من سؤالهم أنهم أرادوا بينة ليطمئنوا بها على صدق نبوته؛ فقد جاء في أسباب نزول هذه الآيات أن عبدالله بن أبي أمية بعد أن ذكر اقتراحاته هو وقومه قال: «وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك»[١].

لما كان غرضهم من سؤالهم باطلًا، أمر الله نبيه أن يرد عليهم سؤالهم بتنزيهه عن أن يسألوه ما ليس لهم به حق فسبحانه هو القادر على أن ينزل ما طلبوا ولكنه لا ينزل الآيات على حسب ما يقترحونه ثم بين أن الرسول ﷺ بشر ما له قدرة على الإتيان بهذه الاقتراحات[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٣].



---

(١) تفسير القرطبي (١٠/٣٢٩).

(٢) تفسير البغوي (٥/١٣١) تفسير الرازي (٢١/٤٩).

المبحث الرابع

أسئلة متفرقة لأغراض متعددة

كان هدف كفار قريش من توجيه سؤالهم إلى محمد ﷺ التنصل من الدخول في دينه. وإيهام أنفسهم أنهم يسلكون المسلك الأصوب، في تعاملهم مع دعوة النبي ﷺ.

التنصل لغة: مصدر فعل تنصّل، والتنصل شبه التبرؤ من ذنب، وتنصل إليه من الجناية: أي خرج وتبرأ[١]. وفي الحديث: «**من تنصل إليه أخوه فلم يقبل فلن يَرِدَ على الحوض**»[٢].

والمراد بالتنصل من الدخول في الدين هنا: الخروج أو التبرؤ من تبعات عبادة الله، وإظهار الخضوع له، ويكون ذلك بالمباهتة فيقولون إن كان البعث حقًّا فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين.

وردت أسئلة وطلبات عن بعض أقوام الأنبياء عليهم السلام تعددت فيها الأغراض كما يكشف عن هذا سياقها، ويمكن حصرها في عشرة مواضع وهي:

الموضع الأول: وقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدّخان: ٣٤ ـ ٣٦]. ففي ظاهر هذه الآية لم يعارض كفار قريش إمكانية البعث

(١) لسان العرب (٦٩٢/١١)، تاج العروس (٧٥٥٥/١).

(٢) المستدرك (١٧١/٤، رقم ٧٢٥٩)، الضعفاء الكبير (٢٤٩/٣)، التمهيد (٣٠٩/٢).

بعد الموت، لكنهم سارعوا إلى المباهتة بسؤالهم البينة على إمكانية البعث بعد الموت بقولهم: إن كان البعث حقًّا فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين.

التحقق من عقلانية غرض كفار قريش من هذا السؤال:

إن غرضهم هذا غير صحيح ولا يقصده العقلاء:

١ - بدلالة الصيغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الدخان: ٣٤] وفي ذلك إنكار من الله تعالى على المشركين إنكارهم الحياة بعد الممات، بعد أن رأوا من الآيات ما يكفي للدلالة فليس لهم أن يتنطعوا[١].

٢ - وبأن الإعادة هي للجزاء، وذلك في الآخرة، أما الدنيا فهي دار التكليف ولا يصح أن يُسأل حدوث شيء قبل حلول وقته[٢].

كيفية عرض القرآن الكريم للغرض:

- ذكر الله سبحانه وتعالى في سياق الآيات السابقة لهذا الغرض قصة فرعون وقومه للإشارة إلى التشابه بينهم وبين كفار قريش في التكذيب للحق، وفي الإصرار على الضلال، والتحذير من أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السابقة من العذاب والهلاك[٣].
- سجل على كفار قريش إعراضهم عن البينة ولجوؤهم إلى سلاح العاجز للمكابرة والخروج عن دائرة البحث[٤].

لما كان غرضهم من هذا السؤال التنصل من الدخول في الدين، لم يجبهم الله على سؤالهم، وإنما اكتفى بالرد عليهم بالوعيد والتهديد منكرًا عليهم مبينًا أن في من سبقهم من هو خير منهم: أَهُم خير في الدين والدنيا من قوم تُبَّع والذين من قبلهم؟ فقد كانوا أقوى عددًا وعدة منهم، وخص قوم تُبَّع بالذكر لأنهم أقرب المهلكين إلى قريش زمانًا ومكانًا.

---

(١) زاد المسير (٥/٣٥٠)، تفسير ابن كثير (٧/٢٥٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٦/١٤٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/١١٨)، فتح القدير (٦/٤٣٠)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٣٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/٣٢٩).

فكما أهلك الله أسلافهم في الكفر كذلك يهلكون[١]. كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدّخان: ٣٧].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. احتمل سؤال بني إسرائيل في هذه الآية عدة أغراض منها:

- ما جاء ظاهرًا وهو التقليد بقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.
- ومنها ما جاء مضمرًا وهو التعنت، قال ابن حيان: «إن طلب مثل هذا كفر وارتداد وعناد، جَرُوا في ذلك على عادتهم في تعنتهم على أنبيائهم وطلبهم ما لا ينبغي»[٢].
- أو التقرب إلى الله تعالى بعبادتها، قال البغوي: «ولم يكن ذلك شكًا من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنما معناه: اجعل لنا شيئًا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله ﷻ، وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم»[٣].

التحقق من عقلانية أغراض بني إسرائيل من هذا السؤال:

أغراضهم غير صحيحة ولا يقصدها العقلاء، وإنما يقصدها أهل الجهل للأسباب التالية:

١ ـ أن الإيمان لم يستقر في قلوبهم، فاستعباد فرعون لهم، ما زال متمكنًا من نفوسهم.

٢ ـ جاء سؤالهم ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أن يقوم موسى بنفسه بصناعة صنم يعبدونه، وهو نبيهم الداعي إلى التوحيد وفي ذلك دلالة على غباء عقولهم.

---

(١) تفسير الرازي (١٢/١٤)، نظم الدرر (٨/٨).

(٢) تفسير البحر المحيط (٥/٤٣٥).

(٣) تفسير البغوي (٣/٢٧٤).

٣ ـ أن سؤالهم عبادة غير الله جاء تعنتًا منهم بعدما رأوا الآيات الظاهرة والباهرة.

٤ ـ في اتخاذ معبود آخر غير الله انحراف عن التوحيد إلى الشرك، سواء اعتقد في المعبود أنه إله أو اعتقد أنه مقرب من الله.

٥ ـ وصفهم موسى عليه السلام بالجهل المطلق لأنه أشنع ما رأى منهم، فهم جهلوا التوحيد، وإفراد الله بالعبادة بلا واسطة وجهلوا عظمة الله الموجبة تنزيهه عن الشريك والمثيل[١].

مدى تحقيق السؤال لأغراضهم: لم يحقق السؤال أغراضهم لأنها تمثل أعلى مراتب الجهل والحماقة، فالمعبود المستحق للعبادة والتعظيم هو الله الواحد[٢].

كيفية عرض القرآن الكريم للأغراض:

عرض القرآن الكريم هذه الأغراض على طريقة المحاورات، بعد أن شرع في قصة بني إسرائيلَ شرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة بذمهم بسؤالهم اتخاذ إله آخر مع الله، وبعد أن كشف لهم سوء حالهم، وفرط جهالاتهم، بيّن لهم فساد ما طلبوه في ذاته، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم[٣].

موقف القرآن الكريم من أغراضهم:

لم يجبهم إلى سؤالهم، فالإله ليس شيئًا يطلب ويتخذ إنما الإله هو الخالق، والرازق، والقادر على الإنعام بالإيجاد، وإعطاء الحياة وجميع النعم[٤].

---

(١) التفسير المنير (٧٩/٥).

(٢) تفسير الرازي (٨٤/٣)، مجموع فتاوى ابن تيمية (١٢٧/٣)، التفسير المنير (٨٢/٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٣٦/٣).

(٤) تفسير اللباب (٩٩٤/٧).

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العَنكبوت: ٥٠].

في هذه الآية زعم كفار قريش أن غرضهم من سؤالهم هو البينة الدالة على أن محمدًا ﷺ رسول الله، وتكون حجة لله عليهم، لكن في حقيقة الأمر كان غرضهم التعنت والامتحان، والتعجيز، والتكذيب، والاستهزاء.

١ ـ **التعنت والامتحان**: قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم لأن ذلك سهل عليه، ولكنه يعلم منكم أن قصْدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]».

٢ ـ **أن تكون حجة لله عليهم**: قال ابن جرير: «وقال المشركون من قريش: هلا أنزل على محمد ـ ﷺ ـ آية من ربه تكون حجة لله علينا؛ كما جعلت الناقة لصالح، والمائدة لعيسى»[2].

التحقق من عقلانية أغراض كفار قريش من هذا السؤال:

أغراضهم غير صحيحة ولا يقصدها العقلاء للأسباب التالية:

١ ـ جهلهم وسخافة عقولهم بسؤالهم آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ بعدما جاءهم بالقرآن الكريم الذي هو أعظم من كل معجزة إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته[3].

٢ ـ أن القصد من أغراضهم الباطل، لا بيان الحق، فكان اقتراح الآيات المعينات منهم على رسول الله ﷺ ظلمًا وجورًا، وتكبرًا على الله وعلى الحق[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٨٧/٦).
(٢) تفسير الطبري (١٥٣/١٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٥٥٤/٣).
(٤) تفسير السعدي (٦٣٣).

٣ - سؤالهم محمدًا ﷺ أن يأتي بآيات مرئية خارقة للعادة، تدل على أن الله خلقها تصديقًا للرسول؛ كما خلق ناقة صالح، وعصا موسى، وقد جاءت للتعنت والامتحان، فهم من جهلهم لا يتأثرون إلا بالأمور المشاهدة(١).

أمر الله نبيه بالرد عليهم بتأكيد أنه سبحانه هو الذي يعطي ما يشاء من الآيات لمن يشاء من الأنبياء بحسب ما يرى من المصلحة، ولذلك لم تتفق آيات الأنبياء كلها وإنما جاء كل نبي بنوع منها، وأن من مهامه ﷺ الإنذار والبيان لا الاستجابة لما يقترح عليه من الآيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠](٢).

الموضع الرابع: سؤال كفار قريش أن يأتيهم محمد ﷺ بآية كمثل آيات موسى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصص: ٤٨].

في هذه الآية كان لسؤالهم عدة أغراض منها:

- ما جاء ظاهرًا وهو التماثل كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عن محمد بن كعب القرظي قال: «كلم نفر من قريش رسول الله ﷺ فقالوا له: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا وتخبرنا أن عيسى كان يحي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بآية من هذه الآيات حتى نصدقك»(٣).

- ومنها ما جاء مضمرًا وهو التعنت، والكفر، والإلحاد، قال ابن كثير: «قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد:

---

(١) التحرير والتنوير (١١/١٤).

(٢) النكت والعيون (٣/٣٠٥).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/٥٢)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٥٢٠).

﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القَصَص: ٤٨]»[١]. قال الشوكاني: «فلما جاء أهل مكة الحق من عند الله وهو محمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن الكريم قالوا تعنتًا منهم، وجدالًا بالباطل هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى عليه السلام من الآيات»[٢].

التحقق من عقلانية أغراض كفار قريش من سؤالهم:

أغراضهم غير صحيحة ولا يقصدها العقلاء:

- لقصر فهمهم عن إدراك ما في نزول الآيات من عظيم الحكم والمقاصد[٣]، قال السعدي: «وهذا تعنت منهم، وعناد وظلم، فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم والذي ينزلها ويختار منها ما يختار هو الله»[٤].
- ولأنهم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان ونقضه بما لا ينقض، فيقولون الأقوال المتناقضة التي جاءت تماديًا في الغي، وتمردًا على الله قال ابن عاشور: «ليس مرادهم من هذه المطالب إلا الاستكبار، والعناد والاستخفاف بالآيات، وسؤالهم ما لا حاجة لهم به»[٥].

موقف القرآن الكريم من أغراضهم:

صرّح القرآن الكريم بأنهم كفروا بالكتابين، والرسولين، فهم لا يسألون الحق ولا يتبعون أمرًا عندهم خيرًا من الذي أوتوه من قبل، وإنما يتبعون الهوى؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٤١).

(٢) فتح القدير (٥/٤١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٨/١٣).

(٤) تفسير السعدي (٥١٧).

(٥) التحرير والتنوير (٨/١٣).

الموضع الخامس: سؤال بني إسرائيل موسى عليه السلام رؤية الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٥، ٥٦]. في هذه الآية كان لسؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام عدة أغراض منها:

- ما جاء ظاهرًا وهو سؤالهم البينة الدالة على صدق موسى، وما جاء به كقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.
- ومنها ما جاء مضمرًا وهو التعنت، قال البقاعي: «وقع منهم العصيان بطلب ما لا ينبغي لهم من الرؤية على وجه التعنت»[(١)].
- والمكابرة والعناد، قال النيسابوري: «إنما سألوا الرؤية لأجل المكابرة والعناد»[(٢)].

التحقق من عقلانية أغراض بني إسرائيل من هذا السؤال:

أغراضهم غير صحيحة ولا يقصدها العقلاء لأن بني إسرائيل لفرط عنادهم، وتعنتهم، وطلبهم المستحيل، امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزاته حتى يروا ربهم جهرة[(٣)]، وقال ابن عثيمين: «ما أكثر ما يدل على سفاهة بني إسرائيل؛ فهم يؤمنون بموسى، ومع ذلك قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾»[(٤)].

مدى تحقيق السؤال لأغراضهم: لم يحقق السؤال أغراضهم، لأن الإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم واقتراح الآيات عليهم من باب التعنت والعناد[(٥)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣/٢٧٩).
(٢) تفسير النيسابوري (٢/٢٩٦).
(٣) تفسير البيضاوي (١/٩٢).
(٤) تفسير القرآن الكريم للعثيمين (٣/١٣٦).
(٥) تفسير النسفي (١/٤٨).

موقف القرآن الكريم من أغراضهم: ذكر أن الله عاقبهم بالصعق؛ فصعقوا حالًا عقوبة لهم عما بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بمعجزات موسى التي جاءهم بها من عند ربه[١].

كان من أهداف توجيه الأقوام أسئلتهم إلى أنبيائهم الإتيان بالحجج والبينات الدالة على صدق رسالتهم، وقد ورد ذلك في مواضع من القرآن الكريم:

الموضع السادس: في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

أدلة كونه غرضًا لأسئلة الأقوام:

جاء في تفسير هذه الآية ما يدل على أن غرضهم طلب الحجج والبينات:

- ❑ قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: «فأتونا بحجة على ما تقولون تُبين لنا حقيقتَه وصحتَه، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون»[٢].
- ❑ وقال السعدي: «﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات»[٣].

التحقق من عقلانية غرضهم من هذا السؤال: غرضهم هذا غير صحيح ولا يقصده العقلاء:

١ ـ لجهالتهم فقد اعتقدوا أن الدعوة لعبادة الله وحده دون سواه هي رغبة شخصية من الرسل لتحويلهم عما كان يعبد آباؤهم، ولم يسألوا أنفسهم لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٦٤).
(٢) تفسير الطبري (١٦/٥٣٧).
(٣) تفسير السعدي (٤٢٢).

٢ ـ لأنهم لم يفكروا بحقيقة ما كان يعبد آباؤهم؟ وسألوا خارقة ترغمهم على التصديق.

٣ ـ لأنهم سألوا أنبياءهم أن يأتوا بحجة محسوسة تثبت أن الله تعالى اختارهم للرسالة عنه وهم في الحقيقة قصدوا تعجيز وإفحام الرسل.

٤ ـ لأن هدف سؤالهم البينة هو التقليل من شأن الآيات الظاهرة والبينات الباهرة التي جاء بها الرسل بعدما جاءتهم المعجزات، والبراهين الدالة على صدق الرسل تعنتًا ولجاجًا(١).

٥ ـ لأن سؤالهم جاء مكابرة وعنادًا، ليبينوا لمن جاء بعدهم أن ما جاء به الرسل ليس من جنس ما يطلق عليه السلطان المبين(٢).

مدى تحقيق السؤال لغرضهم: لم يحقق السؤال غرضهم فيما قصدوه من تعجيز وإفحام الرسل ومن التقليل من شأن الآيات التي جاؤوهم بها.

موقف القرآن من غرضهم هذا:

- ❑ دفع ما توهمه المكذبون من كون المماثلة لهم في البشرية تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة.
- ❑ بيّن أن بشرية الرسل لا تقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين فهم جاؤوا لإبطال دين قومهم وهو مضمون ما أرسلوا به(٣).
- ❑ وأن الذين يسألون المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا على الرسل، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

الموضع السابع: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

---

(١) الكشاف (٦٣٤/١)، تفسير النسفي (١١٦/٢)، التحرير والتنوير (٤١١/٧).
(٢) تفسير أبي السعود (٢٢/٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢٦٨/١).

أدلة كونه غرضًا لأسئلة الأقوام: جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧] ما يدل على أن غرضهم طلب الحجج والبينات:

- قال ابن جرير: «هلا أنزل على محمد ﷺ آية من ربّه! يعنون علامةً له على نبوّته»[١].
- وقال الماوردي: «يعني آية تكون دليلًا على صدقه وصحة نبوته»[٢].
- وقال ابن كثير: «أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون»[٣].

التحقق من عقلانية غرضهم من هذا السؤال:

غرضهم هذا غير صحيح ولا يقصده العقلاء: لأن في سؤالهم إنزال آية تعنتًا وجهلًا بقدرة الله تعالى، فقد جاءهم محمد ﷺ بآيات كثيرة مقنعة[٤]، ولأن سؤالهم آية يدركونها من غير تفكر، هو خلاف الحكمة[٥]، ولأن غرضهم من سؤالهم هو الطعن في كون القرآن معجزًا.

مدى تحقيق السؤال لغرضهم:

لم يحقق السؤال غرضهم من الطعن في القرآن وفيما جاء به محمد ﷺ من المعجزات.

موقف القرآن من غرضهم هذا:

لم يجبهم، إنما ردّ الله عليهم على لسان نبيّه أن يقول لهم على سبيل التوبيخ والترقيع: إنه قادر على إنزال ما اقترحوه من آيات ولكنه

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٣٥٣).
(٢) النكت والعيون (١/٤٠٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/١٧٨).
(٤) تفسير البحر المحيط (٥/١٣٤).
(٥) البحر المديد (٢/١٤٢).

ينزلها على حسب ما تقضيه حكمته وهم لجهلهم وعنادهم لا يعلمون شيئًا من حكم الله في أفعاله ولا من سننه في خلقه[(١)].

وهو من الأهداف التي قصدها فرعون وقومه من توجيه الأسئلة إلى موسى عليه السلام.

الكشف لغة: بمعنى الرفع[(٢)]. والمراد بكشف العذاب وإزالته هنا: رفع العذاب الواقع على فرعون وقومه خوفًا من الهلاك مع الإصرار خفية على الكفر والطغيان.

وقد ورد ذلك في موضعين من القرآن:

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

الموضع التاسع: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

في كلا الموضعين جاء غرض فرعون وقومه من سؤالهم كشف العذاب وإزالته.

أدلة كون هذا الأمر غرضًا لأسئلة الأقوام: جاء ذكر غرضهم صريحًا في الموضع الأول: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ...﴾ [الأعراف: ١٣٤] وجاء مضمرًا في الموضع الثاني: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

وفسر العلماء ذلك بمعنى كشف العذاب، قال مجاهد: «لئن آمنا ليكشفن عنا العذاب»، وقال السمرقندي: «يا أيها العالم سل لنا ربك ليكشف عنا العذاب، ونؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل»[(٣)].

---

(١) تفسير البحر المحيط (١٣٤/٥).

(٢) المحيط في اللغة (٢٦/٢)، لسان العرب (٣٠٠/٩).

(٣) تفسير الطبري (٦١٥/٢١).

التحقق من عقلانية غرضهم من هذا السؤال:

غرضهم هذا صحيح ويقصده العقلاء للأسباب التالية:

١ ـ علمهم أن الله تعالى هو القادر على كشف العذاب وإزالته. قال ابن عاشور: «علموا أن رب موسى قادر، وأن بينه وبين موسى عهدًا يقتضي استجابة سؤله»[١].

٢ ـ علمهم بمنزلة موسى عليه السلام، فهم لم يسألوا الله مباشرة لأنهم علموا منزلة موسى عند ربه، فقصدوه في سؤالهم كشف العذاب عنهم.

قال الألوسي: «﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي بعهده سبحانه عندك وهو النبوة وسميت النبوة عهدًا لأن الله تعالى عهد إكرام الأنبياء عليهم السلام بها وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو بالذي عهد إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك»[٢].

٣ ـ خوفهم من الهلاك. قال سيد طنطاوي: «يا موسى ادع لنا ربك، واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لإنقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب»[٣].

مدى تحقيق السؤال لغرضهم:

حقق السؤال غرضهم فكشف الله عنهم العذاب فلم يبق لهم عذر في كفرهم.

موقف القرآن من غرضهم:

ذكر أن رؤية العذاب لفرعون وقومه كانت من أسباب الهداية والنجاة، وانكشاف العذاب عنهم نفعهم مؤقتًا، وكان شاهدًا عليهم إن جحدوا، ولكنهم صدوا فاستحقوا بذلك الهلاك[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٢٢٤).

(٢) تفسير الألوسي (٦/٣٢٤).

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٦٧٦).

(٤) تفسير الطبري (١٥/٢٠٥)، استخراج الجدال من القرآن الكريم (١/١٧).

كان من الأهداف التي قصدها المؤمنون عامة من توجيه أسئلتهم إلى محمد ﷺ تثبيتهم على عقيدة الإيمان بالله واليقين بنصره لكنها كانت لطائفة أخرى في قلوبهم مرض سبب هم وغم كما بين القرآن الكريم.

التثبيت لغة: مصدر فعل ثبَّت، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هُود: ١٢٠] فتثبيت القلب بمعنى تسكينه[١]. **والمراد بالتثبيت هنا**: تثبيت المؤمنين على عقيدة الإيمان، واليقين بالله وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه[٢].

الموضع العاشر: وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٢٠].

في هذه الآية كان غرض المؤمنين المخلصين من طلب إنزال سورة هو الحرص على الجهاد الذي يحقق لهم أمنيتهم في ظهور الإسلام، بقتال العدو والثبات عند ملاقاته، فكاونوا يأنسون بالوحي، ويستوحشون إذا أبطأ، وكان المنافقون على العكس من ذلك في سرهم[٣].

التحقق من عقلانية غرضهم من سؤالهم: وغرضهم هذا صحيح ويقصده العقلاء للأسباب التالية:

١ ـ دلالة سياق الآيات بوصف السائلين بالإيمان. قال ابن جرير: «ويقول الذين صدّقوا الله ورسوله: هلا نزلت سورة من الله تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار»[٤].

٢ ـ دلالة أسباب النزول. قال ابن جريج: «كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه»[٥].

---

(١) لسان العرب (١٩/٢).
(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها (٣٨٨/١).
(٣) تفسير ابن كثير (٣١٨/٧)، تفسير الألوسي (١٤٤/١٩).
(٤) تفسير الطبري (١٧٥/٢٢).
(٥) تفسير الألوسي (١٤٤/١٩).

٣ - في تحقيق هذا الغرض مقابلة بين حالي الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين، فالمؤمنون الخُلّص يحبون الجهاد في سبيل الله ويثبتون عند لقاء العدو رجاء إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما النصر والثواب الجزيل من الله، وعلى النقيض من ذلك من آمنوا بظاهر حالهم، فهم يكرهون القتال ويجبنون عند ملاقاة العدو، ويتزلزلون زلزالًا شديدًا فهم لا يرجون نصرًا ولا ثوابًا من الله[١].

مدى تحقق غرضهم من هذا السؤال: المتأمل في سؤال المؤمنين يجد أنه تحقق غرضهم، فازدادوا ثباتًا وميلًا إلى ما عند الله من الأجر والمثوبة، وأما المنافقون، فلم يتحقق غرضهم، فما زادهم إلا فزعًا، ورعبًا، وجبنًا من لقاء الأعداء، أو الموت[٢].

موقف القرآن من غرضهم:

فضح المنافقين الذين كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون: لولا نزلت سورة تأمرهم بالجهاد، وتثبتهم عند ملاقاة العدو، فلما أنزلت وأمِروا فيها بما تمنوا، وحرصوا عليه، شق عليهم الأمر، ودخلهم الخوف والرعب من القتال[٣].



(١) التحرير والتنوير (١٣/٤١٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/٣١٨).
(٣) الكشاف (٤/٣٢٧).



الفصل الثالث

موقف القرآن الكريم من سؤالات الأقوام

وفيه تمهيد وتسعة مباحث:

المبحث الأول: التذكير بنعمة الله عليهم.

المبحث الثاني: الأقوام بين الإنعام والإعراض.

المبحث الثالث: عاقبة السؤالات على أصحابها.

المبحث الرابع: مواجهة الأقوام بما كانوا عليه من انحراف وجحود.

المبحث الخامس: تكذيب الدعاوى العريضة وتقرير ما يضادها.

المبحث السادس: بعث الرسل الحكم والمقاصد.

المبحث السابع: عاقبة السؤالات على أصحابها.

المبحث الثامن: بيان جهالة الأقوام حين تلقيهم دعوة الرسل.

المبحث التاسع: سؤالات الأقوام بين الوقوع والتّوقّع.



تمهيد

المتأمل في مواقف القرآن من سؤالات الأقوام لأنبيائهم، يجد أنها تشتمل على مواقف عديدة تناسب حال السائلين، ومن شابههم في كل زمان ومكان ولقد حرص القرآن الكريم وهو يجيب عن هذه الأسئلة أن يدعو أهلها إلى الهداية وترك هذا السبيل الذي سلكوه كما حرص القرآن الكريم على أن يُقوّي موقف الأنبياء وأتباعهم ويثبت الإيمان في قلوبهم وهي كلها تؤدي الغرض نفسه في عصرنا الحاضر إزاء تعدد المواقف سواء من كان وارثًا لأصحاب الأسئلة أو كان متابعًا للنبي ﷺ وصحبه.

والموقف: مصدر ميمي من فعل وقف وهو ردود أفعال الفرد تجاه شيء معين، والمراد هنا ردود أفعال الأقوام تجاه دعوة أنبيائهم باختلاق الحجج للتنصل من الدخول في الدين.

وهذه المواقف لا تخلو من عناصر مشتركة بين الأقوام، وأرى أن في دراستها إعانة للدعاة على النجاح في دعوتهم، إذا أفادوا من موقف القرآن باستعمال الأساليب المؤثرة الناجحة التي استخدمها الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كخلو تلك المواقف من التكلف، والابتعاد عن التعقيدات.



المبحث الأول

التذكير بنعمة الله عليهم

كان التذكير بنعمة الله على الأقوام من مواقف القرآن تجاه أسئلتهم لأنبيائهم وقبل البدء بالكلام عن هذا المبحث سنتناول التعريف به:

التذكير لغة: مصدر فعل ذكّر، والتذكير الرجوع عن المحذور والتنبيه أو الامتنان بما أنعم الله على عباده من نعم محسوسة[١].

والنعمة لغة: هي المنفعة التي يقصد فاعلها الإحسان إلى غيره، وجمعها نِعم[٢]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البَقَرَة: ٢١١].

والمراد بالتذكير بنعمة الله عليهم هنا: إرشاد الأنبياء لأقوامهم إلى شكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم به عليهم من مال وعيش[٣]، وسمع وبصر، وغيرها من النعم التي لا يمكن لأحد أن يعطيهم إياها سواه ولن تدوم ولا يطلب المزيد منها إلا بمعرفة الحق واتباعه ومعرفة الباطل واجتنابه، وترك سؤال ما لا حاجة لهم به[٤].

(١) العين (٤٣٧/١)، فتح القدير (١٢٤/٦).
(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٢٧٠/١)، التحرير والتنوير (٣٥٧/٥).
(٣) مقاييس اللغة (٣٥٧/٥).
(٤) فتح القدير (١٢٤/٦).

وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: ١١٥].

❑ قال ابن جرير: «فقال تعالى ذكره: إني منزلها عليكم، أيها الحواريون، فمطعمكموها ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ﴾ يقول: فمن يجحد بعد إنزالها عليكم، رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيي عيسى عليه السلام، ويخالفْ طاعتي فيما أمرته ونهيته ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، من عالمي زمانه»[(١)].

موقف عيسى عليه السلام من إنزال المائدة: في بادىء الأمر لم يستجب لهم، ولم يسأل ربه إنزال مائدة لأن ظاهر السؤال فيه سوء أدب معه عليه السلام، لكنه لم يخرجه سؤال الحواريين عن توازنه فلم يغلظ عليهم بالرد، بل ردهم إلى تقوى الله محبة لهم، وشفقة عليهم، وخوفًا عليهم من الفتنة فقد أوتي من العلم ما لم يعطوا، فلما تبين له صحة ما كان يظنه فسادًا في الحواريين[(٢)]، استجاب لطلبهم.

الحكمة من وقوف عيسى عليه السلام هذا الموقف: لما تبين له صحة مقاصد الحواريين استجاب لسؤالهم، فدعا ربه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المَائدة: ١١٤].

استجابة الله لدعاء عيسى عليه السلام: استجاب الله له بإنزال المائدة، وأمر الحواريين أن يشكروه عليها ولا يقابلوها بالكفر والجحود والنكران، وذلك بتهديدهم وتوعدهم إن كفروا بعد ذلك بالعذاب الشديد، فسنة الله عز وجل في عباده إذا أنعم عليهم نعمة بعد الإلحاح في السؤال، ثم جحدوها، أنزل بهم العذاب الأليم، ووقف سبحانه من الحواريين هذا الموقف

---

(١) تفسير الطبري (١١/٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢/٤٤٥).

بعد إنزال المائدة من التهديد والوعيد، حتى لا تحل بهم العقوبة بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: ١١٥].

أسباب استجابة الله دعاء عيسى عليه السلام في إنزال المائدة:

١ ـ أن طلب إنزال المائدة جاء من أنصاره عليه السلام من الحواريين، وهم المؤمنون الذين امتدحهم الله في سياق الآيات السابقة لسؤالهم؛ كما في قوله تعالى عنهم مع عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٢].

٢ ـ أن في إنزال المائدة تكريمًا لعيسى عليه السلام عند ربه من علو الدرجة والمنزلة، وإظهار معجزة له تضاف إلى معجزاته الأخرى.

٣ ـ إظهار لنعمة من النعم التي أكرم الله بها الحواريين من إنزال مائدة من السماء، وعبّر عن مجيء المائدة بالإنزال لتذكيرهم بأنها نعمة عظيمة ومنحة رفيعة، ونعمة شريفة، آتية من مكان عال مرتفع(١).

تضمن ما تقدم إرشادات للدعاة يحسن بهم مراعاتها وهي:

١ ـ أن يتصف الداعية بالثبات والحِلم الذي لا يخرجه عن توازنه؛ كموقف عيسى عليه السلام، فهو لم يخرجه سؤال الحواريين عن توازنه، بل ردهم إلى تقوى الله تعالى.

٢ ـ أن يظهر حاجته في سؤاله مع التقرب إليه بأسمائه الحسنى والإخلاص له بالدعاء.

٣ ـ أن يستعمل الداعية أسلوب التذكير بنعم الله، في دعوته الناس إلى عبادة الله والتقيد بشرعه، والحث على استخدام ما آتاهم الله من مال

---

(١) تفسير الطبري (٢١٨/١١)، تفسير ابن كثير (٢٢٥/٣)، حوارات الأقوام مع أنبيائهم (٥٧٣).

ونعمة فيما يرضي الله تعالى، والتحذير من كفر النعم باستخدامها فيما يسخطه[١].

٤ ـ الإشارة إلى إظهار مدى الفرق بين أصحاب محمد ﷺ وأصحاب عيسى عليه السلام، فأصحاب عيسى جاء سؤالهم إنزال مائدة بعد مشاهدتهم معجزات عيسى الخارقة للعادة، كخلقه الطير بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وأما أصحاب محمد ﷺ فلم يسألوه خارقة واحدة بعد إسلامهم، فقد آمنت قلوبهم، وصدقت وشهدوا لمحمد ﷺ بالنبوّة والرسالة بغير برهان، ولا معجزة، إلا هذا القرآن الكريم قالوا: «سمعنا وأطعنا فرضي الله عنهم»[٢].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٦، ٥٧].

في هاتين الآيتين تذكير بني إسرائيل المعاصرين لمحمد ﷺ بنعمة الله على أسلافهم من اليهود الذين سألوا موسى رؤية الله، فأخذهم الموت بالصاعقة عقوبة لهم ثم أحياهم، وظللهم بالسحاب، وأنزل عليهم المن والسلوى، قال ابن كثير: «يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتم رؤيتي جهرة عيانًا، وهذا ما لا يُستطاع لكم ولا لأمثالكم»[٣].

وفي تفسير المن[٤]، قال ابن كثير: «والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره

(١) المستفاد من قصص القرآن الكريم (١/١٩٠).
(٢) حوارات الأقوام (٦٨٥).
(٣) تفسير ابن كثير (١/٢٦٤).
(٤) تفسير الطبري (٢/٩٤)، تفسير ابن أبي حاتم (١/١٤٣، ٥٥٣).

بالشراب، والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتنّ الله به عليهم من طعام وشراب»[١]، والسلوى طائر، وقال بعضهم: السماني[٢]. والأقوال تتفق على أنها نعمة منزلة من السماء أنعمها الله، وامتن بها على عباده.

يبدو أن الحكمة من ذكر القرآن لهذا الموقف تتجلى في الهدايات التالية:

- ❑ في مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن وتذكيرهم بالنعم التي أنعم الله بها على أصولهم، دليل على وحدة الأمة[٣]، وأن السعادة والشقاوة تعم الأصول والفروع[٤].
- ❑ إحياء بني إسرائيل بعد موتهم استجابة لدعاء موسى عليه السلام وشفاعته معجزة خارقة تضاف إلى معجزاته عليه السلام تكريمًا له من الله سبحانه وتعالى.
- ❑ في تذكير الله بني إسرائيل المعاصرين للرسول ﷺ بنعمه على أسلافهم حث لهم على الشكر وتحذير لهم من الكفر.
- ❑ إذا أنعم الله على عباده بنعمة ينبغي أن يتبسطوا بها، ولا يحرموا أنفسهم من التنعم بها، ويقابلوها بالشكر والامتنان لله الواحد المنان.

أسباب جزاء الله لهم:

لم يهلكهم بعذاب الاستئصال لأن السائلين فيما يظهر هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام من صالح بني إسرائيل، فقد يكون ذلك كرامة لهم من بعد تأديبهم؛ فالعقاب الدنيوي ينال الصالحين تمحيصًا لذنوبهم حيث بعثوا لبقية آجالهم[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٦٨).
(٢) تفسير الطبري (٢/٩٤)، تفسير ابن أبي حاتم (١/١٤٣، ٥٥٣)، زاد المسير (١/٦٨).
(٣) صفوة الآثار (٩/٥٢٩).
(٤) التفسير المنير (١/١٨٥).
(٥) تفسير الطبري (٢/٢٨٩)، تفسير ابن كثير (١/٢٦٤).

دروس للدعاة إلى الله:

١ - يحسن بالداعية أن يخاطب أمة محمد ﷺ، ويُذكِّرَهم بالنعم التي أنعمها الله على محمد ﷺ والصحابة، وأن ما عم أولها يعم آخرها؛ كما ذكَّرَ الله اليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ بنعمه على أسلافهم.

٢ - إن في عرض موقف القرآن الكريم مع بني إسرائيل زادًا للدعاة إلى الله كي يتحملوا المتاعب، ويصبروا على الالتواءات والانحرافات، وثقل الطبائع، وتوقع الانتكاس المفاجىء.

٣ - يحسن بالداعية أن يبين للناس أن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبد بنعمه المباحة، فلا ينبغي أن يتعفف عنها أو يحرم نفسه منها وما عليه إلا الشكر بالقلب واللسان والجوارح.

٤ - يستفيد الداعية من هذا الموقف التنوع في الأسلوب تجاه الخصم بالانتقال من ضمير المخاطبة إلى ضمير الغيبة بقصد التعريض بحال أهل التعنت والعناد والمكابرة، وأنهم ليسوا مستفيدين من ضلالهم وغير مقرين بظلمهم لأنفسهم.

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤٠، ١٤١].

تذكير موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعم الله عليهم لمَّا سألوه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه مثل القوم الذين مروا عليهم وهم عاكفون على أصنام لهم:

❑ قال ابن كثير: «يذكِّرهم موسى عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره»[١].

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٦٨).

تذكير موسى لهم بنعة الله عليهم:

١ ـ كشف لهم فساد ما طلبوه في ذاته، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٣٩].

٢ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى من عكفوا على الأصنام ممن أراد بنو إسرائيل تقليدهم في عبادة الأوثان، فهؤلاء القوم محكوم على ما هم فيه بالدمار، وعلى عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد هو الظاهر، وستصير العبادة لله الواحد القهار.

٣ ـ استمر موسى عليه السلام في استنكاره سؤالهم ببيان أن الله وحده هو المستحق للعبادة[(١)]، فقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعرَاف: ١٤٠] ثم ذكَّرَ موسى بني إسرائيل بفضلهم على العالمين، فكأنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان، والقبط، وسائر أمم بني آدم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعرَاف: ١٤٠] فبنو إسرائيل أجدر الناس بعبادة الله الذي منحهم نعمة الحياة والإنقاذ والعزة وهم أولى من غيرهم بشكر تلك النعم[(٢)].

الحكمة من ذكر القرآن الكريم هذا الموقف: إبراز مخالفة سؤالهم ما جاء به الرسل عامة، وموسى خاصة، فدعوتهم واحدة في إفراد الله بالعبادة، لأنه لا جهل أعظم من ذلك فهم جهلوا مقام التوحيد، وما يجب من إفراد الله بالعبادة بلا واسطة من إنسان أو مادة، حيث جهلوا عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل[(٣)].

على الداعية إلى الله تعالى أن يراعي الإرشادات التالية والتي دلت عليها الآيات المتقدمة:

١ ـ أن يتخذ موقفًا كموقف موسى عليه السلام في قوة شخصيته وغضبه غيرة

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٦٨١).

(٢) التفسير المنير (٥/٨٠).

(٣) تفسير الرازي (١٤/٢٢٣)، التفسير المنير (٨١٥).

على انتهاك حق من حقوق الله، وجرأته في قول الحق، ثم استخدام أسلوب التوبيخ والتعجب من هذا السؤال كوصفهم بالجهل، وتذكيرهم بنعم الله عليهم؛ وتبيين سوء حالهم.

٢ - الاستمرار في إنكار المنكر من غير ملل، ولا يأس أيًا كان نوعه؛ من أجل تحقيق هدف واحد، وهو أن الله وحده هو المستحق للعبادة.

٣ - تذكير المؤمنين أن يشكروا نعمة الله، وأن لا يكونوا مثل بني إسرائيل.

٤ - أنه مع شناعة طلب المتعنتين يحسن استخدام الألفاظ التي تنصح وتناسب الرد عليهم.

٥ - أن يُذَكِّرَ الناس بأيام الله خيرها وشرها لاستجلاب الموعظة للناس لعلهم يتوبون[١].

٦ - أن يكشف، عند طلب الخصم منكرًا، عن سوء طلبه، وأن يصارح بأن سؤاله مهلك.



(١) التحرير والتنوير (٥/٤٤٣).

المبحث الثاني

الأقوام بين الإنعام والإعراض

من مواقف القرآن الكريم بيان مسالك أولئك الأقوام بعد الإفضال والإنعام، والإفضال هو الإحسان، والزيادة والخير من الله سبحانه وتعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [النَّمل: ٧٣] أي لذو إفضال وإنعام على الناس كافة[١]. والإنعام هو ما أعطى الله عباده من نِعَم، لا يمكن لأحد من البشر أن يعطيها إياهم[٢]، والمراد هنا: بيان موقف أولئك الأقوام بعد إظهار فضل الله تعالى وإنعامه عليهم، وكان من أهم مسالكهم تجاه ذلك:

١ ـ الإعراض والتفريط.

٢ ـ كثرة التردد والإفراط.

أولًا: مسلك الإعراض والتفريط

الإعراض لغة: مصدر فعل أعرض، وهو بمعنى صد[٣]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٠٥).

(٢) الصحاح في اللغة (٢/٤٦)، تفسير الخازن (١/٢٩٤).

(٣) مفردات القرآن (١/٩٦٨).

والمراد هنا: صدود وإعراض الأقوام عن دعوة أنبيائهم، وما جاؤوا به من البينات على وجه الإنكار والكفر بهم[١].

التفريط لغة: مصدر فعل فرّط، وفرط في الأمر: أي قصّر فيه وضيعه حتى فات[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٦]. والمراد هنا: تقصير الأقوام في أداء واجب الطاعة، وفي أداء الحقوق، فيضيع الخير والنفع عليهم[٣].

وقد ورد تذكير الأنبياء لأقوامهم بنعم الله عليهم في مواضع من القرآن الكريم، ومن ذلك:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

في هذه الآية تذكير شعيب عليه السلام لقومه بنعم وأفضال الله عليهم فقد استخدم في دعوته عددًا من الأساليب التي تؤثر على نفوس المدعوين، ويكون لها أبلغ الأثر في استجابتهم لدعوته، إذ جمع في دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب فذكرهم ببعض نعم الله عليهم، وما تقتضيه من الشكر لتبقى لهم وليزيدها الله عليهم[٤].

مسلك قوم شعيب بعد تذكيرهم بأفضال الله ونعمه عليهم، هو الإعراض والتفريط.

وجاء إعراضهم وتفريطهم بعدة صور في القرآن الكريم منها:

- تهديدهم له بالإخراج من قريتهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

---

(١) تفسير السعدي (٥١٥)، أيسر التفاسير (٢/٤٥٨).

(٢) الصحاح في اللغة (٢/٤٠).

(٣) تفسير الطبري (١١/٤١٢)، معجم لغة الفقهاء (١/١٣٨).

(٤) الوجيز للواحدي (١/٤٠٢)، الوسيط (١/١٦٤٦)، المستفاد من قصص القرآن (١/٢٤٠).

- استهزاؤهم به؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هُود: ٨٧] وهم بذلك قصدوا عكس معناها، قال ابن جرير: «قالوا ذلك له استهزاءً به»[١] فالحلم والرشد عندهم أن يعبد معهم ما كان يعبد أباؤهم بلا تكفير لهم[٢].

- تهديدهم له بالرجم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هُود: ٩١].

- زعمهم أنه مسحور، ثم استبعادهم أن يكون رسول الله بشرًا، ثم اتهامهم له بالكذب، ثم بلغت قمة إعراضهم وتفريطهم أن سألوه إسقاط قطع من السماء، أو إنزال عذاب من السماء لإثبات صدق نبوته ورسالته؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٥ ـ ١٨٧][٣] وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا السؤال لا يرقى إلى أن يكون سؤالًا حقيقيًا يقصد فيه الاستفهام، إنما يتضمن ما قد يُفهم أنه تحد، واستبعاد للوعيد وهذا ما اقتضى التنويه.

موقف شعيب عليه السلام من إعراض وتفريط قومه بسؤالهم إسقاط الكسف:

أولًا: أخبر القرآن الكريم عن موقف شعيب عليه السلام من هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٨]. لما سمع شعيب عليه السلام سؤالهم خوفهم من الله، وأنه سبحانه قد أحاط بأعمالهم فلا يخفى عليه شيء منها وكل سيُجزى بما عمل[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٤٥٢).
(٢) المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٤٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير السعدي (٥٩٧).

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوا، جزاءً وفاقًا»[١].
وقال الرازي: «فلم يدع عليهم بل فوض الأمر فيهم إلى الله تعالى»[٢].

ثانيًا: مجازاة الله تعالى لقوم شعيب:

استجاب الله لهم لكون الإعراض والتفريط صار لهم سمة بحيث لا تفيد فيهم دعوة ولا موعظة ولا آيات معجزة فليس لهم إلا نزول العذاب فأنزل الله عليهم العذاب كما سألوه[٣]، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى بمجازاته لهم على تكذيبهم إعراضًا وتفريطًا: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٩].

قال الرازي: «فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلة»[٤].

الحكمة من تذكير شعيب عليه السلام لقومه بإنعام الله وإفضاله عليهم:

١ - أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقادوا وأطاعوا الله ورسوله، وابتعدوا عن المعصية[٥].

٢ - حثّ لهم على الرضا بما امتنّ الله عليهم من النعم، والاكتفاء بحلاله عن حرامه من غير تطلع وتطاول إلى ما عند الناس.

الحكمة من مجازاة الله سبحانه لهم بذلك:

١ - أنهم لم يكن غرضهم من سؤالهم إسقاط الكسف هو الإيمان، وإنما كان الجحود والتكذيب والعناد إعراضًا وتفريطًا[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٦٠).
(٢) تفسير الرازي (١١/٤٩٩).
(٣) تفسير السعدي (٥٩٧).
(٤) تفسير الرازي (١١/٤٩٩).
(٥) تفسير الرازي (٧/١٨٥).
(٦) الكشاف (٥/٤٠٦)، تفسير البحر المحيط (٨/٤٢٨)، حوارات الأقوام (٤٤٢).

٢ ـ أخذ العظة والعبرة لمن يأتي بعد هؤلاء القوم الجاحدين، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨].

وقال الحميدي: «إن تعذيبنا قوم شعيب عذاب يوم الظلة بتكذيبهم نبيهم فيه عظة لقومك يا محمد بأخذ الحيطة والحذر من أن يصيبهم ما أصاب أصحاب الأيكة»[١].

٣ ـ تسلية محمد ﷺ أن لا يضيق صدره ممن لم يؤمن من قومه، لأن هؤلاء الذين لم يؤمنوا قد سبق عليهم الشقاء والكفر في علم الله، فلم تنفعهم العظات وحسن الخطاب.

أسباب جزاء الله لهم:

١ ـ تكذيبهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر إعراضًا وتفريطًا.

٢ ـ أن يكون هذا الجزاء دليلًا على صدق شعيب وصحة دعوته، وبطلان رد قومه عليه[٢].

٣ ـ أن يكون فيه موعظة ونكالٌ لمن بعدهم.

كشف هذا السؤال والجواب عنه، عن معالم قرآنية تنير طريق الدعاة ومنها:

١ ـ تنبيه للدعاة أنهم مهما بلغوا من العلم، والمعرفة، والاستقامة، فهم قاصرون، وقدراتهم محدودة في تغيير المنكر، وفي استجابة المدعوين لهم والانقياد لله بالطاعات، فعلى الداعية التبليغ والالتجاء إلى الله بالدعاء لهم وتفويض أمرهم إلى الله تعالى.

٢ ـ حاجة الداعية إلى الله ﷻ إلى الحِلم، وحسن الخلق، ومقابلة الإساءة بالإحسان وأن لا يصده ولا يمنعه أذى الخلق عن شيء من دعوته إلى الله.

---

(١) حوارات الأقوام (٤٤٢).

(٢) تفسير السعدي (٥٩٧).

٣- أن يعلم الدعاة أن كثيرًا من الناس لا يؤمنون بعد سماعهم داعي الحق ولا يعتبرون، فلا يأسوا على من لم يؤمن منهم، وإنما عليهم البلاغ والدعاء لهم بالهداية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨].

الموضع الثاني: تذكير موسى لبني إسرائيل بإفضال الله وإنعامه عليهم.

كان في سياق الآيات السابقة لسؤال بني إسرائيل أن يذهب موسى، وربه للقتال تذكير منه عليه السلام لبني إسرائيل بإفضال الله وإنعامه عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: ٢٠]. أي اذكر يا محمد ليهود المدينة تذكير موسى عليه السلام لآبائهم وأسلافهم بنعم الله عليهم وتلقيهم تلك النعم بالكفر والعصيان. وجاء تذكير محمد ﷺ لهم على جهة إعلامهم بما في كتبهم ليتحققوا من نبوته[١].

وذكر القرآن الكريم في هذا الموضع تذكير موسى لبني إسرائيل بثلاث نعم أنعم الله بها عليهم.

الإنعام الأول: بتتابع الأنبياء فيهم في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ قال ابن جرير: «فقال لهم: اذكروا نعمة الله عليكم أن فضّلكم، بأن جعل فيكم أنبياء يأتونكم بوحيه، ويخبرونكم بأنباء الغيب، ولم يعط ذلك غيركم في زمانكم هذا»[٢].

الإنعام الثاني: بتتابع الملوك فيهم في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

قال الدوسري: «أي أحرارًا بعد ما كنتم أرقاء؛ فليس المقصود بالملك هنا السلطنة وإنما هو الحرية التي نعموا فيها براحة البال ورفع الظلم والتحكم عنهم»[٣].

---

(١) صفوة الآثار (٣٦٦/٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦٠/١٠).

(٣) صفوة الآثار (٣٦٦/٨).

والذي يظهر لنا أنه يضاف إلى ما سبق لبني إسرائيل من النعم ما يلي:

١ ـ نعمة الملك التي هي السلطنة في الأرض، بدلالة ظاهر الآية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المَائدة: ٢٠] لمن جاء قبل موسى عليه السلام من بني إسرائيل كيوسف عليه السلام فقد مكن الله له في أرض مصر، كما في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٥٦][(١)].

٢ ـ نعمة ملك الأموال، والأراضي، والبساتين التي كانت ملكًا لفرعون وقومه؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٧ ـ ٥٩].

٣ ـ وأنعم الله بالملك أيضًا على من جاء من بعدهم من بني إسرائيل كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧]، ثم تتابع عليهم الملوك منهم داود وسليمان عليهما السلام.

الإنعام الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المَائدة: ٢٠] والمقصود بتلك النعم كالتي ذكرت في سورة البقرة من إنجائهم من فرعون، وإنزال التوراة وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم[(٢)].

وبعد ذلك أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومسكن المؤمنين التي كتبها الله لهم[(٣)] كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المَائدة: ٢١].

---

(١) المستفاد من قصص القرآن (١/٢٧٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٤٢).

(٣) تفسير الطبري (١٠/١٦٨)، صفوة الآثار (٨/٣٦٦).

مسلك قوم موسى عليه السلام بعد الإفضال والإنعام:

كان مسلكهم تجاه إفضال الله وإنعامه عليهم هو التقصير، والتلكؤ في تنفيذ الأوامر، ونقض العهود، والكفر بالنعم التي أنعم الله بها عليهم ويظهر سوء مسلكهم في عدة صور:

الصورة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المَائدة: ٢٢] لما كان الأمر بدخول الأرض المقدسة يحتاج إلى جهاد ومجالدة للعدو، فقد أبوا الاستجابة إلى ما أمرهم به جبنًا منهم، وخوفًا من الموت وحبًا للحياة الدنيا فهم أحرص الناس على حياة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البَقَرَة: ٩٦]، فاختلقوا المعاذير بأن قالوا إن في الأرض المقدسة التي تأمرنا بدخولها قومًا عتاة أشداء في بطشهم عظماء في خلقتهم ولا طاقة لنا بحربهم ومنازعتهم الأرض والمناصب. فاتخذوا هذا مبررًا لعدم دخولهم الأرض المقدسة، فهم بذلك لم يبذلوا أي جهد أو محاولة لتنفيذ ما أمرهم به، فجبلة اليهود تبدو على حقيقتها مكشوفة، فهم أمام خطر ماثل قريب لا يستطيعون بسببه التجمل بمحاولة تنفيذ ما أمرهم به موسى عليه السلام، فاشترطوا عليه في تنفيذ أمره بدخول الأرض المقدسة أن يخرج منها هؤلاء الجبارون فهم لا يطيقون دخولها وهم فيها، وصرحوا بذلك بعد وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله قد كتبها لهم فهم يريدون نصرًا مريحًا رخيصًا لا ثمن له ولا جهد فيه يتنزل عليهم تَنَزُّلَ المن والسلوى[١].

وقد استثنى الله سبحانه من بني إسرائيل في نكولهم عن طاعة الله ومتابعة رسوله رجلين صالحين امتنّ الله عليهما بنعمه العظيمة، وهما يخافان أمر الله ويخشيان عقابه؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المَائدة: ٢٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٧١/١٠)، تفسير أبي السعود (٢٢١/٢)، حوارات الأقوام (٤٦٠).

فقال الرجلان لقومهما: اجتهدوا حتى تدخلوا باب مدينة الجبارين فيقع الرعب في قلوبهم فتغلبوهم، وحثّاهم على التوكل على الله إن كانوا مؤمنين ومقرين بوجود الله القادر على كل شيء، ومؤمنين بصحة نبوة موسى ﷺ، وجاء قول هذين الرجلين لأنهما شكّا في إيمان قومهما ورأياهم يعصون الرسول، ويجبنون مع وعد الله لهم بالنصر، وكان موقف بني إسرائيل تجاه هذين الرجلين أن عصوهما وأرادوا أن يرجموهما بالحجارة[١]. ولم يصرح القرآن الكريم باسميهما.

وجاء في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ [المَائدة: ٢٣] قراءتان: الأولى (يَخَافُونَ) أي يخافون الله، وأنعم عليهما بالإيمان الصحيح، ورباطة الجأش مع خوفهما. والثانية (يُخافون) تحتمل معنيين:

١ ـ أنهما من قوم موسى، لكنهما من الذين يُوقَّرون، ويُسمع كلامهم ويُهابون لتقواهم وفضلهم[٢].

٢ ـ أنهم من الذين يُخافون بأوامر الله، ووعيده وزجره، فيكون ذلك مدحًا لهم.

الصورة الثانية: في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المَائدة: ٢٤].

أجابوا إجابة تحمل قمة الإعراض والتفريط في تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى في دخولهم بيت المقدس غير مبالين بنصح الرجلين، ولا باحترام نبيهم، وقبل ذلك تعظيم الله سبحانه وتعالى وإجلاله بتوجيه السؤال إلى موسى ﷺ أن يذهب هو وربّه لقتال الجبابرة وطردهم منها، فهم بذلك صرحوا بعدم استعدادهم للخروج جبنًا وخورًا متخلفين عن القتال، وقالوا ذلك استهانة بالله وبرسوله وعدم مبالاة بهما، ومما ينبيء عنه غاية جهلهم

---

(١) تفسير البغوي (٣/٣٦)، المحرر الوجيز (٣/١٣٨)، تفسير الرازي (٦/٢٦)، تفسير القرطبي (٦/١٢٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/١٣٨).

وقسوة قلوبهم أن قصدوا ذهاب موسى وربه للقتال حقيقة[١]، فسؤالهم هذا وإن قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر، وإن قالوه على وجه التمرد فهو فسق منهم[٢]. وهو الراجح.

موقف موسى عليه السلام من إعراض قومه وتفريطهم بسؤالهم أن يذهب هو وربّه للقتال.

لما سمع موسى سؤالهم لم يلتفت إليهم، إنما لجأ إلى الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٥] فأظهر افتقاره إلى نصر الله وتأييده على هؤلاء المتمردين عن طاعته، ثم دعا عليهم دعوة فيها الألم والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، وإعلان الولاء الصادق بينه وبين أخيه هارون وإعلان البراءة من القوم الفاسقين[٣].

❑ ذكر القرطبي: أن من أسباب سؤال موسى عليه السلام أن يفرق الله بينه وأخيه وبين القوم الفاسقين في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ما يلي:

الأول: بعدهم عن الحق، والصواب فيما ارتكبوا من العصيان، ولذلك أُلقوا في التيه.

الثاني: التمييز بينهما وبين جماعتهما حتى لا يلحق بهما العقاب[٤].

مجازاة الله تعالى لقوم موسى عليه السلام:

تظهر في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٦]، فقد استجاب الله سبحانه وتعالى لنبيه الذي خذله قومه وقضى عليهم بالجزاء العادل

(١) حوارات الأقوام (٤٦٢).
(٢) تفسير الرازي (٦/٢٦).
(٣) تفسير الطبري (٦/١١٩)، تفسير أبي السعود (٣/٢٥)، حوارات الأقوام (٤٦٤).
(٤) تفسير القرطبي (٦/١٨٧).

المناسب لنكوصهم عن القتال، فحرَّم الله عليهم دخول الأرض المقدسة وضرب عليهم التيه[١].

الحكمة من وقوف موسى مع قومه هذا الموقف:

- أنه يُذكرهم بهذه النعم توطئة لقلوبهم وتشجيعًا لهم على قتال الجبارين، ليستيقنوا أن من أنعم الله عليه بهذه النعم يثق بالنصر، وأن الله لن يخذله أمام أعدائه مهما قويت شوكتهم، وإذا أخلصوا لله في القتال فسوف ينصرهم الله على عدوهم.
- وأنه يُذكرهم بذلك تهيئة لهم لتحمل المسؤولية، حتى يكونوا أهلًا للجهاد ومقاتلة الجبارين وجعلهم بذلك أئمة وارثين.

الحكمة من ذكر القرآن الكريم لهذا الموقف:

١ ـ تذكير اليهود المعاصرين للنبي ﷺ باختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، فهم مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعِبره ما تُثلَج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، ومع كل ذلك فهم يقولون له إذا دعوا إلى القتال: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»[٢].

٢ ـ بيان ما سبق لبني إسرائيل من نقض الميثاق، وبيان استمرارهم على ذلك برغم تلك النعم التي منَّ الله بها عليهم[٣].

٣ ـ إظهار جبن اليهود وسوء أدبهم مع ربهم وأنبيائهم.

٤ ـ تسلية الرسول ﷺ بإعلام الله تعالى له أن خبث اليهود وضعفهم وغلوهم في المنازعة مع أنبياء الله قد جبلوا عليها قديمًا وعانى منه أنبياؤهم[٤].

---

(١) تفسير الطبري (٢/٩٨)، الكشف والبيان (١/١٢٨)، تفسير البغوي (١/٩٢).

(٢) تفسير الطبري (٢/٨١).

(٣) حوارات الأقوام (٤٦٠).

(٤) أيسر التفاسير للجزائري (١/٣٤٢).

أسباب جزاء الله لهم:

- نقض العهود، والكفر بالنعم التي أنعم الله عليهم بها وهي توجب عليهم شكر الله.
- والحكمة من هذا الجزاء أن يموت في هذه المدة الذين قالوا هذه المقالة، وأن تظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على ما فيه ارتقاؤها وعلوها وتكون لهم همم عالية تسعى لقهر الأعداء وتنفر من الاستعباد والذل المانع من السعادة(١).

حين التأمل في دلالات ما تقدم تتكشف أمام الدعاة مسائل يحسن بهم أن يأخذوها بعين الاعتبار وهي:

١ - إن من سياسة الدعوة عند تكليف المدعوين بتكاليف لم يعتادوا عليها، وفيها نوع من المشقة، أن يخاطب الدعاة المدعوين بخطاب فيه رقة ولطافة وتشويق وحفز همم، فيملؤوا خطابهم بألمع الذكريات وأكبر الشخصيات الصالحة التي يعتدّون ويفخرون بها، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات، كما في خطاب موسى لقومه، فهو لما أراد أن يحاربوا ذكرهم بنعم الله(٢).

٢ - إذا واجه الداعية إعراض المدعوين عن دعوته لله مع بذله الأسباب من الإخلاص في القول والعمل واتخاذ الأساليب المتنوعة وداخله اليأس من استجابتهم فليفد من موقف موسى عليه السلام من نكوص قومه عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة بدعاء الله بالفصل بينه وبين القوم العصاة.

٣ - على الداعية أن يبيّن أنّ الرابطة الواجب التمسك بها هي رابطة الدين الإسلامي فقط ولا يجوز الارتباط ولا المؤاخاة بغيره، فرابطة النسب بموسى عليه السلام بعد اختلال دينهم لم تشفع لبني إسرائيل، بل دعا الله عليهم أن يفصل بينه وبينهم لفسوقهم.

---

(١) تفسير السعدي (٢٢٧).

(٢) حوارات الأقوام (٤٦٠).

٤ ـ أنه إذا اشتد عليه الأمر أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى وأن يبث شكواه إليه.

٥ ـ أنه أظهر التفاوت بين أمة محمد ﷺ وسائر الأمم، فلما استشارهم الرسول في القتال يوم بدر، أجابوه: يا رسول الله لو خضت بنا البحر لخضناه معك ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المَائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

٦ ـ أن يحاول الداعية تغيير أساليبه مع المدعو الذي يحاوره، فموسى عليه السلام استعمل أسلوب التلطف والمودة في بادىء الأمر، فناداهم يا قوم، ثم استخدم أسلوب الترغيب لهم ثم استنهضهم لشكر نعم الله عليهم، ثم استخدم أسلوب الترهيب الذي يؤثر في النفوس، ثم أسلوب إغرائهم بالأرض المقدسة إن استجابوا له.

ثانيًا: مسلك التردد والإفراط: وقد يلجأ الأقوام، بعد الإفضال والإنعام، إلى مسلك آخر، وهو كثرة التردد والإفراط.

والتردد لغة: هو مصدر فعل تردّد، وهو الشك والتحير في الأمر[1]. والمراد به هنا تحير وتلكؤ الأقوام في تنفيذ ما أمروا به بعد الاستجابة لسؤالاتهم واختلاق المعاذير والمبررات إما تعنتًا واستكبارًا أو تكذيبًا واستهزاءً بالرسل.

والإفراط لغة: الإعجال في الأمر قبل التثبت. وأفرط في أمره: عجل فيه وجاوز القدر[2]. والمراد هنا: استعجال الأقوام، ومجاوزتهم الحد في تكرار السؤال.

الفرق بين الإفراط والتفريط: هو أن الإفراط يستعمل في تجاوز

---

(١) معجم لغة الفقهاء (١٢٤/١).

(٢) العين (٩٨/٢).

الحد من جانب الزيادة، والتفريط يستعمل في تجاوز الحد من جانب النقصان والتقصير(١).

وقد ورد هذا التردد والإفراط في موضعين من القرآن الكريم:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧ ـ ٧١].

إفضال الله وإنعامه على بني إسرائيل:

- يظهر ذلك في قوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، وذلك باستجابة الله لهم في إحياء القتيل، وكان هذا التوجيه كافيًا لهم في التنفيذ والامتثال لأن الأمر صادر عن الله سبحانه وتعالى وليس من قِبل موسى عليه السلام(٢).
- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٢] أي قتلتم نفسًا محرمة فاختلفتم فيها فبين الله الحق بواسطة هذه البقرة التي ذبحت وذلك أن يضرب هذا القتيل ببعضها، فلما ضرب بعضوٍ منها نطق القتيل، وقال: الذي قتلني فلان، فبين الله تعالى ما كانوا يكتمون، وبعد إنعام الله وإفضاله عليهم ببيان قاتل القتيل الذي اختصموا فيه وقد كادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله من عليهم بما ذكر(٣).

---

(١) التعريفات (١/٩).

(٢) تفسير أبي السعود (١/١٤١)، حوارات الأقوام (٤٥٤).

(٣) تفسير أبي السعود (١/١١٣).

مسلك قوم موسى بعد إفضال الله وإنعامه عليهم:

١ ـ غلبت سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في عدم الاستجابة لما أمروا به، باختلاق المعاذير التي اتصف بها بنو إسرائيل وترددهم عن تنفيذ ما أمر الله به على لسان نبيه، فتمادوا إفراطًا وغلظة في سؤال أن يبين لهم صفات البقرة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٩، ٧٠].

٢ ـ ويتمثل هذا المسلك في سفاهة ردهم فاتهموه بأنه يسخر منهم ويستهزىء بهم كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] قالوا هذا لفرط استهزائهم واستبعادًا لما قاله واستخفافًا به[١]. وهذا القول منهم ظاهره فساد اعتقاد ممن قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقوله لنبي قد ظهرت معجزاته، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ﴾ [البَقَرَة: ٦٧].

٣ ـ ويتمثل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٧١] وهذا المسلك يدل على عدم تمكن الإيمان في نفوسهم، وإلا فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

مواقف موسى عليه السلام من تردد وإفراط قومه:

الموقف الأول: يظهر في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] أي ألتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل، والذين يجهلون حق البشر أو الذين يعتدون على البشر، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة وسوء التصرف والعدوان على الآخرين أو تكون عدم العلم، فقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] يحتمل المعنيين، وفي هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، لأن الهزء في أثناء تبليغ أمر الله جهل وسفه[٢].

---

(١) تفسير البيضاوي (١/١٠٥)، تفسير القاسمي (١/٣٦٠).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٦)، تفسير حقي (١/١٩٦).

الموقف الثاني: يظهر في قوله تعالى: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨] جاء في ردّ موسى عليهم للتعريض بغباوتهم، لذلك فصّل القرآن الكريم في وصف البقرة، حتى لا يترك لهم مجالًا لإعادة السؤال وقطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال[(١)].

أسباب وقوف موسى عليه السلام مع قومه هذه المواقف:

١ - ردهم عليه في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] فهو يحمل في طياته استبعادًا لما قاله واستخفافًا به، وهذا دأب الذين فقدوا الأدب وجهلوا ما وراء أوامر الله[(٢)].

٢ - سؤالهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البَقَرَة: ٦٨]، كأن الله رب موسى وحده، وليس ربهم[(٣)].

٣ - إثبات أن الله هو الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يصدر عنه الظلم والجور، حكيم لا يصدر عنه العبث[(٤)].

أسباب تشديد الله عليهم:

دلالة أسئلتهم على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم، وعدم توقيرهم له، وجهلهم بعظمة الله تعالى، وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال، ولو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم، وانتظروا النتيجة بعد ذلك، ولكنهم قوم لا يعقلون[(٥)].

❑ عدم مبادرتهم إلى الامتثال فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٧).
(٢) تفسير أبي السعود (١/١١١).
(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٧).
(٤) تفسير البحر المحيط (٢/١٩٠).
(٥) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٦).

الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت لكنهم تعنتوا وشددوا فشُدِّدَ عليهم(١).

موقف القرآن الكريم من ترددهم وإفراطهم:

❑ يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٥٤] معطوفًا على ما تقدم، والمراد تذكير اليهود بنقض سلفهم للميثاق(٢).

❑ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٤] هذا يدل على عموم رقابة الله ﷻ، وأنه على كل شيء رقيب، ولا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء وقد أحاط بكل شيء علمًا.

يظهر أن الحكمة من ذكر القرآن الكريم هذا الموقف تتمثل فيما يلي:

١ ـ الدلالة على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة عن الآباء وتنبيه مبكر لهذه الأمة حتى لا تنخدع بمراوغة اليهود المعاصرين وأن تأخذ حذرها منهم.

٢ ـ بيان صلف اليهود وعنادهم وتعنتهم على أنبيائهم.

٣ ـ هذا الإخبار بإفضال الله وإنعامه على بني إسرائيل من أعلام نبوة رسول الله ﷺ(٣).

ما يستفيده الداعية من موقف القرآن الكريم من هذا السؤال:

١ ـ أن يتصف الداعية بسعة الصدر والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم الإغلاظ في الرد على المدعوين عند إطلاق بعض التهم المثيرة للداعية، بل يقابلها بأسلوب نفيها عن نفسه.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣١٤).

(٢) المحرر الوجيز (١/٢٤٥).

(٣) إغاثة اللهفان (٢/٤٣٦).

٢ ـ أن لا يتكلف الإجابة بما ليس عنده، بل يرد العلم فيما لا يعلم إلى الله ﷻ.

٣ ـ أن يبيّن للمدعوين أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله الذي لا يعلم وجه الحكمة فيه بالإنكار وكثرة الأسئلة، بل الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال من غير إفراط أو تفريط[(١)].

الموضع الثاني:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦، ٢٤٧].

فمن إفضال الله وإنعامه على بني إسرائيل: استجابته لهم في فرض القتال عليهم، واستجابته لهم بأن بعث لهم ملكًا يقاتلون معه في سبيل الله.

مسلك بني إسرائيل بعد إفضال الله وإنعامه عليهم بالقتال في سبيل الله:

لما كتب عليهم القتال كثر ترددهم وتلكؤهم في الاستجابة لأوامر نبيهم بإفراطهم وتجاوزهم الحد في ذلك فتولوا إلا قليلًا منهم، ويظهر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦].

ومسلكهم بعد بعثه طالوت ملكًا عليهم:

بعد أن استجاب الله لبني إسرائيل في أن يبعث لهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى، وجَرُوا على سننهم في

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٤٣٦).

التردد والإفراط، فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] فكان اعتراضهم أنه ليس في بيت ملك، ولم يؤت مالًا واسعًا يجمع به نفوس الرجال[١].

موقف نبيهم عليه السلام من ترددهم وإفراطهم:

أولًا: في القتال في سبيل الله: كان ظاهرًا ومتوقعًا منهم قبل استجابة الله لهم بالقتال في سبيل الله كما في قوله تعالى حكاية عن نبيهم: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦] فلما كتب عليهم القتال تحقق ما توقعه منهم من تردد وتولي أكثرهم عن القتال إعراضًا وإفراطًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦].

ثانيًا: في اعتراضهم على اصطفاء طالوت ملكًا عليهم:

١ ـ بيّن أن اصطفاء طالوت أمر قد قضاه الله، ثم علل لهم سبب اصطفاء الله تعالى له بأنه زاده بسطة في العلم والجسم، وفي ذلك إشارة من الله تعالى إلى أن تدبير شؤون الدولة في الحرب والسلم تحتاج إلى هذين الوصفين: البسطة في العلم والبسطة في الجسم[٢]؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧].

٢ ـ ثم أكد ما سبق بقوله إن الله هو الحاكم وله المشيئة في فعل كل شيء ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته، فسبحانه يختص برحمته من يشاء عالم بمن يستحق الملك ومن لا يستحقه[٣]. كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧][٤].

---

(١) المحرر الوجيز (١/٢٩٥).

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٣١).

(٣) المحرر الوجيز (١/٣٣١)، تفسير ابن كثير (١/٣٠٢)، صفوة الآثار (٣/٤٣٦).

(٤) تفسير الرازي (٣/٤٠٦).

الحكمة من موقف القرآن الكريم هذا الموقف:

- ❑ في ذكر القرآن الكريم تردد وإفراط بني إسرائيل، تأديب لذراري وأبناء اليهود المجاورين للرسول ﷺ في المدينة حتى لا يحذوا حذو أسلافهم في تكذيب أنبيائهم فهم يعلمون صدق محمد ﷺ وكانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل أن يبعثَه الله إليهم وإلى غيرهم[١].

- ❑ في ذكر القرآن الكريم إعراض وتوقف بني إسرائيل وتلكؤهم في الاستجابة لأوامر الله ورسوله، تأكيدٌ لمحمد ﷺ وأمته، لسمة خاصة من سمات بني إسرائيل من نقض العهود[٢]، فينبغي على المسلمين أخذ الحيطة والحذر في التعامل معهم.

- ❑ في ذكر القرآن الكريم قصة إعراض وتوقف اليهود مع نبيهم، دلالة واضحة على صحة رسالة محمد ﷺ، لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق بني إسرائيل[٣].

- ❑ في الطاعة لله ورسوله والجهاد في سبيل الله حمايةٌ للأمة وصيانة لحقوقها وإبقاء لعزتها.

أسباب عدم استجابة الله لهم في اصطفاء ملك آخر غير طالوت فيما يبدو لنا:

١ ـ أنهم قصدوا من سؤالهم الاعتراض على قضاء الله وقدره[٤].

٢ ـ أن الغرض من سؤالاتهم هو التعنت مع أنبيائهم والنكوص عن الجهاد.

---

(١) تفسير الرازي (٣/٤٠٦).

(٢) صفوة الآثار (٣/٤٣٤).

(٣) تفسير الرازي (٣/٤٠٥).

(٤) تفسير السعدي (١٠٨).

يحسن بالداعية إلى الله تعالى أن يستحضر هذه الهدايات القرآنية وهو يدعو إلى الله تعالى فإن فيها ما يعينه على أداء رسالته، فإن أخلاق البشر تكاد تكون متشابهة في جوانب كثيرة بخاصة تلك التي تتصل بالعلاقة بين البشر وبين أنبيائهم ومن بعدهم الدعاة والعلماء:

- أن القيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس وشجاعة القلب.
- أن القتال كان مطلوبًا ومشروعًا في الأمم السابقة وليس حكمًا خاصًا بالمسلمين.
- أن الأمم وإن فسدت أخلاقها وضعفت معنوياتها قد تفكر في الدفاع ومواجهة العدو.
- أن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله تتطلب إعدادًا نفسيًا وتربويًا وعلميًا وخبرة وكفاءة ومهارة وعزيمة صادقة وإخلاصًا وتضحية وتفانيًا في سبيل المبدأ والعزة، ولا يكون ذلك بالأماني، بل بالبطولة وقوة الإرادة حتى يتحقق النجاح.



المبحث الثالث

عاقبة السؤالات على أصحابها

أرسل الله تعالى الأنبياء إلى أقوامهم بالآيات والحجج البينة، وقابلوها بالكفر والعصيان وتوجيه الأسئلة تعنتًا واستكبارًا، واختلفت مواقف الأنبياء تجاه أقوامهم، فمنهم من قابل ذلك بالتهديد بوقوع عذاب الله، ومنهم من دعا الله أن ينزل عليهم عذابًا لعلهم يهتدون وجاء ذكر مواقف ثمود وفرعون وقومه، في عدة مواضع من القرآن الكريم.

أولًا: مواقف ثمود من الآية التي أجراها الله تعالى على يد صالح استجابة لهم.

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٣ ـ ١٥٩].

وفي قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧ ـ ٧٩].

الموقف الأول: إقرار القوم بالآية التي جاءت وفق ما طلبوه، ولكنهم لم يؤمنوا:

لما سأل قوم صالح نبيهم آية باهرة على صدق نبوته، وروي أنهم اقترحوا عليه أن يخرج لهم من صخرة صماء ناقة عشراء[١]، دعا صالح ربه، فاستجاب الله له وحقق لهم ما طلبوه فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة من الزمان، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٥]، فكانوا يشربون لبنها يوم شربها، فيحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم[٢]، وحذرهم صالح أن لا يتعرضوا للناقة يوم شربها؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣][٣]، فلم يستطيعوا أن يكذبوا الآية وهم يرونها رؤية عين، وأقروا بها جميعًا ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل[٤]، وصد أصحاب الأوثان من أراد أن يؤمن، فقوم صالح لم تكن تنقصهم آية بينة حتى يؤمنوا. فالناقة كافية لإيمانهم، ولكن حب الملك والسلطان صدهم عن ذلك فجحدوها ولم يتبعوا الحق ظلمًا وعلوًا[٥].

الموقف الثاني: المسارعة إلى عقر الناقة:

لما طال على قوم صالح الأمد واشتد تكذيبهم لنبيهم عليه السلام سارعوا إلى ما ظنوه حسمًا للموقف وضمانًا لبقاء سلطانهم وملكهم، وليستأثروا بالماء كل يوم فخططوا لعقر الناقة على الرغم من أن صالحًا عليه السلام قد طلب منهم أن يتقوا الله ولا يمسّوها بسوء فضلًا عن الاعتداء عليها بالقتل الغادر، فأقدموا على قتلها، وجاء التعبير القرآني ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]

---

(١) تفسير البغوي (٣/٢٥٠)، تفسير القرطبي (١٣/١٣)، تفسير الألوسي (١٤/٣١٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٤٠).
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٨/٧٢).
(٤) تفسير الطبري (١٢/٥٢٦).
(٥) تفسير الطبري (١٢/٥٢٦)، المحرر الوجيز (٣/٤٣٩).

بفاء التعقيب ليشير إلى أن القوم كانوا أهل تسرع في العصيان والتمرد على أمر الله[(١)].

الموقف الثالث: الاستكبار عن اتباع أمر الله والاستعلاء على الحق:

يظهر في قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] وعبّر عن عصيانهم بقوله ﴿وَعَتَوْا﴾ لإبراز سمة التبجح الذي يصاحب المعصية وليصور الشعور النفسي المصاحب لها، قال الخازن في تفسير هذه الآية: «أي تكبروا عن أمر ربهم وعصوه، والمعنى أنهم خالفوا أمر الله في الناقة وكذبوا نبيهم»[(٢)]. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٦][(٣)].

الموقف الرابع سؤال إنزال العذاب: لم يكفهم انتهاكهم لحرمة الله بعقرهم الناقة، وإنما تمادوا في الكفر والتحدي باستعجال العذاب إن مسوا الناقة وهم يهزؤون قائلين لنبيهم في سفاهة وتطاول: متى ذلك؟ وما آية ذلك إن كنت من الصادقين؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

فاستجاب الله لهم استجابة أهلكتهم، قال الرازي: «فلما شاهدوا العلامات خرجوا عند ذلك عن حد التكليف وخرجوا عن أن تكون توبتهم مقبولة»[(٤)].

استجابة الله لهم في سؤالهم الآية كانت وبالًا عليهم، وقد مرت في أربعة أطوار:

أولًا: بدأت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القَمَر: ٢٧] قال السعدي: «ومعنى ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختبارًا منه لهم

---

(١) تفسير الطبري (٥/٥٣٨)، نظم الدرر (٦/٨٤)، تفسير السراج المنير (١/٢٩٣٠)، حوارات الأقوام (١٧٩).

(٢) تفسير الخازن (٣/٥٥).

(٣) تفسير السعدي (٢٩٥).

(٤) تفسير الرازي (٧/١٧٧).

وامتحانًا أيؤمنون أم يكفرون؟»[١] فالاستجابة لسؤالاتهم لم تنفعهم بالايمان بالله بل أهلكوا بكفرهم وتكذيبهم نبيهم[٢] كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشّمس: ١١].

وروي: «لما مرّ النبي ﷺ بالحِجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ـ يعني الناقة ـ[٣] فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذتهم الصيحة فأهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله قالوا من هو يا رسول الله: قال أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[٤].

ثانيًا: اضطربت أحوالهم الاجتماعية وأصابهم الضجر الشديد بسبب الناقة لأن مياه مدائن صالح كانت قليلة وجعل الله للناقة شرب يوم وللقوم شرب يوم آخر؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القَمَر: ٢٨]، فكانت الناقة إذا شربت أخذت كل المياه التي في الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن[٥].

ثالثًا: كان للناقة هيئة عظيمة فأضرت بأنعامهم، فكانت إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، قال ابن جرير: «فكبر ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم، وأجمعوا رأيَهم على عقر الناقة»[٦].

رابعًا: عقر الناقة، وكان سببًا في هلاكهم فهم انتهكوا حرمة الله بعقرها فباؤوا بسخطه وحل عليهم غضبه، فأُهلِكوا عن بكرة أبيهم[٧].

---

(١) تفسير السعدي (٨٢٦).

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٧١/٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٤٣٩/٣).

(٤) البداية والنهاية (٤٣٧/٣)، وقال ابن كثير: «وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة».

(٥) حوار الأنبياء مع أقوامهم (١٧٥).

(٦) تفسير الطبري (٥٣١/١٢)، تفسير ابن كثير (٤٣٩/٣).

(٧) تفسير الطبري (٥٣٤/١٢).

وبغض النظر عن صحة هذه التفصيلات المتصلة بالناقة وأحوالها حيث إنها لم تثبت بطرق يطمئن إليها، إلا أنها تفيد بمجموعها أن أحوال الناقة كانت سببًا في هلاكهم، فإنهم طلبوا من رسولهم آية لتكون دليلًا على صدقه، فلما استجاب الله لطلبهم بدلًا من أن تكون لهم نعمة فيؤمنوا بنبي الله صالح صارت عليهم نقمةً حين قتلوها.

موقف صالح عليه السلام من قومه بعد عقرهم الناقة وحلول سخط الله وعذابه عليهم:

ورد في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] فصالح عليه السلام تولى وأعرض عنهم وخاطبهم تقريعًا وتوبيخًا لهم بعد أن استؤصلوا على بكرة أبيهم بعذاب الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٨، ٧٩] فالفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي والخطاب بعد موتهم[(١)].

الحكمة من ذكر القرآن الكريم لموقف قوم صالح من دعوة نبيهم عليه السلام:

أولًا: أخذ العبرة مما حلّ بهم، من إهلاك بعقرهم ناقة الله وتحذير لكفار قريش من أن يصيبهم ما أصاب قوم ثمود إن رفضوا دعوة نبيهم.

ثانيًا: في إخبار الرسول ﷺ أنه لم يؤمن من قوم صالح الكثير تسلية له ﷺ عن إعراض قومه، فسبحانه عزيز ذو انتقام من أعدائه رحيم بمن آمن به من خلقه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨، ٩][(٢)].

أسباب جزاء الله لهم:

١ ـ نكثهم العهود والمواثيق التي أخذها نبيهم منهم إن جاءهم بآية على

---

(١) تفسير البغوي (٣/٣٤٨)، تفسير اللباب (٧/٤١٧).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٣٨٧).

وفق ما سألوه، وعند الاستجابة لم يزدهم ذلك إلا نفورًا واستكبارًا وطغيانًا فلم يدخل الإيمان قلوبهم ولم يصدقوا بدعوة نبيهم فتمادوا وانتهكوا حرمة الله بعقرهم للناقة فاستحقوا العذاب.

٢ ـ أن القوم كانوا أهل تمرد وتعال عن اتباع الحق، فأتبعوا عقر الناقة باستعجال إنزال العذاب إن مسوا الناقة بسوء، وهم في الحقيقة إنما استعجلوا حتفهم وهلاكهم.

يجد الدعاة في هذا العرض القرآني دروسًا يلزمهم أن يتنبهوا إليها ومنها:

١ ـ استعمال جميع وسائل التلطف ولين الجانب لمن يدعوهم ليقربوا منه.

٢ ـ أن لا ييأس ولا يقنط، وإن كذبه قومه لأنه قد علم أن نصر الله لرسله وأوليائه سنة كونية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

٣ ـ لا غرابة في أن يكون الداعية قبل دعوته في موضع رجاء قومه وثقتهم، ثم يخيب أملهم لخبث في نفوسهم فيسيئون به الظن حين يدعوهم إلى الحق لأنه أتاهم بما لم يألفوه.

٤ ـ أن يوضح للمدعوّين أن الإيمان بالله بحاجة إلى العلم وتدبر القلوب والعقول، وليست الخوارق هي السبيل إلى الإيمان بالله، وفي معجزة قوم صالح خير دليل على ذلك.

٥ ـ أن الطغاة والمتجبرين يستخدمون جميع وسائل التعذيب ويوجهونها إلى الداعية ليكف عن الدعوة، وهذا شأن كل ظالم، فإذا استعصم الداعية بإيمانه ووثق بربّه، لم يرهبه التخويف واستعمال وسائل التعذيب، فعلى الدعاة أن يثقوا بنصر الله فهي سنة الله التي لا تتخلف في كل زمان ومكان، ويحثوا أتباعهم على الصبر على الشدائد واحتساب الأجر عند الله.

٦ ـ أخذ الاعتبار بحال هؤلاء المكذبين الذين صار مآلهم إلى الهلاك والدمار، والتأكيد للمدعوين بأن هذه الأمة لن تُهلك بما أهلكت به الأمم السابقة من العذاب العام، والتحذير من الفتن، ومن كل ما يثير بعضهم على بعض، وحتى يكونوا أمة متآلفة متحابَّة، يتطلب من كل واحد منهم التماس العذر لأخيه إذا رأى منه ما يكره[1].

٧ ـ أن يستغل الفرصة ويُذكِّرَ المدعوين بما كان من الغابرين، عند المرور بأماكن وقعت فيها عقوبات لأمم سابقة وأن يحذرهم أن يفعلوا فعلهم ويسيروا مسارهم.

ثانيًا: مواقف فرعون وقومه مما أجراه الله تعالى على يد موسى استجابة لطلبهم.

وقد عرض بعضها في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشُّعَراء: ٢٩ ـ ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ٤٩ ـ ٥٣].

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٦/٢٧).

الموقف الأول: ادّعاء فرعون لنفسه الألوهية وتهديد موسى بالسجن:

ادعى فرعون لنفسه الألوهية، وهدد وتوعد موسى بالسجن إن اتخذ إلـهًا غيره كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٩] فقال له موسى عليه السلام على جهة التلطف والطمع في إيمانه أولو جئتك بما يتضح معه صدقي؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يتحدى موسى ويغلبه، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣١] فهو طلب من موسى ما يدل على صدقه فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس؛ فلما رأى فرعون أن ما جاء به موسى خارج عن المألوف والمعتاد أفزعه ذلك ولم يكن عنده ما يدفعه إلا اتهامه بالسحر(١).

الموقف الثاني: اتهام فرعون لموسى بالسحر وبالرغبة في الملك:

أوهم فرعون قومه بأن موسى عليه السلام ساحر؛ طمعًا منه بما عند قومه من المعرفة بالسحر، ويكون ذلك سببًا لمقاومة موسى عليه السلام؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٤] فصدقه قومه في هذا الاتهام؛ فاستكبروا عن قبول آيات الله تعالى، فلما عرفوا أن دعوته عليه السلام جاءت لتصرفهم عن عبادة الأصنام دين آبائهم اجترؤوا على ردها حبًا للشهوات ورغبة في العظمة والرئاسة، فاتهم فرعون وملؤه موسى وأخاه هارون باتهام جديد وهو رغبتهم في أن تكون لهما العظمة والملك والسلطان، في أرض مصر؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونس: ٧٨](٢).

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٤٠٠)، تفسير ابن كثير (٣/٣٩٠).

(٢) الكشاف (٢/٣٦٢)، المحرر الوجيز (٣/٢٣٥)، تفسير القرطبي (٨/٣٦٧)، تفسير ابن كثير (٢/٢٤٦).

الموقف الثالث: سؤال فرعون وقومه موسى عليه السلام أن يكشف الله عنهم الرجز:

ابتلى الله فرعون وقومه بالجدب، ونقص من الثمرات، فكان ذلك من أول إشارات التحذير لهم لعلهم يتذكرون؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] إلا أن فرعون وقومه لم يتذكروا ولم يؤمنوا بما جاء به موسى بل ظلُّوا مُصِرّين على الكفر وعدم الاتعاظ بالآيات التي ابتلاهم الله بها، وكانوا إذا أصابهم الخصب والسعة بالرزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه، وإذا أصابهم القحط جعلوه لموسى، وما علموا أن ما قدر لهم وعليهم هو من عند الله تعالى لا من عند موسى وقومه، فالشؤم الذي نسبوه لموسى والشدائد التي حلت بهم هي من عند الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]. لم تنفع فيهم الآيات ولا العقوبة عليهم بالجدب ونقص الثمرات، فأرسل الله إليهم آيات أكبر من ذلك: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومع أن هذه الآيات مفصلات واضحات، فقد استكبروا عن الإيمان وكانوا من أهل الإجرام؛ فلما وقع عليهم العذاب وطالت عليهم المدة لجؤوا إلى موسى خاضعين متذللين له يسألونه أن يشفع لهم عند ربه فيكشف عنهم العذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

الموقف الرابع: تكرار نكث العهد بعد استجابة الله لهم:

لما استجاب الله لموسى بكشف العذاب عن فرعون وقومه لم يفوا بما وعدوا من إيمان، ولا أرسلوا مع موسى بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فلما رفعنا عنهم العذاب

الذي أنزلناه بهم، نكثوا العهد الذي عاهدونا وغدروا، وتمادوا في غيهم»[١].

الموقف الخامس: تفضيل فرعون نفسه على موسى وسؤاله إنزال أسورة أو مَلَك عليه:

زيادة على نكث فرعون للعهود والمواثيق التي عاهد موسى عليها تمرد وعتا واستعلى بباطله، وقد غره ملكه وأطغاه ماله وجنوده وخشي أن يؤمن قومه بموسى، فجمع زعماء قومه، وأعلن قوته وتسلطه عن طريق الاستفهام التقريري بقوله: أليس لي ملك مصر، والأنهار تجري من تحت قصري؟ وأراد بذلك تثبيتهم على طاعته كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. ثم وصف موسى بأنه حقير عييّ، انتقاصًا من قدره في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه من نوع رُتّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزّخرُف: ٥٢][٢]، وقد كان به رُتّة ذهبت عنه بدعائه ربه بقوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي...﴾ [طـه: ٢٧، ٢٨] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، ثم تمادى فرعون بالظلم والطغيان بسؤال موسى تعنتًا واستكبارًا إنزال أسورة عليه لظنه أن رتبة الرسالة كرتبة الملك فقال: هلا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان صادقًا، أو هلا ضم إليه الملائكة الذين يزعم أنهم عند ربه حتى يتكثر بهم ويصرفهم بأمره، فيكون ذلك أهيب للقلوب[٣]؛ كما في قولـه تعـالـى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٣].

---

(١) تفسير الطبري (٦١٦/٢١).

(٢) النكت والعيون (٨٧/٤)، تفسير النسفي (٢٩٥/٣)، تفسير أبي السعود (١٠٣/٦).

(٣) تفسير الطبري (٦١٩/٢١)، تفسير البغوي (٦٥٢/١)، تفسير الخازن (٣٨١/٥)، تفسير أبي السعود (١٠٣/٦).

مواقف موسى عليه السلام مع فرعون وقومه:

الموقف الأول: استجابة موسى لفرعون وقومه بسؤال ربه رفع العذاب:

كان فرعون وقومه قد وعدوا موسى عليه السلام إن كشف عنهم العذاب أن يهتدوا لسبيل الحق، ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما أجابهم موسى إلى سؤالهم، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم العذاب، فرفع عنهم، نكثوا في العهد الذي عاهدوه؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

الموقف الثاني: دعاء موسى على فرعون وقومه:

لما أبى فرعون وملؤه قبول الحق، دعا موسى ربه أن يهلك أموالهم وأن يطبع على قلوبهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وأطلق هذه الدعوة عليه السلام لما تبين له أنهم لن يؤمنوا وأنه لا خير فيهم(١).

الحكمة من ذكر مجازاة الله سبحانه لهم من خلال عرض الآيات:

١ ـ تسلية للنّبي محمد ﷺ عمّا يلقاه من صدود قومه عن دعوته(٢).

٢ ـ توبيخ لقريش بالإشارة إلى أنهم وغيرهم ممن مضى من الأقوام السابقة يرمون رسلهم بالسحر، ويقرون رسالته عند الحاجة إلى دعائه في كشف العذاب.

٣ ـ تذكير للقلة المؤمنة في مكة في بداية الدعوة، ولمن يأتي بعدهم في كل زمان ومكان على أن القلة إذا استعانت بالله وحده، فالنصر والفرج حليفهم.

---

(١) تفسير الطبري (١٧٧/١٥)، تفسير البغوي (١٤٧/٤)، تفسير الرازي (٣٣٩/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣٠/٤)، ينظر التفسير المنير (١٧٦/١٣).

استجابة الله لفرعون وقومه كانت وبالًا عليهم وفتنة لهم وسببًا في هلاكهم.

١ ـ فاستجابة الله تعالى لسؤال فرعون وقومه، لم تنفعهم بالإيمان بالله كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢] فما زادتهم تلك الآيات إلا استمرارًا على العناد وتصميمًا على الكفر والعصيان.

٢ ـ تكرار نكث العهود والمواثيق مع كل استجابة لهم في رفع العذاب.

٣ ـ استجابة الله لهم مع كفرهم سبب في تحقيق رجاء موسى عليه السلام بوقوع الضربة القاضية على فرعون وقومه بظهور قوم موسى كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فكان ذلك سببًا لاستخلاف موسى وقومه، فهم الوارثون لما تركه أولئك من سلطان ومال وملك[١].

٤ ـ استجابة الله لفرعون وقومه كانت سببًا في تدميرهم وإهلاكهم فلم ينفعهم الإمهال؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].



(١) تفسير الطبري (١٣/٤٤)، تفسير البحر المحيط (٥/٤٢٦)، تفسير الألوسي (٦/٣١٧).

المبحث الرابع

مواجهة الأقوام بما كانوا عليه من انحراف وجحود

كانت هذه المواجهة لهم من مواقف القرآن الكريم تجاه أسئلتهم لإظهار ما كانوا عليه من عدول عن الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة، مع إنكارهم للأدلة التي جاء بها الأنبياء مع علمهم ومعرفتهم وإقرارهم بها، مثل قوم موسى وكفار قريش، فهم بعد أن ظهر لهم الدليل القاطع على صدق أنبيائهم وصدق ما جاؤوا به، جاءت أسئلتهم كفرًا وإعراضًا وانحرافًا عن الحق.

الانحراف لغة: مصدر انحرف، أي مال وعدل وهو ضد الاستقامة[١]. والمراد هنا: زيغ الأقوام عن طاعة الله والفطرة التي فطروا عليها[٢].

الجحود لغة: مصدر جَحَد، وهو إنكار الشيء مع العلم به، وهو ضد الإقرار[٣]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النَّمل: ١٤]. أي أنكروها. والمراد هنا: بيان أن سؤالاتهم جاءت إصرارًا على الكفر وإنكارًا لنبوة الأنبياء، مع إقرارهم بحقيقتها في داخل أنفسهم[٤].

(١) مختار الصحاح (١/١٦٧)، مقاييس اللغة (٢/٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (١١/٦٥).
(٣) العين (١/١٨٠)، المحيط في اللغة (١/١٧٧)، الصحاح في اللغة (١/٨٠).
(٤) تفسير الطبري (٢/١٦٧)، (٩/٥٩٤).

وقد وردت في القرآن الكريم مواجهة انحرافهم عن الحق وجحودهم له في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨].

جاءت هذه الآية مواجهة لكفار قريش واليهود، فهم بعد أن جاءهم الحق من عند الله ببعثة محمد ﷺ وتأييده بالمعجزات أبهرهم فلم يجدوا مبررًا لعدم الانصياع إلى الحق إلا أن يسألوا محمدًا ﷺ أن يأتيهم بمثل ما أوتي موسى من المعجزات[١]؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ﴾ [القَصَص: ٤٨].

وجاءت المواجهة بالتذكير بانحرافهم. ومن جحودهم:

١ - **كفرهم بالمعجزات:** كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [القَصَص: ٤٨] أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بمواجهة اليهود الذين علّموا كفار قريش هذه الحجة بقوله: أولم يكفر اليهود الذين كانوا في زمن موسى بما أوتي موسى، إلا أن الله جعلهم واليهود المعاصرين لمحمد ﷺ كالشيء الواحد لأنهم ماثلوهم في الكفر والتعنت.

٢ - **تكذيبهم بالكتب:** كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨]. بمعنى أن كفار قريش واليهود قالوا: إن ما جاء به موسى عليه السلام، وما جاء به محمد ﷺ سحر تعاونا به عليهم، فكأن سحر كل منهما يُقوّي الآخر فهم لن يؤمنوا بهما ولا بما جاءا به[٢].

٣ - تكذيبهم بالرسل: كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨]. بمعنى أن اليهود وكفار قريش ادّعيا أن موسى ومحمدًا عليهما السلام ساحران فلن يؤمنوا بهما، هذا المعنى على

(١) تفسير الطبري (٥٨٧/١٩)، تفسير القرطبي (٢٩٤/١٣)، التحرير والتنوير (٣٦٤/١٠).
(٢) حجة القراءات (٥٤٧/١).

قراءة ﴿ساحران﴾[(١)]، ويكون جواب القرآن الكريم على ادعاء اليهود وكفار قريش أنهما ساحران هو قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القَصَص: ٥٠]. أي إن لم يأتوا بكتاب فاعلم أنهم قد أُلزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ولا أحد أكثر ضلالًا ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، وأنه سبحانه لا يوفِّق القوم الظالمين الذين خالفوا أمر الله، وتجاوزوا حدوده لإصابة الحق[(٢)].

الحكمة من مواجهة القرآن الكريم لليهود وكفار قريش ببيان انحرافهم وجحودهم:

١ ـ إظهار اضطراب كفار قريش فمرة يكونون جاحدين رسالة الرسل قاطبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨]، ومرة يشترطون لإيمانهم إنزال آيات مماثلة لمعجزات موسى عليه السلام؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: ٤٨][(٣)].

٢ ـ بيان حقيقة ما كان عليه المشركون قبل بعثة الرسول محمد ﷺ، فقد كانوا يتعلقون بذريعة أن الله لو بعث إليهم رسولًا كما بعث إلى من سبقهم من الأمم لصدّقوه واهتدوا، وبعد بعثة الرسول تبين جحودهم وتعلقهم بذرائع أخرى فلا مقصد لهم إلا العناد والكفر[(٤)].

٣ ـ جمع الله بين انحرافهم وجحودهم وبين انحراف وجحود قوم فرعون في عبادة الأصنام وفي اتهام الرسل بالجنون والسحر بسبب تشابه قلوبهم في الكفر والعصيان؛ وكذلك تشابهت أغراضهم فالغرض من اقتراحات كل منهم التعنت لا الوصول إلى الحقيقة.

---

(١) حجة القراءات (١/٥٤٧)، تفسير الطبري (١٩/٥٨٨)، نظم الدرر للبقاعي (٦/١٩١).

(٢) تفسير النسفي (٣/٤٧).

(٣) تفسير النيسابوري (٦/١٥٣)، تفسير اللباب لابن عادل (١٢/٣٨٩).

(٤) المصدر السابق.

٤ - إظهار جهل كفار قريش واليهود بحقائق الأمور، كجعلهم عدم استجابته لأسئلتهم أن يستبدل الآيات بآيات أخرى على حسب أهوائهم، دليلًا على أنه غير مؤيد من الله وعلى عدم إرسال الله له[١].

٥ - إظهار فساد معتقدهم في أن يأتيهم نبي الله محمد ﷺ بمثل معجزة موسى، فسؤالهم لم يأت لإيمانهم برسالة موسى عليه السلام، بل ليكون وسيلة لإبطال رسالة محمد ﷺ[٢].

٦ - تسلية لرسول الله ﷺ عمّا رآه من اليهود فإنهم سلكوا معه مسلك أسلافهم مع موسى عليه السلام.

يحسن بالداعية أن يعي أنه قد يواجه المكابر والمنكر للحجج والمتهرب عن اتباع الحق باختلاق الذرائع الواهية، فصفات الكفار واحدة في كل زمان ومكان، فدأبهم المكابرة والهروبِ من اتباع الحق بطلب المعجزات المادية، وعند حصول المطلوب لا يؤمنون، ويتهمون الكتب بأنها سحر مختلق.

وهذا يستدعي منه أن يستخدم أسلوب المواجهة بتذكير المدعوين بجحود الأمم السابقة، وإظهار صفات التشابه التي تجمعهم بها. وبيان أن من سار مع هواه فهو ضال، وأن الله لا يوفق الظالمين وإنما توفيقه وهدايته سبحانه خاصة بالمؤمنين[٣].

وعلى الداعية كذلك أن يوقن أن ما يتمسك به المبطلون من حجج واهية لردّ دعوته، وصد الناس عنها هو دأب من سبقهم من المبطلين تجاه الأنبياء والدعاة والمصلحين.

وأن يعي أن أهل الضلال ينبزون العلماء بأسوأ الألقاب لينفروا عامة الناس من اتباعهم.

---

(١) التحرير والتنوير (٦/٤٥٤).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٣٩٦).

(٣) أيسر التفاسير للجزائري (٣/٢٧٠).

وأن يستشعر حرمة الركون إلى أهل الباطل بالتنازل عن شيء من الحق الثابت إرضاء لهم في اتباع أهوائهم الضالة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿**يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا**﴾ [النّساء: ١٥٣]. جاءت هذه الآية مواجهة لليهود لما سألوا محمد ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء يشهد له بالصدق، وقد صدر منهم هذا على وجه العناد وجعلوا تحققه من عدمه يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم له ﷺ.

وكانت المواجهة بتذكير اليهود بانحراف آبائهم وأسلافهم وكفرهم، ومن ذلك:

١ ـ **تأصّل الجحود والإصرار على الكفر فيهم وفيمن تبعهم من المعاصرين لمحمد ﷺ**، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً**﴾. أخبر الله سبحانه وتعالى نبيّه محمدًا ﷺ أن لا يعجب من سؤالهم فقد كان عندهم انحراف من قبل هذا، فقد سأل أسلافهم موسى أعظم من ذلك فقالوا: أرنا الله جهرة، وهذا السؤال، وإن كان من آبائهم، أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لضلالهم فما اقترحوه على محمد ﷺ، ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم، فهذه سنتهم وهذا دأبهم[(١)].

٢ ـ **بيان عاقبة سؤال أسلاف اليهود**: وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**﴾، بمعنى حلت عقوبة من الله على أسلاف اليهود

---

(١) تفسير الطبري (٣٥٨/٩)، تفسير البيضاوي (٢٦/٢)، تفسير البحر المحيط (٣١٢/٤)، تفسير السعدي (٢١٣).

نتيجة سوء أدبهم، وجرأتهم على خالقهم، وعلى أنبيائهم فَصُعِقُوا بسبب ظلمهم أنفسهم، وتعنتهم حين سألوا أمرًا مستحيلًا وليس من حقِّهم[١].

٣ - **بيان سوء مسلكهم وانحرافهم بعد أن جاءتهم البينات**: وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ﴾ [النِّساء: ١٥٣]، فبعد أن أحياهم الله بعد الصعق، وشاهدوا الآيات البينات على يد موسى القاطعة بنفي الشرك، عبدوا العجل من دون الله، ثم عفا الله عنهم بسبب توبتهم، وآتى الله موسى حجة عظيمة تؤيد صدق نبوّته[٢].

الحكمة من مواجهة القرآن الكريم لليهود وكفار قريش ببيان انحرافهم وجحودهم:

١ - تسلية من الله سبحانه وتعالى لنبيه بأن لا يعظُمَنَّ عليه مسألة اليهود إنزال الكتاب، فلو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوا إنزاله، لخالفوا أمر الله كما خالف أسلافهم، فبعد إحياء الله لأوائلهم من صعقتهم، عبدوا العجل واتخذوه إلهًا يعبدونه، فهم مثلهم[٣].

٢ - توبيخ وتقريعٌ من الله جل ثناؤه لليهود وكفار قريش الذين سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء.

٣ - كون اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ على مذهب آبائهم في أيام موسى عليه السلام، ورضاهم بسؤالهم، يجعلهم مثلهم في إسناد هذا السؤال إليهم، ولذلك فهم شركاء في المسؤولية[٤].

---

(١) النكت والعيون (١/٣٣٨)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/١١٢١)، التفسير الميسر (٢/١٥١).

(٢) التفسير الميسر (٢/١٥١).

(٣) تفسير الطبري (٩/٣٥٨).

(٤) تفسير الرازي (٥/٤٢٩).

٤ ـ بيان أن الآيات البينات التي أظهرها الله لهم على يد موسى عليه السلام لم تفد اليهود في قيادة قلوبهم إلى الطمأنينة؛ بل تمادوا في غيهم فسألوا رؤية الله سبحانه عيانًا.

يستفاد من دلالة ما تقدم ما يلي:

١ ـ مماثلة الأقوام المخالفة والضالة من أهل الكتاب والمشركين في العمى والقسوة والعناد والكفر في كل زمان ومكان فكلهم واحد وإن تعددت الطرق، واختلفت الوجوه فالآثار تتشابه حتى كأنهم متواصون به.

٢ ـ أن اقتراح الآيات على الأنبياء، سنة ماضية، وما يقال لهم إلا ما قيل للأنبياء قبلهم.

٣ ـ أن من الأولياء الصالحين من لا تظهر لهم كرامات وأن الكرامة قد تظهر على من لم تكمل له استقامة، فتكون استدراجًا[١]، أو تكون من فعل الشياطين لأوليائهم.

٤ ـ مواجهة سؤالات المدعوين ببيان أن من سبق عليه الشقاء والضلال لا يؤمن ولو أتته كل آية، وذلك بضرب الأمثلة ببني إسرائيل فقد أظهر الله لهم على يد موسى عليه السلام من الآيات البينات ما يقود إلى الإيمان فلم تزدهم إلا جحودًا.

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. جاءت هذه الآية مواجهة لليهود، فهم حين دُعُوا إلى الإسلام قالوا: إن الله أوصانا في التوراة ألا نصدّق من جاءنا يقول: إنه رسول، حتى يأتينا بصدقة يتقرب بها إلى الله، فتنزل نار من السماء فتحرقه، فإن جئتنا

(١) البحر المديد (١٢/٢).

يا محمد بمثل هذا صدقناك وآمنا بك. وهذا من مغالطتهم وتحدياتهم ومن باب التعجيز والمعاندة لمحمد ﷺ[١].

وكانت المواجهة بتذكيرهم بانحرافهم، ومن ذلك:

١ - **تكذيبهم للرسل**: في قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٣]. في هذه الآية أمر الله الرسول ﷺ أن يرد عليهم بما يكشف تزييفهم ويبطل قولهم بقوله لهم: أنتم كاذبون في قولكم فقد جاء آباءكم رسلٌ من قبلي بالبينات والمعجزات الدالة على صدقهم فلم يؤمنوا، وكذلك أنتم قد سلكتم طريق آبائكم وأسلافكم في الافتراء والعناد والمماطلة[٢].

٢ - **تكذيبهم لسؤالهم القربان الذي تأكله النار وإقامة الحجة عليهم**: في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٣]، أي إن هذا الاقتراح منكم تعلل وتعنت ولو جاءكم الرسول بما اقترحتموه من الإتيان بالقربان الذي تأكله النار لتعللتم بغيره، ولأن الذي اقترحوه اقتصر في التوراة على الرسل السابقين، وأما عيسى ومحمد عليهما السلام فإن الله أوجب الإيمان والتصديق بهما من غير أن يأتوهم بقربان[٣].

٣ - **قتلهم الأنبياء**: كما في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٣] أي قل لهم: قد جاء أسلافكم الرسل من قبلي بالذي زعمتم أنه حجة لكم في دعواكم أن الإيمان يلزم الإتيان بالقربان، فلم قابلوهم بالانحراف والجحود والتكذيب والمخالفة والمعاندة، ولم يكتفوا بذلك بل أوقعوا بهم شر الفعال في قتلهم زكريا ويحي ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام، وقد نسب هذا الفعل

---

(١) تفسير الطبري (٧/٤٥٠)، تفسير النسفي (١/١٩٩)، صفوة الآثار (٤/٤٥٥)، التفسير الميسر (١/٤٨٢).

(٢) تفسير الطبري (٧/٤٥٠)، صفوة الآثار (٤/٤٥٥)، التفسير الميسر (١/٤٨٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٩٥)، تفسير ابن كثير (٢/١٧٧)، صفوة الآثار (٤/٤٥٥)، التفسير الميسر (١/٤٨٢).

إلى اليهود الذين كانوا في المدينة، مع إن تلك الجرائم كانت من أسلافهم، لأنهم راضون عما فعلوه ويؤمنون به[١].

الحكمة من مواجهة القرآن الكريم لليهود ببيان انحرافهم وجحودهم ومن ذلك:

١ ـ بيان تكذيبهم أنفسهم بأنفسهم لما زعموه في سياق الآية السابقة لسؤالهم من القول بأن الله فقير وهم عنه أغنياء، فاعترافهم أن الله عهد إليهم وأوصاهم بأن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار يناقض قولهم القبيح في حق الله إن الله فقير ونحن أغنياء، لأن الفقير عاجز عن ذلك.

٢ ـ توبيخهم في ادعائهم، وبيان أن هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم، ولأن نزول النار كان معجزة لتأييد وإثبات صدق بعض الأنبياء المرسلين من عند الله.

٣ ـ أنهم قصدوا المخالفة والمعاندة، لا السؤال من أجل إظهار الحجة والبرهان.

٤ ـ إظهار كذب وتناقض اليهود وسوء أدبهم مع الله تعالى، ومع أنبيائهم، ومع الناس جميعًا في كل زمان ومكان، فهذه الآية ترد عليهم بأبلغ الوجوه التي تثبت كذبهم فيما يدّعون لأن قتلهم للأنبياء بعد أن جاؤوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان، وأن دعواهم في أن إيمانهم بمحمد ﷺ متوقف على مجيئه بالقربان الذي تأكله النار دعوى كاذبة[٢].

٥ ـ إظهار القرآن الكريم في سؤالهم هذا رفضهم لمكرمة الله

---

(١) تفسير الطبري (٧/٤٤٩)، تفسير ابن كثير (٢/١٧٧)، تفسير القاسمي (٢/٥٢٢)، صفوة الآثار (٤/٤٥٥).

(٢) تفسير البيضاوي (١/٤٢٠).

لأمة محمد ﷺ بإباحة أكل الغنائم التي أعطيت هذه الأمة: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي**»(١). فذكر منها حل الغنائم.

٦ ـ تشابه كفار قريش واليهود في أصول تفكيرهم، فهم متماثلون في الكفر والطغيان فلا يحتاج بعضهم إلى وصية بعض في أصول الكفر(٢).

٧ ـ تعزية من الله جل ثناؤه لنبيّه محمد ﷺ على الأذى الذي كان يناله من اليهود وأهل الشرك بالله من سائر أهل الملل(٣)، وتسلية له وتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذبين(٤).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٢٥٧، رقم٤٣٨).
(٢) التحرير والتنوير (٨/١٣٨).
(٣) تفسير الطبري (٧/٤٤٩).
(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٨١٧).

المبحث الخامس

تكذيب الدعاوى العريضة وتقرير ما يضادها

من مواقف القرآن الكريم تجاه أسئلة الأقوام أن كذب الله دعواهم، ومن تلك الدعاوى العريضة التي ادعوها إلزامهم للرسل أن يأتوا بالمعجزات من عند أنفسهم خاصة، أو من عند الله بذريعة، أو غير ذريعة تكذيبًا منهم لله ورسله، ونجد أن القرآن الكريم قرر قواعد كلية منها: أن المعجزات من عند الله، وليست من عند الرسل، وإنما هي من دلائل صدق نبوتهم وأن المرسل إلى الأقوام لا بد أن يكون من البشر، وأن حقيقة البعث والحساب والجزاء والجنة والنار وعد إلهي صادق مهما طال الزمان؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

والإيمان بتلك القواعد يدعو إلى حُسن الاتباع والتلقي والاستقامة ومفارقة أهل الجاهلية وردِّ اقتراحاتهم من أصلها.

أ ـ رد القرآن الكريم اقتراحاتهم من أصلها، وذلك في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

جاءت هذه الآيات ردًا على المشركين الذين لا يخافون العذاب،

ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم الحساب، وكانوا إذا تليت عليهم الآيات الواضحات يقولون لمحمد ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يُونس: ١٥]. فسؤالهم جاء تعنتًا منهم وجحودًا للحق وإعراضًا عنه(١).

فرد القرآن الكريم اقتراحات كفار قريش من أصلها، وجاء ذلك في ست إجابات:

الإجابة الأولى: تكذيب دعواهم في أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ؛ بأن أجاب الرسول عن شيء من كلامهم على سبيل التوبيخ، إنه لا يصح له وليس من شأنه أن يبدل هذا القرآن الكريم من قبل نفسه بناء على متابعة الهوى(٢)؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يُونس: ١٥]. وترك شيئًا وهو الإتيان بقرآن غيره لأنه إذا كان لا يمكنه تبديله؛ فالإتيان بغيره أولى بالامتناع(٣).

الإجابة الثانية: التشديد على نقض دعواهم في قدرة محمد ﷺ، في استبدال ما في القرآن الكريم نسخًا أو إثباتًا: وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعَام: ٥٠] فقصر مهمته ﷺ بتأكيد أن القرآن الكريم وحي من عند الله، وأنه عبد مأمور يتبع ما يوحى إليه من هذا القرآن الكريم فيبلغه للناس، وفي ذلك جواب ثان ينقض قدرة محمد ﷺ على نسخ بعض الآيات ببعض(٤).

الإجابة الثالثة: تأكيد ثالث لتكذيب دعواهم أن القرآن الكريم من عند غير الله: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعَام: ١٥] بإعلان محمد ﷺ خشيته وخوفه أن يحل عليه عذاب

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٤٠)، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣)، تفسير حقي (٥/٢٣٨).

(٢) أصول السرخسي (٢/٧٢)، تفسير القرطبي (٨/٣١٩)، تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣)، تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣).

(٣) كتب ورسائل للعثيمين (١١٤/١٥).

(٤) تفسير الطبري (١٥/٤١)، تفسير القرطبي (٨/٣١٩)، تفسير البيضاوي (٣/٩)، تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣).

من ربه يوم القيامة إن عصاه في تبليغ ما يوحى إليه من القرآن الكريم، وفي ذلك إبطال لمزاعم الكفار أن محمدًا ﷺ قادر على أن يبدّل القرآن الكريم من تلقاء نفسه[١].

الإجابة الرابعة: إقامة الحجّة عليهم في صحة ما جاءهم به من القرآن الكريم: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يُونس: ١٦] أي أجب يا محمد قومك بأن الأمرَ كلَّه متعلق بمشيئة الله تعالى، وليس لك من الأمر شيء فإن شاء الله سبحانه وتعالى أنزل من هذا القرآن الكريم ما شاء وأعلمهم به بواسطتك، وإن لم يشأ لم تتلُه عليهم[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ إشارة إلى أن التلاوة أفضل من القراءة للقرآن[٣].

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ثلاث قراءات: فقد قرئت ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ وهي قراءة الجمهور، فيكون المعنى لو شاء الله ما أمرني بتلاوة القرآن الكريم ولا أعلمتكم به[٤].

وقرأ ابن عباس والحسن وابن سيرين وأبو رجاء ﴿**ولا أدرأكم به**﴾، فيكون المعنى ولو شاء الله لدفعكم عن الإيمان به عمرًا، وقرأ ابن كثير ﴿**ولأدراكم به**﴾، فيكون المعنى: لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم[٥]. والمعنى عليه: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولو شاء لجعلكم تدرون معانيه فلا تكذبوا[٦].

---

(١) التفسير الميسر (٣/٣٨٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/٢٤٥).

(٣) المرجع السابق.

(٤) حجة القراءات (١/٣٢٨)، تفسير الطبري (١٥/٤٥)، المحرر الوجيز (٣/٣٤٦)، فتح القدير (٣/٣٥٤).

(٥) تفسير القرطبي (٨/٣٢٠)، التبيان في إعراب القرآن (٢/٢٦)، الحجة في القراءات السبع (١/١٨٠).

(٦) التحرير والتنوير (٦/٤٤٧).

الإجابة الخامسة: القدح في صحة عقل من نسب القرآن الكريم إلى رسول الله محمد ﷺ؛ لأن أصحاب هذا السؤال شاهدوا محمدًا ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، فقد لبث فيهم أربعين سنة قبل الرسالة لم يحدثهم بشيء، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتابًا، ولا تعلم من أحد، ثم جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي اشتمل على علوم، وأحكام، وأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء ولو كان هذا القول من عنده لجاء به في أيام شبابه كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يُونس: ١٦] ثم ختم جوابه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] وهي للاستفهام التوبيخي جاءت لتقدح في صحة عقل من لم يؤمن بأن هذا الكتاب لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل، فكل من له عقل سليم يعرف أن ذلك لا يحصل إلا بالوحي والإلهام، ومثل هذا لا يأتي على يد من لم يتعلم، ولم يطالع كتابًا، فهم جاهلون لهذا الأمر الجلي الواضح وأن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التي اقترحوها لا يملك تنفيذها أحد إلا الله تعالى(١).

الإجابة السادسة: إطلاق وصف الأظلم على من أنكر أن يكون هذا القرآن الكريم من عند الله: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: ١٧]. أي لا أحد أكثر ظلمًا ولا أشد إجرامًا ممن اختلق على الله الكذب، أو كذَّب بآياته وكفر بما أنزل الله على رسله جحودًا واستكبارًا، فبعد أن صرحوا بنفي أن يكون القرآن الكريم من عند الله، وأقام عليهم الحجة بأن ذلك من عنده، وأنه ما يكون لمحمد ﷺ أن يأتي بالقرآن الكريم من تلقاء نفسه، ثم خص المفتري على الله الكذب والمكذبين بآياته، بأنهم أظلم الناس ولا أحد أجرم منهم، فلا يفلح، ولا يفوز بمطلوب من كذّب أنبياء الله ورسله(٢).

---

(١) تفسير البغوي (١٢٦/٤)، تفسير الرازي (٤٧/١٧)، الوسيط لسيد طنطاوي (٢٠٩١/١).

(٢) الوجيز للواحدي (٣١٢/١)، تفسير الخازن (٣٨٥/٣)، التفسير الميسر (٣٨٩/٣)، التحرير والتنوير (٤٤٩/٦).

الحكمة من تكذيب القرآن الكريم لدعاواهم:

١ ـ أن سؤالهم جاء على سبيل التكذيب والتشكيك، فقالوا ذلك للامتحان، فإذا فعل ذلك علموا أنه كاذب في قوله إن القرآن الكريم من عند الله فيهلكه الله فينجون ويستريحون(١).

٢ ـ تأكيد أنه ليس لأحد من الخلق القدرة على أن يأتي بهذا القرآن الكريم من عند نفسه، ولا أن يبدِّل كلامه أو يغيّر فيه(٢)، فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

٣ ـ رفض مطالب المشركين وإعلان أن القرآن كلام الله، وأن مهمة الرسول تبليغ ما يوحى إليه، واتباع ما يتلوه عليهم منه، وفي إظهار خوف الرسول ﷺ وخشيته من عذابه تهديد ووعيد لأصحاب هذا السؤال من كفار قريش(٣).

٤ ـ شهادة للرسول ﷺ من ربّه بأنه لا يخشى ولا يخاف من أحد سوى الله سبحانه وتعالى، ولا يطيع أهل الكفر في أهوائهم؛ كما كان عليه أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام كلهم بمحل الخشية والخوف من الله تعالى، كما وصفهم بذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزَاب: ٣٩]. وخوفهم ليس خوف معصية وإساءة، وإنما هو خوف إعظام وتبجيل(٤).

٥ ـ كون المبلغ للقرآن لم يقرأ، ولم يكتب، فقد عاش أربعين سنة لم يعرف فيها علمًا ولا معرفة، ثم برز في شيء من العلوم والمعارف

---

(١) الكشاف (٣١٩/٢).

(٢) الموسوعة الفقهية (٣٦٣٢/٢).

(٣) تفسير حقي (٢٣٨/٥).

(٤) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، (٢٠٣/١).

فتفوق وفاق كل أحد، كل ذلك دليل على أنه نبي يوحى إليه، ودليل على أن القرآن الكريم كلام الله بإعجازه من حيث النظم والأسلوب والمعاني التي اشتمل عليها، وبتحديه لهم بمعارضته والإتيان بمثله أو بسورة من مثله.

٦ ـ تعريف نبيه الحجة على قومه إظهارٌ لكمال الاعتناء بشأن القرآن الكريم وإيذان باستقلاله وبطلان ما يقترحون الإتيان به مفهومًا وأسلوبًا.

٧ ـ استنكار اتّهام الرسول ﷺ بالكذب والافتراء بتذكيرهم بماضيه قبل إنزال القرآن الكريم، لأنهم أعلم الناس بما اتصف به من مكارم الأخلاق فقد عُرِفَ عندهم بالصادق الأمين(١).

في هذا العرض المتقدم تسلية للدعاة، فما من حق إلا يقابله باطل، وما من مصلح صادق إلا له أعداء، فكما جعل الله لأنبيائه أعداء من كفار أقوامهم فقد جعل الله لنبيه محمد ﷺ أعداء من كفار قومه، وكذلك الدعاة المصلحون يكون لهم أعداء من أقوامهم، فعليهم الصبر؛ كما صبر الأنبياء والصالحون والعاقبة للصابرين، فالله سبحانه وتعالى هاد وناصر لهم.

يبيّن هذا العرض للمدعوّين عظم جرم من حرّف وبدّل في القرآن الكريم من عند نفسه، فإذا كان أفضل الخلق محمد ﷺ قد تحرّج من تبديل القرآن الكريم بهذا الأسلوب؛ فكيف يسوّغ لأحد مهما كان أمره أن يبدّل فيه ويغيّر بمرادف أو غير مرادف(٢).

كما يوضح لهم أنّ الرّسول ﷺ كان حريصًا على التّفريق بين ما يقوله عن اجتهاد من نفسه، وبين ما ينسبه إلى الله تعالى؛ ولهذا قال:

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/٢٤٦).

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٠٧).

«فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَإِنَّ الظَّنَّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللهُ فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ»[١].

وفي العرض تحذير المدعوّين من التّأويلات الفاسدة لآيات في القرآن الكريم من أهل البدع والضّلال، فلا أحد أظلم من أحد رجلين: رجل يكْذب على الله تعالى وآخر يُكذِّبُ الله تعالى»[٢].

وتختم هذه التوجيهات ببيان تحريم قراءة القرآن الكريم بالأعجمية، وقراءته بغير العربية في الصّلاة المفروضة لا تجوز بإجماع الأمّة على ذلك، فلو أنّ إنسانًا قرأ القرآن الكريم فقدّم آية على أخرى، أو بدّل بوضع كلمة مكان أخرى، وقال هذا هو القرآن الكريم المنزّل لكان كافرًا بإجماع، فكيف يسوّغ لأهل الجهل والعمى إباحة القراءة المفروضة في الصّلاة بالأعجمية[٣].

الموضع الثاني: من ردّ اقتراحاتهم من أصلها في القرآن الكريم: وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحِجر: ٨]. جاءت هذه الآية ردًّا على كفار قريش الذين اقترحوا أن تأتي الملائكة شاهدة لمحمّد ﷺ في أنّ الله تعالى بعثه إليهم رسولًا وأنزل عليه كتابًا، حجّة له عليهم، وآية له على نبوّته[٤].

الموضع الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعَام: ٨]. جاءت هذه الآية ردًّا على كفّار قريش الذين تنازلوا في اقتراحهم من إنزال ملائكة إلى أن يُنزل على الرّسول ملَك من السماء في صورته التي خُلق عليها يسمعون كلامه ويرونه، ويصدّق الرّسول فيما جاء به، ويشهد له بحقيقة ما يدّعيه بأنّ الله أرسله إليهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٦/٧، رقم ٢٥٦٤).

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (١٢٣/٢).

(٣) مناهل العرفان (١١٦/٢)، المحلى (٤١١/٨).

(٤) تفسير الطبري (٦٦/١٧).

وقد واجه القرآن الكريم هذين السؤالين من كفار قريش بردّ اقتراحاتهم من أصلها، وجاء ذلك في أربع إجابات:

الإجابة الأولى: اقتران هلاكهم بنزول الملَك:

١ - إنّ الاستجابة لسؤالهم تعجيل لأنفسهم بالهلاك والدّمار؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحِجر: ٨].

٢ - إنّ الملائكة لا تنزل إلا بالحقّ لا بحسب اقتراح واختيار الكافرين[١]، وقيل إنّ معنى الحقّ هنا العذاب الذي يعاقبون به من غير استئصال؛ كما أنزل الله الملائكة ببدر وغيرها من معارك الرّسول هزيمةً وخِزيًا للكافرين ونصرًا للرّسول والمؤمنين.

٣ - إنّ الملائكة لا تنزل إلّا بعذاب الاستئصال، واقتضت حكمة الله أن لا يفعل بأمّة محمد ﷺ ذلك؛ بل يمهلهم لما علم من إيمان بعضهم أو إيمان ذريّتهم[٢].

الإجابة الثانية: إنّ الاستجابة لسؤالهم تستوجب الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

١ - إنّ الله تعالى يهلكهم كما هي سنّته فيمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات ثمّ كفرت بعد مجيئها، فعوجلوا فاستوجبوا عقاب الله واستؤصلوا بالعذاب[٣].

٢ - إنّهم لا يستطيعون النّظر إلى الملك بسبب عدم اللياقة ولذلك كان جبريل يأتي النّبي ﷺ في صورة دِحْية الكلبي، وجاء الملكان إلى دَاوُد عليه السلام في صورةِ رَجُلَيْنِ[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٢٧)، تفسير السعدي (٤٢٩).
(٢) تفسير البغوي (٤/٣٦٩)، تفسير اللباب لابن عادل (١٠/٢٢).
(٣) تفسير الطبري (١١/٢٦٧)، تفسير البغوي (٣/١٢٩)، مدارج السالكين (١/٢٤٥).
(٤) تفسير الخازن (٢/٣٧٠).

٣ ـ يكون هلاكهم برؤية الملائكة وذلك بقيام السّاعة، قال به ابن عباس ومجاهد وعكرمة: «معناه لقامت القيامة»[(١)].

الإجابة الثالثة: حكمة التّشريع تستوجب أن يكون الرّسول رجلًا: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

١ ـ هذا جواب ثالث مناسب لردّ الاقتراحين ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] و﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧]، ولكنّه رُوعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى الثاني لكلامهم أي ولو جعلنا الرّسول إليهم ملكًا لتعيّن أن نصوّر ذلك الملك بصورة رجل[(٢)].

٢ ـ والجنس إلى الجنس أميل، فلو جعل الله الرّسول ملكًا لنفروا منه ولداخلهم الرّعب من كلامه، ويمنعهم ذلك من سؤاله فلا تعمّ المصلحة بتبليغ الرّسالة، والنّبوة فضل من الله يختص بها من يشاء من عباده، فيكون طلب إرسال الملك بصورته الحقيقية لغوًا لا فائدة فيه[(٣)].

الإجابة الرابعة: الاستجابة لسؤالهم تستوجب الالتباس في أمر هذا الملَك: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

١ ـ يلتبس عليهم أمرُه، أن لا يدروا أملك هو أمْ إنسيّ:

قال ابن عباس: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، يقول: «لشبَّهنا عليهم»[(٤)].

٢ ـ التّلبيس بمعنى التّحريف: قال الضّحاك في قوله: «﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾، يعني: التحريفَ، هم أهل الكتاب فرقوا كتبهم

---

(١) تفسير الطبري (٢٦٧/١١).
(٢) زاد المسير (٨/٢).
(٣) تفسير البيضاوي (٣٩٣/٢).
(٤) تفسير الطبري (٢٦٨/١١)، الجواب الصحيح (٣٦٢/٢).

ودينَهم، وكذَّبوا رسلهم، فلبَّس الله عليهم ما لبَّسوا على أنفسهم»[١].

وبهذه المواقف الحكيمة يكون القرآن الكريم قد ردّ اقتراح أولئك الجاحدين فأبطل الله سبحانه وتعالى اقتراحهم في إنكار ظهور ملك إلى النّاس ظاهرًا إلّا إلى الأنبياء بالحقّ من عند الله.

ووقف وجهًا لوجه أمام جهلهم بمصلحة أنفسهم، فهم يرفضون الرّحمة والهدى ويتعنّتون في سؤال يكاد يدمّر حياتهم لجهلهم بسنّة الله في تنزيل الملائكة على هيئتهم التي خلقهم الله عليها، إذ لا يُمْهَلون بعد نزوله طرفةَ عينٍ، وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يهلك هذه الأمّة بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين المستكبرين[٢].

الحكمة من ردّ اقتراحهم من أصله:

١ - تأكيد أنّ المراد من بعث محمد ﷺ للعالمين إخراجهم من الظّلمات إلى النّور بدعوتهم إلى عبادته مخلصين له الدّين، وليس المراد من بعثه أن يُظهر آياته بحسب اقتراح الضّالّين[٣].

٢ - علم الله سبحانه وتعالى أنّ اقتراح كفّار قريش جاء ظنًّا منهم أنّ ذلك تعجيز لمحمّد ﷺ وقدح في نبوّته، وليس بنيّة الإيمان والتّصديق بما جاء به.

٣ - ردّ الله اقتراحهم من أصله لعلّهم يدركون رحمته عليهم في أنّ عدم الاستجابة لسؤالهم جاء إمهالًا لهم من الهلاك، فلو أجيبوا لاستؤصلوا، فالملائكة لا تتنزّل إلّا لتحقيق أمره فيهم بالهلاك والدّمار[٤]. وهم لا يميّزون مصلحتهم من مضرّتهم.

٤ - في رؤية الملائكة زوال الاختيار الذي هو قاعدة التكليف فيجب إهلاكهم.

---

(١) تفسير الطبري (٢٧١/١١).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١٤٣٣/١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٦٧/٤).

(٤) المرجع السابق.

٥ ـ عدم طاقتهم على التّلقي عن الملك، ومع ذلك جاء سؤالهم استكبارًا وعتوًّا وخروجًا عن حدّ العبودية إلى مقام المنازعة والمفاوضة، قال الحوالي: «من الحيوان المخلوق من لا يستطيع الإنسان رؤيته فضلًا عن الملك، أي أنّ الإنسان قدرته ونظرته محدودة وهذا لا يناسب موضوع الرّؤية هنا».

٦ ـ تسلية للرّسول ﷺ عمّا يلقاه من عناد المعرضين وتعنُّت المكذّبين، وفيه وعد له وللمؤمنين بالنّصر والعاقبة الحسنة في الدّنيا والآخرة، أسوة بمن سبقه من الأنبياء.

ما يستفيده الدّاعية من موقف القرآن الكريم تجاه هذا السؤال:

١ ـ أن يبين للمدعوّين أنّ الملائكة من الغيب والتّصديق بهم ركن من أركان الإيمان، وذمّ أهل الجاهلية العلمية الحديثة الذين يسخرون من الغيب كلّه، فهم جعلوا الأمور الغيبية في كفّة والأمور العلمية في كفّة أخرى، فنفوا تصوّر خلق مسمّى بالملائكة في التصوّر لكنّهم في جانب تصورهم عن الملائكة ناقضوا أنفسهم، وذلك أنّ علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى تختلف في تركيب جوّها وظروفها وطبيعتها عن جوّ الأرض[1].

٢ ـ تنبيه المدعوّين على أنّه مهما بلغت مكانة الشخص عند الله سبحانه وتعالى فقدراته محدودة، وتحذير العباد من التعلّق بالمخلوق في تحقيق مطالبهم والتعلّق بالله وحده، فهو الذي بيده ملكوت كلّ شيء، فالكون كلّه بيد الله تعالى. وتأكيد أنّ عدم استجابة الله للعبد في مسألته خير ورحمة له، لأنّه قد يكون في تحقيقها هلاكه.

٣ ـ كلّما كان الدّاعية من جنس المدعوّين عالمًا بلغتهم ملمًّا بعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم قريبًا منهم، متواضعًا لهم يشاركهم في مأكلهم

(١) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٦/٧).

ومشربهم، وينام كما ينامون، كان ذلك أنسب للدعوة وأجدى. ولو كان مخالفًا لهم في كلّ ذلك لكان غير مفيد للدّعوة، ولو أنزل الله ملكًا رسولًا لقالوا نريده بشرًا مثلنا ولحصل الخلط واللبس.

٤ ـ أن يكون في حسبان الدّاعية أنّه سيواجه عقبات من المدعوّين كسؤال أمور مستحيلة كما كانت مطالب مشركي قريش عجيبة وتهدف إلى اختلاق الأعذار والتّشكيك لا البحث عن الحقيقة، وكذلك الضّالون في كلّ زمان ومكان غايتهم إزهاق الحق وإحقاق الباطل والتّشكيك فيما يدعو إليه الداعية، فعليه التّحلي بالصبر، والحلم، والحكمة.

ب ـ من مواقف القرآن الكريم في تكذيب الدّعاوى العريضة وتقرير بعض القواعد الكليّة في القرآن الكريم (بيان الآيات الدّالة على صدق الأنبياء):

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. جاءت هذه الآية ردًّا على المشركين الذين قالوا لمحمّد ﷺ: هلّا اخترت واختلقت آية من عند نفسك، لأن كفّار مكة يسألون النّبي ﷺ الآيات تعنّتًا، فإذا تأخّرت اتّهموه باختلاق الآيات من عند نفسه(١). كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾.

وكان الجواب تشديدًا على أنّ القرآن الكريم معجزة دالة على صحة نبوّة محمّد ﷺ، وجاء ذلك في إجابتين:

الأولى: تأكيد أنّ القرآن الكريم وحي من عند الله: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾. أمر الله نبيه ﷺ بأن يخبرهم عن نفسه بأنّه لا يخترع القرآن الكريم، ولا يطلب آية من الله فإنّما هو عبد مُتَّبع، والله تعالى هو الذي ينزّل الآيات، ويرسلها على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة، فإن بعث آية قبلَها، وإن منعها لم يسأله ابتداء

---

(١) تفسير البغوي (٣/٣١٨)، تفسير اللباب لابن عادل (٨/١٠٠)، التفسير الميسر (٣/١٦٤).

إيّاها، وأنّه ليس لنبي أن يقترح على ربّه وليس له إلّا أن ينتظر الوحي[(١)].

الإجابة الثانية: تأكيد أنّ القرآن الكريم معجزة كافية لإثبات النّبوة: وذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: ٢٠٣] أي أنّ هذا القرآن الكريم الذي جاءهم به رسول الله ﷺ معجزة تامّة كافية لإثبات النّبوة وأنّه بمنزلة البصائر للقلوب به تبصر الحق وتدرك الصواب، وقيل عنه إنّه حججٌ بيّنة وبراهين نيّرة فكيف لهؤلاء المشركين أن يطلبوا الخوارق المادية، ويغفلوا عن هذا القرآن الكريم الذي هو هدًى ورحمة للمؤمنين ولكلّ من اهتدى بهديه، فالمؤمن المهتدي بالقرآن الكريم يسعد به في الدّنيا والآخرة، وأمّا من لم يؤمن به فإنّه ضالٌّ شقي في الدّنيا والآخرة[(٢)].

الحكمة من توضيح أنّ القرآن الكريم معجزة دالة على صدق محمد ﷺ:

١ ـ أن يكون بصيرة لمن استبصر، وهدى لمن اهتدى به، فإذا كان هذا القرآن الكريم معجزًا لا يقدر عليه ولا على شيء منه سوى ربّ السموات والأرض وجب الإيمان به واتّباع ما فيه قولًا وعملًا حتّى يتحقق بذلك سعادة الدارين[(٣)].

٢ ـ وهو نعمة الله عليهم، وهو الدّليل والمدلول فمن تفكّر فيه وتدبّره عَلِمَ أنّه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجّة على كلّ من بلغه، فالمؤمن مهتد بالقرآن الكريم، متّبع له، سعيد في دنياه وأخراه وأمّا من لم يؤمن به، فإنّه ضالّ شقي، في الدنيا والآخرة[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (٣٤٣/١٣)، التسهيل لعلوم التنزيل (٥٦/٢)، تفسير النسفي (٤٠٧/١)، تفسير ابن كثير (٥٣٥/٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤٩٣/٢)، تفسير أبي السعود (٨٩/٣)، تفسير السعدي (٣١٤).

(٣) الأمثال القرآنية القياسية (٩٨/٥).

(٤) تفسير السعدي (٣١٣).

٣ - إظهار تعنّت وتشدّد أهل مكة مع النّبي ﷺ بسؤالاتهم شبه المستحيلة والتي كان الغرض منها التّهرب من الإيمان بالله، والإصرار على الكفر[(١)].

٤ - تأكيد أنّ النّبي ﷺ إنّما ترك الإتيان بتلك المعجزات التي اقترحوها لأنّ القرآن الكريم معجزة تامّة كافية في إثبات صحة النّبوة، وعبّر الله عن هذا المعنى بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣][(٢)].

٥ - إظهار أنّه لا مصلحة في الردّ على تلك الاقتراحات، فالحقّ في هذا القرآن الكريم بيّن؛ فما يتخلّف عنه أحد يعلمه إلّا أن يكون الهوى هو الذي يصدّه عنه[(٣)].

٦ - إظهار التّحدي في أنّ هذا القرآن الكريم الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه، من أي جانب من الجوانب شاء الناس، هو المعجزة في أيّ زمان وفي أيّ مكان.



(١) التفسير المنير (٥/٢٣٨).

(٢) أرشيف ملتقى أهل الحديث (١/١٣٧٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٦/٢١٢).

المبحث السادس

بعث الرسل الحكم والمقاصد

كان كشف هذه الحكم من مواقف القرآن الكريم تجاه أسئلة كفّار قريش المتعنّتة لمحمّد ﷺ باقتراح المعجزات التي لم يكن القصد منها طلب الدّليل والإيمان بما جاء به، ولكن دفعهم جهلهم وحسدهم وحبهم للرياسة فردّوا رسالته جحودًا واستكبارًا، وقد أجاب الله عن أسئلتهم بكشف بعض حكمه من شرائعه وأوامره، وتوضيح المقصود من بعثة الرسل بإعلام هؤلاء المقترحين من كفّار قريش أنّ الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيه من أجل إظهار المعجزات والخوارق الدّالة على قوّته وتمكينه في الأرض، وليس له أن يتخيّر على ربّه باقتراح الآيات فهو رسول من البشر جاء بشيرًا ونذيرًا مبلّغًا للرسالة ومتمّمًا لمكارم الأخلاق، لا يقدر على شيء إلّا بإذن الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وكان من أهم مواقف القرآن الكريم في هذه المواجهة، بيان المقصود من بعثة الرسل، وجاء ذلك في ستة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٦]. جاءت هذه الآيات ردًّا على المشركين الذين قالوا لمحمّد ﷺ لن نصدّق أنّك نبي مرسل من الله ونتّبعك حتّى تفجر الأرض ينابيع من الماء، أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب تجري من بينها الأنهار، أو تسقط علينا قطعًا من السماء، أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا، أو يكون لك بيت من ذهب، أو تصعد إلى السماء، ثمّ اشترطوا إنزال كتاب من السماء يقرؤونه(١)؛ فكان ردّ القرآن الكريم على هذه السؤالات منهجًا نحو بيان الحكم والمقاصد الكبرى من إرسال الرسل وهي إخراج النّاس من ظلمات الكفر إلى نور التّوحيد، والرّسول ما هو إلّا بشر تليق به هذه المهمّة الكبرى مع بني جنسه وأيّ طلبات من أقوام الرسل خارج هذا الإطار فإنّما تدل على جهل وعناد وهروب من استحقاق الإيمان.

ولهذا نجد القرآن الكريم قد واجه اقتراحات الأقوام بردود حكيمة قاطعة:

١ ـ تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به وأنّ محمدًا ﷺ بشر يقف عند حدود بشريته ويعمل وفق تكاليف رسالته، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٣]. لما تضمن اقتراحهم ما هو مستحيل في حقّ الله تعالى أمر الله نبيه بتسبيحه وتنزيهه عمّا لا يليق به، ومن أن يقترح عليه ما ذكروه، ثمّ ختم الجواب بالاستفهام الإنكاري وبصيغة الحصر التي تقتضي قصر نفسه على البشرية بقوله: هل أنا إلّا عبد من عبيده، فكان المقصود من هذا الكلام إظهار العجز والضعف، ثمّ جاء بقصر إضافي آخر وهو الرّسالة والنّبوّة قائلًا لهم: إنّما أنا رسول أبلّغكم ما أرسلت به إليكم كسائر الرسل من قبلي، فهم لا يأتون أقوامهم إلّا بما يظهره الله عليهم، فأمر الآيات

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨)، تفسير الرازي (١٠/١٣٧).

إلى الله، وليس لأحد أن يتخيّرها عليه، فأدب الرّسالة وإدراك حكمة الله في تدبيره يمنعان الرّسول أن يقترح على ربّه ما لم يصرح له به، بل إنّه يقف عند حدود بشريته، ويعمل وفق تكاليف رسالته، فكان هذا جوابًا زاخرًا بالحقّ والصدق أمام تعنّت المتعنّتين المطالبين بالبراهين المادية(١).

وقُرئ قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٩٣] بصيغة فعل الأمر، وهي قراءة الجمهور، فيكون المعنى أي قل لهم: يا محمّد، ما أنا إلّا بشر رسول أتبع ما يوحى إليّ من ربي.

وقرئ ﴿قَالَ﴾ بصيغة الماضي على أنّه حكاية لجواب الرسول ﷺ عن قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] على طريقة الالتفات، أي قال ذلك تنزيهًا لله ﷻ من أن يُتحكَّم عليه، وقيل: هذا كلّه تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم.

٢ ـ بيان السبب الذي منع الأمم كافّة من الإيمان بالله مع قيام المعجزة الدّالة على صدق الرسل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. في هذه الآية تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرسل لأنّهم من جنسهم فما منعهم من الإيمان بالله وبرسله وطاعتهم، حين جاؤوهم بالبيّنات الكافية من عند الله إلّا أن قالوا جهلًا واستنكارًا: أبعث الله بشرًا رسولًا، فبيّن الله تعالى حقيقة أمرهم ببيان العلّة الأصليّة التي تبعث على الجحود في جميع الأمم، وهي: توهُّمُهم الباطل استحالة أن يبعث الله للنّاس بشرًا رسولًا. فذلك التّوهم في قولهم: أنت مثلنا في البشرية، فلا يلزمنا الانقياد لك بالطاعة، وهو مثار ما يأتونه من المعاذير، ومختلف المقتَرحات، وما قصدهم

(١) تفسير الطبري (٥٥٨/١٧)، تفسير الرازي (١٣٧/١٠)، تفسير البيضاوي (٤٤٧/٣)، تفسير البحر المحيط (٣٩٨/٧).

من ذلك إلّا إرضاءُ أوهامهم بالتّنصل من الدّخول في الدّين؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التّغابُن: ٦]. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كلّ آية، فلو أتاهم الرّسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا: إنّ ذلك سحر أو قلوبنا غلف، فما منعهم من الإيمان إلّا فرط عنادهم، وغفل المشركون عن معجزة القرآن الكريم فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك، أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته، فثبت أن قولهم بأن الرّسول لا بدّ وأن يكون من الملائكة تحكّم فاسد، وتعنُّت باطل[1].

٣ ـ التأكيد من الله أنّ الرّسول لا بدّ أن يكون من جنس المرسل إليهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٥]. أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يجيب قومه المنكرين أن يكون الرسول من البشر بجواب مبين قاطع، وهو أنّه لو كان في الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين لأرسل الله إليهم رسولًا من جنسهم ليتمكّنوا من مخاطبته، وفَهْم كلامه، ولكنّ أهل الأرض بشر وليس في بعثة الملائكة إليهم فائدة، فالجنس إلى الجنس أميل والشيء عن شكله أفهم وبه آنس، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣]. ويلاحظ أنّ هذا الجواب لم يرد في القرآن الكريم إلّا لمحمّد ﷺ وتفرّد به مع أنّ استنكار الأقوام لبشرية الرسل تكرّر مع من سبق محمّد ﷺ فكانوا يتلقون ذلك من أقوامهم، واستبعاد أن يكونوا من المرسلين باستنصار الله تعالى عليهم، فقال عن نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. فما كان جوابه

(١) تفسير الطبري (٥٥٨/١٧)، تفسير الرازي (١٣٨/١٠)، تفسير القرطبي (٣٣٢/١٠)، تفسير ابن كثير (١٢١/٥).

إلّا أن استنصر عليهم ربّه؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وحكى مثله عن صالح، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]. فما كان جوابه إلّا أن استنصر عليهم ربّه؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩] وكذلك حكي بمثله عن هود، وشُعيب، وموسى وهارون[1].

وقد بيّن العلماء المراد من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥].

قال ابن جرير: «قل يا محمّد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك وتصديقك فيما جئتهم به من عندي، استنكارًا لأن يبعث الله رسولًا من البشر: لو كان أيّها النّاس في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لَنزّلْنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا لأنّ الملائكة إنّما يراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصّه الله من بني آدم برؤيتهم، فأمّا غيرهم فلا يقدرون على رؤيتهم، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم، وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها، وإنّما يرسل إلى البشر الرّسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولًا أرسلناه منهم ملكًا مثلهم»[2]. وقال غيره قريبًا من ذلك.

٤ ـ الكلام بما يجري مجرى التّهديد لهم وإقامة الحجّة عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسرَاء: ٩٦]. أمر الله سبحانه وتعالى محمّدًا ﷺ أن يجيب قومه كما أجاب الرسل أقوامهم من قبل بقوله: كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم على صِدْقي، وحقيقة نبوّتي، وفي ذلك تهديد للكفار وتعهد لنبيه بالفصل بينه وبينهم، فسبحانه خبير بأحوال عباده،

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨)، بحر العلوم للسمرقندي (٣/٢٧)، تفسير البغوي (٥/١٣١)، تفسير السراج المنير (١/٢١٥٨).

(٢) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨).

بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وسيجازيهم عليها. فما دامت هذه سنّة الله في خلقه، فهو يأمر الرّسول ﷺ أن ينهي الجدل مع قومه، وأن يوكل أمره وأمرهم إلى الله فيشهده عليهم، ويدع له التّصرف في أمرهم، وأنّ الله تعالى لمّا أظهر المعجزة على رسالته، كان ذلك شهادة له من الله تعالى على كونه صادقًا، ومن شهد الله على صدقه، فهو صادق فقول القائل بأنّ الرّسول يجب أن يكون ملكًا لا إنسانًا تحكّم فاسد لا يلتفت إليه[١].

تكشف لنا سؤالات الأقوام المتقدمة وردّ القرآن الكريم عليها عن هدايات يحسن أن يتنبه إليها وهي:

١ ـ إبطال استنكار الأقوام لبشرية الرسل وإعلامهم بمهمتهم التي جاؤوا من أجلها وهي الدّعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والبشارة لمن آمن وعمل صالحًا بالجنّة والنّذارة لمن أعرض وتولى بالنّار.

٢ ـ في تكرار لفظ رسولًا في الإجابة الأولى من قوله تعالى: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٤] وفي الإجابة الثانية من قوله تعالى: ﴿مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسرَاء: ٩٥] بيان أنّ مهمة الرّسول إرشاد المرسل إليهم إلى الخير، وهدايتهم إلى الحق، ونفي قدرتهم على تحقيق المعجزات والخوارق، وتأكيد أنّ القدرة لله، فالرّسول لا يتحكّم على ربّه ولو كان ملكا من الملائكة[٢].

٣ ـ إعلان الرسول ﷺ بأنّه بشر رسول فيه إظهار للعجز، والضعف، والتّواضع لله والخضوع له، والاعتراف بعبوديته، حتّى لا يُعتَقد فيه مثل اعتقاد النّصارى في المسيح عليه السلام[٣].

٤ ـ لمّا سمع المُسْلِمون مطالبة الكُفّار للرّسولِ ﷺ بهذه المُعْجِزات وقع في

---

(١) تفسير الطبري (٥٥٩/١٧)، تفسير الخازن (٢٨٦/٤)، تفسير البحر المحيط (٣٩٩/٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥٠١/١).

(٣) تفسير الرازي (٢٩٣/٦).

قلوبهم مَيْلٌ إلى ظُهُورها، فجاء هذا الجواب ليبيّن لهم أنّه لا يَنْبَغِي لهم أن يُطالِبُوا بذلك، فربّما كان ظُهُورها يُوجِبُ ما يَسُوؤهُم[١].

٥ ـ أنّ تميز الملائكة بالقوة، وقدرتهم الفائقة على فعل خوارق العادات، ليست دليلًا على كونهم أفضل من الرسل البشر[٢].

٦ ـ تسلية لرسول الله ﷺ، وتثبيت لنفسه بإعلام النّاس أنّه ليس من شروط صحة الرّسالة أن يأتي الرّسول بكل ما يطلب منه فما عليه إلّا تبليغ الرّسالة والشرائع والأحكام[٣].

٧ ـ إظهار الحكمة في كون الرسل من جنس المرسل إليهم أكمل لإقامة الحجج، لكونهم من جنسهم فيستطيعون التّفاهم معهم، وسؤالهم عمّا يهمهم، ويتمكّنون من فهم كلامهم فيكون ذلك أدعى لنجاح التّبليغ عن الله[٤].

٨ ـ شهادة الله تعالى للرّسول ﷺ على صدق رسالته، فهو البصير بعباده، الخبير بأعمالهم، وهو يجازيهم عليها وهذا يستدعي وجوب الإيمان بكون الرسول ﷺ من عند الله بقيام المعجزة الدّالة على صدقه فتلك المعجزة هي التي تهديهم إلى معرفة صدق ذلك الرسول في إدعاء رسالة الله تعالى، وأنّ كثرة الخوارق لا تنشئ الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو ذا موسى قد أوتي تسع آيات بيّنات فكذب بها فرعون وملؤه، فحلّ بهم الهلاك جميعًا.

٩ ـ ختم الله سبحانه وتعالى الإجابات بما يجري مجرى التّهديد والوعيد فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠] فهو سبحانه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ويعلم ما في قلوبهم وأنّه ليس غرضهم من تلك الاقتراحات

(١) تفسير اللباب لابن عادل (٦/٢٥٨).
(٢) تفسير الرازي (٦/٢٩٣).
(٣) تفسير الرازي (١٠/١٣٨).
(٤) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث (٤/٤٦٨).

إلّا الحسد، وحب الرّياسة، والاستنكاف من الانقياد للحقّ[١].

١٠ - تأكيد ما اقتضته حكمة الله التي توجب أن يكون المرسل إلى النّاس من جنسهم، حتّى يحسن تبليغهم ما كلفه الله به إليهم حتّى يستأنسوا به ويفهموا عنه[٢].

١١ - بيان حال المشركين أنّهم قبل بعثة محمد ﷺ كانوا يتعلقون بذريعة أنّه لم يُبعث إليهم رسول، وبعد بعثة الرّسول يتعلقون بذرائع أخرى، فلا مقصد لهم إلّا العناد[٣].

لمّا كان لكل قوم وارث فإن بعض سؤالات الأقوام السابقة لأنبيائهم قد تتكرر على السنّة بعض المعاصرين ولكن بأساليب مختلفة. **وهذا يستدعي من الدّعاة أن يفيدوا من منهج القرآن الكريم في التعامل مع هذه السؤالات والاقتراحات لتكون لهم زادًا في طريق الدعوة إلى الله:**

١ - لمّا كان غرض أهل الباطل صد الناس عن دعوة الله، سعوا إلى تحقيق ذلك بشتّى الأساليب، ومن ذلك افتراء الكذب وإيراد الشبهات في مواجهة الدّعوة، وكذلك هم أهل الباطل في كلّ زمان ومكان، هذا أسلوبهم في مواجهة الدعوة والدّعاة، فلا يَعجب الدّعاة من ذلك، وعليهم التّعرف بأسلوبهم في مواجهة الدّعوة والدّعاة.

٢ - الحلم على المخالفين ومجادلتهم بالحسنى، فلا تستفز الداعيةَ أقوالهم ولا ينتصر لنفسه، وليكن له في موقف نبينا محمد ﷺ في جداله مع المشركين عبرة فلم يتأثر بما يقوله المبطلون عنه وعن الدّعوة، ولم ينتصر لنفسه.

٣ - توضيح معجزة القرآن الكريم، وبيان أنّه من أكبر المعجزات الدّالة على نبوّة محمد ﷺ في أنّه من عند الله، وليس من كلام البشر، وهو معجزة لا تزال قائمة حتّى الآن، ويُتَحدَّى به من شكك في ذلك.

---

(١) تفسير الرازي (١٠/١٣٨).

(٢) تفسير اللباب لابن عادل (١٢/٣٨٩).

(٣) تفسير النيسابوري (٦/١٥٣)، تفسير اللباب لابن عادل (١٢/٣٨٩).

٤ ـ وظيفة الدّعاة هي وظيفة رسل الله: تبليغ الدعوة التي أرسلهم الله بها إلى النّاس لا إجبارهم عليها، فنبينا الكريم بيّن لكفار قريش أنّ مهمته تبليغ ما أرسله الله به ووكّل أمرهم إلى الله. وعلى الدّعاة القيام بواجب تبليغ الدّعوة إلى النّاس على أحسن ما يكون التّبليغ.

٥ ـ عدم ادّعاء ما ليس في مقدورهم، وحين يقترح عليهم النّاس الإتيان بخوارق الأشياء، يردون عليهم أن الرسل مع ما أوتوا من علم وعلوّ منزلة عند الله، لم يقدروا على الإتيان بمعجزة من عند أنفسهم فمن باب أولى ألّا تظهر للدّاعية كرامة خارقة للعادة إلّا أن يشاء الله.

٦ ـ حاجة الدّعاة إلى الصبر لازمة، لأنّ طريق الدعوة طويل وشاق، ومليء بالعقبات والمحن والابتلاءات، ولهم في محمّد ﷺ قدوة حسنة بالصبر على أذى المشركين.

الموضع الثاني: من بيان المقصود من بعثة الرسل: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢]. جاءت هذه الآيات ردًّا على المشركين بعد أن كثرت اقتراحاتهم المادية والمحسوسة للرسول ﷺ فكان حين يتلو عليهم القرآن الكريم يضيق صدره كراهية أن يواجهوه كعادتهم باقتراحاتهم العجيبة، كأن يلقى إليه مال كثير يستغني به هو وأصحابه، وينفقه في الاستتباع كالملوك أو يجيء معه ملك من السماء يصدقه، ويشهد له بالرّسالة ويدعو بدعوته، ويكون معه نذيرًا فيدل ذلك على إرسال الله له؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هُود: ١٢]. وقصدوا بذلك التّعجيز والاستهزاء باتّباع الرسول ﷺ وتصديقه فيما جاء به(١).

وقد واجه القرآن الكريم هذه الأسئلة من الكفّار ببيان مهمّة الرّسول محمّد ﷺ: وجاء ذلك في إجابتين:

الإجابة الأولى: قصر مهمّة الرّسول على الإنذار، وذلك في

---

(١) تفسيرالخازن (٣/٤٤١)، تفسير البيضاوي (٣/٧١)، أيسر التفاسير للجزائري (٢/١٦٠)، التفسير الميسر (٣/٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ [هُود: ١٢]. في هذه الآية قصر مهمّة محمّد ﷺ في قصر مهمّته على إبلاغ قومه بما يوحى إليه من ربّه، وإنذارهم بالعقاب لمن عصاه وخالفه، ونظير ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعَام: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سَبَإ: ٤٦][(١)]. وليس عليه الإتيان بالمعجزات، ففي هذا الجواب تعريض بالمشركين بردّ اعتقادهم أنّ الرسول يأتي بما يسأل عنه من الخوارق، فالله سبحانه وتعالى لم يرسل رسله إلّا لتبليغ رسالته إلى النّاس ولم يكلّفهم من الأمر ما لا سبيل لهم إليه[(٢)].

الإجابة الثانية: إبطال أن يكون محمّد ﷺ وكيلًا على إلجائهم للإيمان: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢] أي إنّ الله سبحانه وتعالى هو الوكيل إليه يرجع الأمر كلّه، فهو الموكل بخلقه يُصَرّفُهم كيف يشاء وفق سنته يحفظ أقوالهم، وأعمالهم، فيحاسبهم ويجازيهم عليها يوم القيامة، ولذلك على محمّد ﷺ أن يكل أمره وأمر قومه إلى الله غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مُبالٍ بسفههم، وما عليه إلّا تبليغ ما يوحى إليه، واهتداء النّاس وقبولهم للحقّ بيد الله تعالى لا بيده ولا بيد أحد غيره من النّاس[(٣)].

والعلماء في المراد بـ (وكيل) على ثلاثة أقوال: بمعنى القيم الحافظ:

ذكره السدي، وابن جرير،والبغوي، والزمخشري، وأبو حيان، وأبو السعود[(٤)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٥٢/٤).

(٢) الكشاف (٥٣٨/١)، تفسير البيضاوي (٧١/٣)، تفسير الخازن (٤٤١/٣)، تفسير البحر المحيط (٣٧٨/٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٣٣/٨)، الكشاف (٥٣٨/١)، التفسير الميسر (٤٩٣/٣).

(٤) الكشاف (٥٣٨/١)، تفسير البغوي (١٦٤/٤)، تفسير أبي السعود (٣٢٤/٣)، تفسير الجلالين (٤٨٤/٣).

والوكيل: بمعنى الشهيد: ذكره مقاتل، والسمرقندي[١]. والوكيل: بمعنى حافظ وشهيد:

قال القرطبي: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢] أي حافظ وشهيد[٢].

الحكمة من ذكر موقف القرآن الكريم ببيان المقصود من بعثة الرسل:

١ ـ المقام هنا يستوجب إبراز صفة الإنذار للرسول ﷺ في هذه الإجابة مع أنّ وظيفته الإنذار والتبشير، لأنّ هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كلّ حد في الإعراض، والاستهزاء، والتمرّد والعصيان[٣].

٢ ـ بيان النّبي أنّ محمدًا ﷺ يتلقى الوحي من الله، وليس له أن يسأل ربّه شيئًا من المعجزات.

٣ ـ وكالة الله على قلوب المكذبين، واطّلاعه على مكرهم ووكالته على جزائهم، لتأكيد ولاية الله لرسوله وتسديده له وتأييده.

هدايات للدّعاة على الطريق:

١ ـ أن لا يأخذه الحزن والانزعاج، إذا رأى النّاس يردون دعوته ويتّهمونه بالتّهم الباطلة، وأن لا يلتفت إلى تكذيب الجاحدين، وطعنهم بشخصه، بل يستمر في دعوته بإصرار ويقين بنصر الله لهم.

٢ ـ الثبات على المنهج السليم في طريق دعوته إلى الله من دون ملل، أو فتور والثبات على المنهج يقتضي الثبات على الإيمان، وإخلاص النيّة لله والاستمرار في الدّعوة إلى الله من دون التفات إلى الوراء، أو اهتمام بقلّة الأنصار، ووحشة الطّريق[٤].

---

(١) تفسير مقاتل (٢/١١٨)، بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٢١).

(٢) تفسير القرطبي (٩/١٤).

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢١٨١).

(٤) مسافر في قطار الدعوة (١/٢١١).

٣ ـ مهمّة الدّاعية لا تتجاوز التّبليغ والتّعليم، فعليه إبلاغ النّاس وتعليمهم وأن لا ينصبّ همّه على تصحيح الأخطاء، ومعالجتها، ولا على تجريح الأعيان والتّشهير بهم. وبخاصة إذا كانوا علماء عاملين، أو حكّاما مسلمين، فإنّ تجريحهم وإن أخطؤوا مفض إلى مفاسد عظيمة، وفتن كبيرة، وشاغل عن الأساس. وليس في كتاب الله وسنّة رسوله نص واحد يأمر بالحكم على العباد كائنًا من كان.

٤ ـ الاطّلاع على حدود الدّعوة التي لا تتجاوز البشارة والنّذارة، وما تتضمن من بلاغ وتعليم، وقد حصر الله سبحانه وتعالى في هذا الموقف مهمّة محمّد ﷺ على الإنذار لما يقتضيه المقام في الدّعوة؛ وكذلك الدّاعية يتّخذ وسيلة الإنذار إذا اتّصف المدعوون بصفات كفّار قريش، فذلك أدعى للسماع والتّلقي وأقوى تأثيرًا في النّفوس.

٥ ـ مراعاة الفروق بين أفراد المجتمع، فهناك الضال، والجاهل، والمفرط والمهتدي، وعلى الرغم من التقدّم العلمي والتّكنولوجي في عصرنا الحاضر، وقع عند بعض المسلمين بمختلف طبقاتهم جهل عظيم في عقيدتهم، وعباداتهم وأحكام معاملاتهم، فوقعوا في الابتداع والشركيات، وغشيتهم المحرمات.

٦ ـ تجنّب ما يفعله بعض الدّعاة، من إصدار الأحكام على أعيان المسلمين الجهلة، بالكفر والشرك والابتداع، من دون تعليمهم، وإقامة الحجّة عليهم بدعوى أنّهم في بلاد المسلمين، وأنّ وجودهم فيها يغني عن إقامة الحجّة عليهم، فليس ذلك من الحكمة في شيء، والحكم عليهم ينفرهم فهو لا يزيل جهلًا، ولا يهدي ضالًّا، والبلاغ والتّعليم هما اللذان يزيلان الجهل، ويهديان الضال بإذن الله. فهؤلاء المسلمون أحوج إلى التّعليم من أي شيء آخر. وتعليمهم يجعلهم يُقبلون على الدّاعية والدّعوة وبإقبالهم يتبعهم عامّة النّاس، وهذا يوفر على الدّاعية الجهد والوقت ويتحقق بذلك المصلحة العامّة[١].

---

(١) منهج الدعوة (١/١١٦).

٧ ـ يوجد في الإسلام أحكام وقضاء وتنفيذ، فمحمّد ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء والعلماء والقضاة قد حكموا على المخالفين، ولكن المقصود أن لا يبدأ الدّاعية بالحكم على العباد، وأن لا يكون شغله الشاغل، بل هذا ليس من مهمّته، وإنّما ينشغل بالبيان والتّعليم، والدّعوة والتبليغ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

الموضع الثالث: من بيان المقصود من بعثة الرسل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العَنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢].

جاءت هذه الآيات ردًّا على المشركين وبعض اليهود الذين كانوا يعلمون المشركين من قريش مثل هذا الاقتراح للنّبي ﷺ على سبيل التعنّت والعناد: هلّا جئتنا يا محمّد، بمعجزات حسية كالتي جاء بها بعض الأنبياء من قبلك كعصا موسى، وناقة صالح، تكون حجّة لله علينا لكي نؤمن بك ونتّبعك، وسؤالهم آيات خارقة للعادة تدل على جحودهم لمعجزة القرآن الكريم(١)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وقد واجه القرآن الكريم هذا السؤال من كفّار قريش ببيان مهمّة الرّسول محمّد ﷺ وجاء في أربع إجابات:

الإجابة الأولى: تأكيد أنّ أمر الآيات عند الله وليست عند الرسول وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. في هذه الآية أمر وإرشاد من الله لرسوله أن يجيب قومه المطالبين بالآيات دليلًا على صدق نبوّته: إنّ أمر هذه الآيات عند الله، وليس عنده، فليس هذا من شأنه،

---

(١) تفسير الطبري (٥٣/٢٠)، تفسير البحر المحيط (٦٣/٩)، التحرير والتنوير (٣٢٠٧/١).

ولا من أدبه أن يقترح على ربّه شيئًا، فسبحانه إن شاء أنزل الآيات على من شاء ومتى شاء، وإن شاء منعها على حسب إرادته وحكمته[(١)].

الإجابة الثانية: اقتصار وظيفة محمّد ﷺ على الإنذار لا الإتيان بالآيات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العَنكبوت: ٥٠] في هذه الآية أمر وإرشاد آخر من الله لرسوله ﷺ مفاده أنّ النّبي ﷺ مندوب للإنذار والبيان لأهل الظلم من المشركين والكفّار من عاقبة ظلمهم، وهي عذاب النار، وتحذيرهم من شدة بأس الله وعقابه، مبيِّنًا لهم طريق الحقّ من الباطل، لا لما يقترح عليه من الآيات، فإذا اقتصرت وظيفته ﷺ في هذه الآية على الإنذار، فلا معنى لمطالبتهم منه ﷺ بالآيات[(٢)].

الإجابة الثالثة: تحدّي الله سبحانه وتعالى المشركين بالقرآن الكريم وأشار إلى أنّه معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العَنكبوت: ٥١] أي أوَلم يكف هؤلاء المشركين إن كانوا طالبين للحقّ غير متعنّتين أنّا أنزلنا عليك أيّها الرّسول القرآن الكريم آية بيّنة مغنية عن كل آية، فهو ناطق بالحقّ يتلى على مسامعهم صباحًا ومساءً لو تدبّروه لهداهم إلى سعادة الدارين، وكذلك فيه إشارة إلى أنّ هذه التّلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم ففيه الرحمة العظيمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وفي قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى أنّه معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة، إذ كل معجزة سواه منقضية ماضية، فهو ذكر نافع، يتذكر الذاكرون ما فيه من عبر وعظة، منقذ من الضلال، ومرشد إلى الحق لمن أراد الإيمان ولم يقصد العناد، فهو كاف في الدعوة والبرهان، كاف عن كلّ آية لمن تدبّره واتّعظ بقصصه، فإنّه يغني

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٥٣)، تفسير ابن كثير (٦/٢٨٧)، نظم الدرر للبقاعي (٦/٢٥٦)، أيسر التفاسير للجزائري (٣/٢١٣).

(٢) النكت والعيون (٣/٣٠٥)، تفسير النسفي (٣/٧٨)، التحرير والتنوير (١١/١٤)، أيسر التفاسير للجزائري (٣/٢١٣).

عن كلّ شيء من الآيات. فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأمّا المعرضون عنها المعارضون لها فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها[١].

يرى ابن جرير، والقرطبي، وابن كثير، والألوسي، والشوكاني، والبيضاوي والجزائري[٢]، أنّ الذين تتحدّث عنهم الآية هم المشركون، ويرى ابن كثير، والبيضاوي، والزمخشري أنّهم اليهود. وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن الجوزيّ، والسيوطي، يرون أنّهم المؤمنون الذين كانوا يكتبون التوراة، وردّ الألوسي هذا القول، بقوله: والسياق مع الكفرة والظاهر أنّ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [العَنكبوت: ٥١] جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

والذي يظهر لنا أنّها خاصّة بالمشركين بدلالة سياق الآيات.

الإجابة الرابعة: أمر من الله سبحانه وتعالى لمحمّد ﷺ باكتفائه بشهادة الله له بصدق ما يبلّغه عن ربّه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] أي قل يا محمّد، للمكذبين: كفى بشهادة الله سبحانه وتعالى دليلًا كافيًا لك على صدق نبوّتك، ورسالتك وتبليغك، فلا يطلب معها دليل آخر، ثمّ ذكر الله سبحانه وتعالى علمه الذي أحاط بكل شيء في السماوات والأرض فلا يخفى عليه شيء، وجاء ذكر ذلك احتجاجًا على المكذّبين في صحة شهادته عليهم، لأنّهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته فشهادته أصدق وأعدل شهادة في أنّ محمّد ﷺ رسوله والقرآن الكريم كتابه، فبعد أن أنصفهم بقوله: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ استمر في الانتصاف بما لا يستطيعون إنكاره، وهو أنّ الذين اعتقدوا الباطل، وكفروا بالله

---

(١) النكت والعيون (٣/٣٠٥)، تفسير البيضاوي (٤/٤٧٤)، تفسير السعدي (٥١٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٥٣)، تفسير القرطبي (١٣/٣١٦)، تفسير البيضاوي (٤/٤٧٤)، تفسير ابن كثير (٦/٢٨٧).

هم الخاسرون في الحكم والقضية الموكولة إلى الله تعالى، وأمّا كفرهم بالله فلأنّهم أشركوا معه في الإلهية فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانية وهو المُجازي كلّ فريق بما هو أهله، المحق على ثباته على الحقّ، برضا الله والجنّة والمبطل على باطله بما هو أهله من سخط الله والنّار[١].

في إجابات القرآن الكريم حكم ظاهرة تكشف عن المقاصد العليا في هذا المقام نوجزها فيما يلي:

١ ـ إيضاح حدود الرسول في أنّه بشر مختار لا يخرج عن نطاق البشرية، وأنّ ما أتى به من وحي أو جرى على يديه من آيات فإنّما هو بقدرة الله وحده، وأنّ الرسول لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلّا أن يشاء الله[٢].

٢ ـ تأكيد أنّ مُعجزات الأنبياء لا تحصل بأفعالهم هم، وإنّما يجعلها الله ﷻ آية وعلامة لهم؛ كقلب العصا حيّة، وإنزال القرآن الكريم، وانشقاق القمر، والإخبار بالغيب الذي يختص الله به، فأمر الآيات إلى الله لا إلى اختيار المخلوق؛ فالآيات تتنزّل بإذن الله وهو يختار بحسب ما تقتضيه مصلحة العباد، فهو الحكيم الخبير.

٣ ـ وصف الرسول ﷺ بالنّذير المبين من دون ذكر البشير، مع أنّ ذلك من أحوال الرّسالة، تعريض بالمشركين، لأنّ حالهم يقتضي الإنذار وهو توقع الشر الموضح للإنذار بالدلائل العقلية الدّالة على صدق ما يخبر به[٣].

٤ ـ تأكيد أنّ القرآن الكريم معجزة ثابتة قائمة فاقت معجزات الأنبياء

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٧)، النكت والعيون (٣/٣٠٥)، تفسير البغوي (٣/٤٧١)، تفسير القرطبي (١٣/٣٥٥).

(٢) تفسير الطبري (٢١/٦)، تفسير السعدي (٦٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (١/٣٢٠٧).

السابقين التي تبقى زمنًا قصيرًا وتنقضي بانقضائهم، كعصا موسى، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

٥ ـ إنكار الله جلّ وعلا على الكفار عدم الاكتفاء بهذا الكتاب يدل على أنّه أعظم وأفخم من كل آية، وكذلك هو بيان لجهل وسخافة عقول المكذبين، حين طلبوا آيات تدل على صدق محمّد مع ما جاءهم به من معجزة القرآن الكريم فلم يكفهم بذلك آية.

٦ ـ الإشارة إلى أنّ هذه التّلاوة متجددة عليهم، وغير منقطعة عنهم، وكان في إمكانهم أن ينتفعوا بتلاوة هذا القرآن الكريم لو كانوا يعقلون[١].

٧ ـ تأكيد أنّ كل مؤمن يؤمن بالله ورسوله يجد في القرآن الكريم رحمة تصقل صدأ القلوب في كلّ لحظة، وتطهر خبث النّفوس في كلّ لمحة وفيه موعظة عظيمة مستمرة تَذَكُّرُها والتمسّك بها يوجب السعادة، وينجّي من العذاب في الدنيا والآخرة[٢].

٨ ـ الاكتفاء بشهادة الله وحده دون سواه؛ لأنّ صدقه سبحانه وتعالى عند العالمين معلوم بالفطرة الضرورية لكلّ أحد، فسبحانه منزّه عن الكذب وكلّ إنسان محمود يتنزه عن ذلك، وعدم العلم عند النّاس لبعض الأمور يعد نقصًا لا كذبًا[٣].

منارات على طريق الدّاعية يحسن به أن يلتفت إليها ومنها:

١ ـ سد باب السؤالات التعجيزية لبعض النّاس بأن الآيات عند الله، لا عند أحد سواه فهي على عكس أعمال السحرة، والكهان، والمخترعات الصناعية التي تحصل بأفعال الخلق[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢٠٧/١).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) (٥/٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) شرح رياض الصالحين للعثيمين (٤/١٣).

٢ ـ دعوة من لا يقتنع بمعجزة القرآن الكريم، إلى الإيمان بها عن طريق سماع تلاوة القرآن الكريم بصوت حسن وتدبره، والوقوف عند معانيه. ومن لم يكتف بالقرآن الكريم آية فقد طُمس على قلبه وسمعه، فهو لا يفقه ولايسمع قولًا، فلا جدوى من محاورته[١].

٣ ـ الوقوف عند قوله تعالى: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١] ببيان أنّ القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع ومواعظ وعبر وبيان للأحكام، وآية بالغة ومعجزة باهرة أيّد الله بها رسوله ﷺ يتعبد الله بتلاوته، وليس للزينة والترويج والإغراء بشرائه، ولا ليتّخذه حامله حرزًا له. وعلى من أراد الخير لنفسه أن يبتغي البركة، وصلاح شؤونه في دينه ودنياه بأن يتلو كتاب الله الكريم، وأن يعمل به في عبادته ومعاملاته[٢].

٤ ـ تسلية للدّعاة في أنّ الزعم بنفي نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى، وعدم الاكتفاء به معجزة ليس مقصورًا على الكفّار المعاصرين لمحمّد ﷺ وإنّما هو عام عند الكفّار في كل زمان ومكان، فهم يلقون سهامهم على إعجاز القرآن الكريم لينقضوه ويدحضوه ليتداعى هذا الدين، وينسلخ منه أتباعه، فعلى الدّاعية أن يستعين بالله ويثبت حتّى يأتيه نصر الله.

٥ ـ توضيح أنّه ليس من شروط صحة الرسالة الإتيان بالآية المقترحة فالرّسول يرسله الله تعالى أولًا لدعوة النّاس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإن طلبوا منه آية فذلك عائد إلى الله فإن شاء الله أظهر لهم آية، وإن لم يرد لم يظهرها، لأنّ ذلك ليس من الضرورات، إنّما يكتفى بما جاء به النّبي من بينة من ربّه[٣].

٦ ـ الاقتصار على إبلاغ النّاس وإنذارهم بسوء المصير إذا كانوا معرضين

---

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (٤/١٣).
(٢) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٤٢١/٥).
(٣) تفسير الرازي (١٨١/١٢).

عن الحقّ، كما قصر الله سبحانه وتعالى وظيفة الرسول ﷺ في هذه الآية على النّذارة، فهو لا يتجاوزها إلى خلق الآيات والاقتراح على ربّه.

٧ ـ تبيين أنّ هذه الرّحمة المذكورة في القرآن الكريم لا يجدها أحد في نفسه إلّا بشرط الإيمان الذي يُذَكِّر بفضل الله وعظم مننه على البشرية بهذا التنزيل، فالمؤمنون هم الذين يستشعرون كرم الله عليهم بدعوته لهم إلى حضور مائدته وهي القرآن الكريم.

٨ ـ تبيين أنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام أُيّد بمعجزات كثيرة غير القرآن الكريم، إلّا أنّ تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال خاصة ومع ناس معينين، ولكن رسالة محمّد ﷺ بنيت على معجزة القرآن الكريم. وكما عجز أهل العصر الأوّل عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، فكذلك عجز أهل كلّ عصر من العصور التّالية إلى عصرنا الحاضر، وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم معجزة، لأنّهم معاندون لا يريدون الحقّ(١).

الموضع الرابع: من بيان المقصود من بعثة الرسل: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧]. جاءت هذه الآية ردًّا على سؤال المشركين لمحمّد ﷺ كفرًا، وعنادًا، ومكابرة، بقولهم: هلّا أنزل عليه آية من ربّه، ويعنون بذلك العلامة الدّالة على صحة نبوّته، وجاء هذا الاقتراح تعنّتًا منهم، وإصرارًا على الكفر، وإلّا ففي أدنى آية أنزلت على محمّد عليه الصلاة والسلام غُنية وعبرة لأولي الألباب(٢)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ [الرّعد: ٧].

وقد واجه القرآن الكريم هذا السؤال من كفار قريش ببيان المقصود من بعثة محمّد ﷺ وجاء ذلك في إجابتين:

الإجابة الأولى: التّشديد على اقتصار مهمة الإنذار: في قوله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٦٥٩).

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرّعد: ٧] في هذه الآية تأكيد أن مهمّة محمد ﷺ اقتصرت على الإنذار، بمعنى: إنّما أنت مُرسَلٌ لإنذار وتخويف قومك من سوء عاقبة عصيانهم لأوامر الله تعالى، وناصح لهم كغيرك من الرسل، وما عليك إلّا الإتيان بما تصح به نبوّتك من جنس المعجزات، لا بما يُقتَرَح عليك، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت فلا تلتفت إلى ما يطالبون به من الآيات، واستمر على دعوتك واصطبر عليها[1].

الإجابة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] أي لكل قوم من الفريقين من أهل الهدى والضلالة، إمّا هادٍ من الأنبياء أو المصلحين يهديهم إلى الإيمان بالله والطاعة والجنّة، بدعوتهم وتعليمهم وهدايتهم إلى سواء السبيل، وإما هاد يهدي النّاس إلى الكفر والعصيان والنّار، والله هو القادر على هداية وإضلال من يشاء من عباده[2]. فالقلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها.

وللعلماء في المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أقوال: منها أنّ الهادي هو الله ﷻ، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والنّخعي[3]. ورجحه ابن عطية.

وأنّ الهادي هو الدّاعي أي داع يدعوهم ويُرشدهم، إمّا إلى خير أو إلى شر، ورجحه ابن جرير. وأنّ الهادي هو النّبي، فيكون معنى الآية: ولكلّ قوم نبيٌّ ينذرهم، قاله الحسن، وعطاء، وقتادة، وابن زيد[4]. ورجح هذا القول الشنقيطي. وأنّ المنذر والهادي هو محمد ﷺ.

والذي يظهر لنا أنّ المراد بالهادي هو الله؛ كما في القول الأوّل،

---

(١) تفسير الطبري (٧/٣٤١)، أيسر التفاسير للجزائري (٢/٢٤٠).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٢١٣)، تفسير أبي السعود (٣/٤٨٥)، تفسير حقي (٦/٢٢٨)، البحر المديد (٣/١٥٢).

(٣) تفسير الطبري (١٦/٣٥٣).

(٤) المرجع السابق.

بدلالة سياق الآيات السّابقة إن أنت إلّا نذير للمشركين بعقاب الله، ولست مكلّفًا بهدايتهم وحملهم على الإيمان، فالله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبدلالة سياق الآيات اللاحقة التي جاء فيها تنبيه على أنّه قادر على هدايتهم، فسبحانه لم يهدهم لسبق قضائه عليهم بالكفر، ثمّ أتبعها بما يدل على كمال علمه وقدرته على إنزال ما اقترحوه(١).

وللجمع بين الأقوال يحتمل أن هداية الإرشاد والتعليم والبيان، هي التي أثبتها الله لرسوله؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشّورى: ٥٢] ولكلّ من له تعليم، وإرشاد للخلق من الأنبياء، والرسل، والدعاة الصالحين من خلقه، وأمّا هداية التّوفيق ووضع الإيمان في القلوب، فهما مختصان بالله فلا يهدي إلّا الله وهذا ما يحمله معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: ٥٦].

الإجابة الثالثة: وردت في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: ٨]. ففي هذه الآية جواب عن عدم استجابة الله تعالى لسؤالهم بأنّ ذلك أمر مدبّر ببالغ العلم ونافذ القدرة، وليس إنزال الآيات بحسب أهوائهم واقتراحاتهم، وفيها إخبار من الله تعالى بعموم علمه وإحاطته بكل شيء فهو يعلم ما تحمل كلُّ أنثى، أذكر هو أم أنثى؟ وشقي هو أم سعيد؟ ويعلم ما تنقصه الأرحام، فيسقط، أو يهلك الحمل، أو يتضاءل، أو يولد قبل تسعة أشهر، وما يزيد حمله عليها. وكل شيء مقدّر عند الله بمقدار لا يتقدم عليه، ولا يتأخر، ولا يزيد، ولا ينقص، وكذلك الآيات لا ينزلها الله إلّا بحسب ما تقتضيه حكمته وإرادته سبحانه(٢)، ونظير هذه الآية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يُونس: ٢٠].

---

(١) تفسير البيضاوي (٢١٣/٣).

(٢) تفسير الألوسي (٢٠٧/٩)، تفسير السعدي (٤١٤)، التفسير الميسر (٢٢٠/٤).

ترشد هذه الآيات وما تضمنته من ردود إلى بعض الحكم والمقاصد ذات الشأن ببعثة الرسل يحسن أن نعرض لها بإيجاز لتتم الفائدة:

١ - قصر وظيفة النّبي محمّد ﷺ على الإنذار لتأكيد أنّه منذر، لا موجد لخوارق العادات، فالخوارق ليست من عمله ولا اختصاصه، إنّما هي من عند الله يبعثها متى شاء، وعلى من يشاء، حين يرى بحكمته أنّها لازمة. وفي ذلك رد لاقتراح الكفار من أصله مع أنّ كلّ هذا يجري على يديه بأمر الله وتقديره.

٢ - نفي قدرته ﷺ على صد الكافرين عن جحودهم، فإنّ ذلك عائد إلى الله تعالى وحده، وهو سبحانه القادر عليه والمتمثّل بهداية التوفيق[١].

٣ - نفي الله صفات الألوهية عن نبيه محمّد ﷺ وذلك بوصفه له بالنّذير، وفي ذلك تحذير للأمّة من تأليه محمّد ﷺ كما ألّهت النصارى عيسى عليه السلام.

٤ - قصر إضافي لمهمّته ﷺ على النّذارة، دون البشارة لأنّ ذلك مناسب لأحواله مع المشركين في هذه المقامات والآفات وكل مهام الدّعوة ومتطلباتها منوطة به ﷺ ومكلّف بها من ربّه ﷻ[٢].

٥ - كلّ نبي يرسله الله إلى قومه يهديهم إلى الحقّ والرشاد بالوسيلة التي يراها مناسبة لأحوالهم، ومحمّد ﷺ جاء بهذا القرآن الكريم الهادي للتي هي أقوم. والذي هو خير وسيلة لإرشاد النّاس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم[٣].

٦ - بيان أنّ الإنذار والهدى متلازمان، فما من إنذار إلّا وهو هداية وما من هداية إلّا وفيها إنذار، والهداية أعمّ من الإنذار فصار المعنى

(١) تفسير الألوسي (١٣/١٠٧).
(٢) تفسير الجلالين (٤/٢١٣).
(٣) التحرير والتنوير (٧/٣٤١).

على هذا القول إنّما أنت منذر لقومك، هادٍ إيّاهم إلى الحق، وفي هذا احتباك بديع(١).

٧ ـ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: ٨] إثبات العلم لله وبيان كمال علمه، وقدرته سبحانه، وعموم قضائه وقدره.

٨ ـ في هذه الآية معلومات لا يشك أحد من الخلق في أنّها لا يعلمها أحد إلّا الله، ولا تستشار فيها آلهتهم(٢).

في هدايات الآيات دروس للدّعاة إلى الله فإنّ النّاس تجاه الدّعوة إلى الله متشابهون في مواقف كثيرة وإن تنوّع التعبير عنها واختلفت من عصر إلى عصر فإنّ بعض ما واجهه الأنبياء يواجهه اليوم الدعاة إلى الله في ميادين عدة:

١ ـ أن يخوف المدعوّين من سوء العاقبة وأن يكون ناصحًا لهم مقتديًا في ذلك بالأنبياء، والرسل، والصالحين وليس عليه غير ذلك، أمّا الهداية والإضلال، فبيد الله ﷻ، وقد اتفقت رسل الله، وكتبه المنزّلة على أنّ الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأنّه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له(٣).

٢ ـ تحذير المدعوّين من الأمن والرّكون إلى هذه الحياة الدنيا، فإنّ العبد، ما دامت له الحياة، على خطر، قال ابن القيم رحمه الله: (إنّ العبد إذا علم أنّ الله سبحانه وتعالى مقلب القلوب، وأنّه يحول بين المرء وقلبه، وأنّه تعالى كلّ يوم هو في شأن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنّه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، فما يؤمّنه أن يقلب الله قلبه، ويحول بينه وبينه، ويزيغه بعد إقامته،

(١) التحرير والتنوير (٣٤١/٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢٢٨/١).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٥٣/١).

وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم[١].

٣ ـ أن يبين السبب في عدم تحقيق الله تعالى للكفّار سؤالهم، لأنّ في القرآن الكريم معجزة كافية تمّ بها الغرض فيكون طلب الباقي تحكمًا، وفي ذلك تنبيه للمدعوّين بعظم هذه المعجزة الباقية إلى أن تقوم الساعة.

٤ ـ أن يتناسب أسلوب الدّاعية مع كلّ موقف، ويتوافق مع كلّ حالة، وأن يهدي إلى الحقّ والرّشاد بالوسيلة التي يراها مناسبة لأحوال المدعوّين، وأن يكون فطنًا لطبيعة المدعوين فيتعرف بأوضاع النّاس، وعقائدهم ومشكلاتهم، واختلاف طبائعهم، وقدراتهم وأن يكون القصد من وراء ذلك بيان الحقّ وهداية الخلق.

٥ ـ أن يعلم أنّه مهما بلغت منزلته وعلمه؛ فقد نفى الله عنه وعن كلّ الخلق العلم بالغيب.

٦ ـ أداء ما يجب عليه من الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، تارة بالقلب، وتارة باللسان وتارة باليد كما قال النّبي ﷺ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»**[٢].

٧ ـ التوضيح للمدعوّين أنّه مهما بلغ العلم من التقدم، فهو ناقص وقاصر، ولو توصلوا إلى معرفة نوع الجنين قبل أن يولد من بطن أمّه، وهو ما يزال في الرّحم، وذلك أن علم الله بما في الأرحام علم شامل لنوعه، ورزقه، وأجله، وسعادته، وشقائه فذلك غير مستطاع إلا لله سبحانه وتعالى، فعلم الله لا يسبقه جهل، وعلم غيره مسبوق بالجهل، فلو فرض أن الإنسان عرف نوع الجنين فهل يعرف ما بقي من رزقه، وأجله وما تنتهي إليه حياته من سعادة وشقاء؟

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/٤٣١)، خواطر على طريق الدعوة (١/١٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (١/٢١٩، رقم ١٨٦).

الموضع الخامس: من بيان المقصود من بعثة الرسل: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [المُلك: ٢٦، ٢٧]. جاءت هذه الآية ردًّا على الكفّار المنكرين للمعاد والمستبعدين وقوعه سخرية واستهزاء منهم، الذين سألوا: متّى يقع هذا الذي تخبروننا عنه من البعث والحساب والجزاء؟ ومتى يكون النّصر لكم لا لنا؟ فأخبرنا يا محمّد ويا أيّها المؤمنون بزمانه، إن كنتم صادقين فيما تدّعون! فجعلوا علامة صدق الرسول ﷺ والمؤمنين، تحديد وقت قيام القيامة ووقت وقوع العذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [المُلك: ٢٥]. وسؤالهم هذا جاء ظلمًا وعنادًا، فعلم الساعة عند الله، لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق وقوع هذا الخبر، وبين الإخبار بوقته، فإنّ الصدق يعرف بأدلته، وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته ما لا يبقى معه أدنى شك لمن ألقى السمع وهو شهيد[1].

وقد واجه القرآن الكريم هذه الأسئلة من كفّار قريش ببيان مهمّة الرّسول محمّد ﷺ وجاء ذلك في إجابتين:

الإجابة الأولى: إضافة العلم إلى الله تعالى: تظهر في: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. في هذه الآية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يبين لكفّار قريش أنّ العلم بوقت قيام الساعة مضاف إليه سبحانه بقوله، قل أيّها الرسول لهؤلاء الكفّار: إنّ العلم بوقت مجيء القيامة اختُصَّ الله به وحده دون سواه، وقال الرازي: «والمراد أنّ العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأوّل حاصل عندي، وهو كاف في الإنذار والتّحذير، أمّا العلم الثاني فليس إلّا لله، ولا حاجة لي إليه بسبب كوني نذيرًا مبينًا»[2].

الإجابة الثانية: أنّ مهمة الرسول تبليغ ما أوحي إليه من ربّه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العَنكبوت: ٥٠] في هذه الآية تأكيد

---

(١) تفسير الطبري (٥١٧/٢٣)، تفسير القرطبي (٢٢٠/١٨)، تفسير ابن كثير (١٨٢/٨)، تفسير الخازن (١٣٣/٦).

(٢) تفسير الرازي (٤٢٧/١٥).

أنّه ﷺ مبعوث للإنذار، والتّحذير من عاقبة الكفر، وتبليغ ما أوحي إليه، ولمّا كان النّذير وحده لا يقدر على إقامة الدّليل على ما يُنذر به جاء قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ [العَنكبوت: ٥٠] أي كاشف للنّذر غاية الكشف بإقامة الأدلة عليها، فيبين ما أمر الله ببيانه حتّى كأنّه مشاهد لمن كان له قبول للعلم(١).

الإجابة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧]. أي فلمّا قامت القيامة ووقع ما كذب به الكفّار ورأوا أنّ عذاب الله قريب منهم وعاينوه، وأيقنوا بأنّ كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، ساءهم ذلك لما يعلمونه لهم هناك من الشرّ فظهرت الذلّة على وجوههم، وعلتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة، كحال وجه من يقاد إلى القتل، أو يعرض على بعض العذاب، وهذا التّعبير يدلنا على أنّ يوم القيامة قريب جدًا، وما تضمّنته هذه الآية جاء موضحًا في مواضع أُخَر من القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧، ٤٨]. ولهذا يقال لهم على وجه التّقريع والتّوبيخ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [المُلك: ٢٧]. أي هذا الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدّنيا، وتكذبون حقيقة وقوعه ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذّاريَات: ١٤]، والقائل لهم ملائكة المحشر أو خَزنَة جهنّم، فعدل عن تعيين القائل، إذ المقصود المقول دون القائل فحذْف القائل من الإيجاز(٢).

وللعلماء في المراد من ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ قولان: أوّلهما: أي ظهرت المساءة على وجوههم كراهة لما شاهدوا من العذاب. **وثانيهما**: أي ظهر السوء في وجوههم ليدلّ على كفرهم(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٥١٧/٢٣)، تفسير ابن كثير (١٨٢/٨)، نظم الدرر للبقاعي (١٠٩/٩)، فتح القدير (٢٧١/٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١٨٢/٨)، التحرير والتنوير (٢٣٠/١٥)، تفسير القطان (٣٥٧/٣)، التفسير الميسر (٢١١/١٠).

(٣) النكت والعيون (٣٠٣/٤).

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فلمّا رأى هؤلاء المشركون عذاب الله قريبًا، وعاينوه، ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المُلك: ٢٧] أي: ساء الله بذلك وجوه الكافرين».

وفي قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [المُلك: ٢٧] **أقوال**: تمترون فيه وتختلفون[١]. وتشكّون في الدّنيا وتزعمون أنّه لا يكون. وتستعجلون من العذاب[٢]. وأنّه دعاؤهم بذلك على أنفسهم، وهو افتعال من الدّعاء[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿تَدَّعُونَ﴾ قراءتان: ﴿تَدَّعُونَ﴾ بمعنى: هذا الذي كنتم من أجله تدّعون الأكاذيب، وتدعون أنّكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا، لا ترجعون ولا تجازون.

ورجحها ابن جرير وهي قراءة الجمهور[٤]، و﴿**تَدْعُونَ**﴾، بمعنى: تستعجلون وتدْعون بنزول العذاب. وهي قراءة نافع[٥].

والذي يظهر لنا أن المعنيين كليهما مناسبان للمقام.

الحكمة من كشف بعض الحكم من شرائع الله وأوامره ببيان المقصود من بعثة الرسل:

١ ـ تأكيد قصر العلم المحض على الله واستئثاره سبحانه بعلم وقت قيام الساعة حتّى لا يتوهم أحد من الخلائق في أنّ تعيين وقت الساعة ممّا يطّلع عليه أحد سوى الله، وجاء الجواب بنفي ذلك بيانًا لعظمتها تعظيمًا لمن أمرُها بيده، ولأنّ الكفّار لا ينكرون علم الله تعالى الذي أحاط بكلّ شيء، وهيبة الله سبحانه وتعالى تمنع العالم

---

(١) تفسير الطبري (٥١٧/٢٣).

(٢) المرجع السابق.

(٣) النكت والعيون (٣٠٣/٤).

(٤) فتح القدير (٢٧١/٧).

(٥) النشر في القراءات العشر (٤٢٩/٢)، زاد المسير (٣٢٤/٨).

كلّه بما له من العظمة أن يجترئ على سؤاله عمّا لم يأذن فيه، فعظمة الله تقتضي الاستئثار بالأمور العظام[١].

٢ ـ إظهار الفارق الجليّ بين الخالق والمخلوقين، بما فيهم الرسل والملائكة، فكلّ يقف في مقامه متأدّبًا عند مقام الألوهية العظيم.

٣ ـ بيان اقتصار مهمّة محمّد ﷺ على الإنذار وإبلاغ ما يوحى إليه، حتّى يكف الكفّار عن سؤالاتهم التي لا يملك تحقيقها إلّا الله.

٤ ـ الجزم بأنّ اليوم الذي يسألون عنه قد اقترب، والموعد الذي يشكّون فيه قد حان؛ وكأنّما هم قد واجهوه الآن. فكان فيه ما كان.

٥ ـ ذمّهم بإضافة (الوجوه) إلى (الذين كفروا) وبإسناد الكفر إليهم، بدلًا من إضافة الوجوه إلى ضميرهم[٢].



(١) تفسير الخازن (٦/١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٢٣٠).

المبحث السابع

عاقبة السؤالات على أصحابها

من مواقف القرآن الكريم تجاه سؤالات كفّار قريش أنّ الله لم يلبّها لهم، ومن ذلك طلبهم من محمّد ﷺ استعجالَ العذاب تكذيبًا منهم، وإنكارًا لوقوعه وجهلًا منهم بسوء العاقبة التي تحل عليهم بتحققه، فأجابهم الله بالإعراض عن تعيين ذلك اليوم، وبيان سوء عاقبة سؤالهم بتصوير حالهم، حين يرون العذاب وفي ذلك تهديد بليغ لهم بعاقبة تكذيبهم، واستهزائهم، وإصرارهم على الكفر وتأكيد منه سبحانه أنّ لهم ميعادًا لا بدّ من وقوعه، وأنّ قدرته نافذة في تحديد آجالهم، فيدعهم لمواجهة مصيرهم المحتوم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

ويظهر هذا جليًّا في ثلاثة مواضع عرض لها القرآن الكريم وهي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السَّجدَة: ٢٨ ـ ٣٠].

في هذا الموضع يستعجل هؤلاء المشركون بالله العذاب بسؤالهم لمحمّد ﷺ والمؤمنين استهزاءً واستبعادًا لوقوعه، فيقولون: متّى هذا الفتح الذي يقضي الله به بيننا وبينكم، بتعذيبنا على زعمكم، إن كنتم صادقين في دعواكم، في تحقق الوعيد الذي وعدنا به من العقاب لنا والنّصر لكم؟[1]

(١) تفسير الطبري (١٩٨/٢٠)، تفسير ابن كثير (٣٧٤/٦).

كقوله تعالى حكاية عن شعيب مع قومه: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١١٨]. وكقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سَبَإ: ٢٦].

وقد واجه القرآن الكريم سؤال كفار قريش استعجالهم العذاب بعدم الاستجابة رحمة بهم وجاء ذلك في ثلاث إجابات:

الإجابة الأولى: أمر الله تعالى نبيه أن يعدل عن تعيين ذلك اليوم إلى ذكر حالهم فيه: في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [السَّجدَة: ٢٩]. لمّا أراد كفّار قريش استعجال العذاب تكذيبا واستهزاءً، أُجيبوا بما يمنع الاستعجال، وهو العدول عن تعيين ذلك اليوم، إلى ذكر حالهم فيه، الذي يبدأ بمعاينة الكفّار ملك الموت، وحلول بأس الله، وسَخَطه وغضبه عليهم في الدّنيا، فلا ينفعهم إيمانهم إن هم آمنوا، ولا هم يؤخرون للتوبة والمراجعة ولا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا، ليؤمنوا ويُقبل إيمانهم، فسنّة الله أنّ من عاين بعضًا من الأمور الغيبيّة، لا تقبل توبته؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وفي ذلك أبلغ تهديد[(١)]، ونظير هذه الإجابة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

الإجابة الثانية: أمر الله تعالى نبيّه بالإعراض عن أقوال كفّار قريش الفاسدة وعدم الالتفات إليها: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ [السَّجدَة: ٣٠] أمر الله نبيّه محمّدًا ﷺ أن يعرض عن هؤلاء المشركين، فلا يبالي بتكذيبهم حتّى وصل بهم الحال إلى حالة الجهل العظمى باستعجالهم العذاب، فما عليه إلّا أن يبلّغ ما أنزل إليه من ربّه

---

(١) تفسير البيضاوي (٣/٥)، تفسير ابن كثير (٦/٣٧٤)، نظم الدرر للبقاعي (٦/٣٩٠)، الفصل في الملل (٣/٨٨).

وينتظر ما الله صانع بهم، فسيرى عاقبة صبره عليهم، وعلى أداء رسالة الله وتأييده سبحانه بنصرته عليهم[١].

وللعلماء في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ [السَّجدَة: ٣٠] أقوال: أعرِض عن أذاهم وبلّغ ما أُنزِل إليك من ربّك وانتظر النّصر عليهم من الله. قال ابن كثير: «أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلّغ ما أنزل إليك من ربّك وانتظر فإنّ الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك».

وأعرض عن قتالهم، وانتظر أن يؤذن لك في جهادهم[٢]. وأعرض بالهجرة، وانتظر ما يمدك به من النّصرة[٣].

الإجابة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السَّجدَة: ٣٠] أي إنّ الكفّار منتظرون ما تعدهم من العذاب ومجيء الساعة، ومتربّصون بكم دوائر السوء؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطُّور: ٣٠]. فهم منتظرون ما قد يصيب محمّدًا ﷺ من مرض، أو موت، أو قتل، ليستريحوا منه في نظرهم. وكذلك هم منتظرون أيضًا عذاب الله عاجلًا، أو آجلًا، فسيخزيهم الله ويذلهم، وينصرك عليهم[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ قراءتان: بكسر الظاء وبفتحها.

الحكمة من موقف القرآن الكريم بعدم الاستجابة لهم في استعجالهم العذاب:

١ ـ جاء العدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتّنبيهِ على ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: أنّ سؤالهم استعجال العذاب جاء على وجه الاستهزاء واستبعاد وقوعه، فأُجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم، فهم لا يزدادون

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٣٧٤)، التفسير الميسر (٧/٣٠٩).
(٢) تفسير الرازي (١٢/٣٢١).
(٣) النكت والعيون (٣/٣٥٤).
(٤) تفسير الطبري (٢٠/١٩٩)، أيسر التفاسير للجزائري (٣/٢٦٩).

مع البيان إلّا عنادًا فجاء الإعراض عن إجابتهم إلى ذكر حالهم، وفي هذا الجواب تهديد بليغ لهم[(١)].

الأمر الثاني: في هذا الجواب إشارة إلى أنّ زمن حلوله غير معلوم للنّاس، وأنّه مما استأثر الله به من علم الغيب، ولا ينبغي أن يُسألَ عنه لكونه أمرًا بيِّنًا واقعًا لا محالة غنيًّا عن الإخبار به، فعلى من يحتاط لنجاة نفسه أن يؤمن، ويعمل لهذا اليوم من الآن فإنّه لا يدري متّى يحلّ به.

الأمر الثالث: التّنبيه إلى بيان ما هو أهم من معرفة وقت حلوله، إلى بيان حالهم وقت وقوعه، وهو عدم نفع إيمانهم إن لم يكونوا آمنوا من قبل، ولا يمهلون للرجوع إلى الدّنيا حتّى يتوبوا ويعملوا صالحًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعَام: ١٥٨] وهذا من الأساليب الحكيمة التي اتخذها القرآن الكريم مع المعرضين لعلّهم يرجعون[(٢)].

٢ - وصْفهم بالكفر في قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [السَّجدَة: ٢٩]، ولم تُذكر صفة الكفر في السؤال مع أنّ السائلين هم الكفّار لقصد التّسجيل عليهم بأنّ كفرهم هو سبب خيبتهم[(٣)].

٣ - جاء أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه بالإعراض عنهم، لأنّ سؤالهم هذا جاء بعد سماعهم للأدلّة ورؤيتهم للبراهين الساطعة التي تدل على صحة نبوّته عليه السلام، وفي ذلك تسلية لمحمّد ﷺ لأنّه كان شديد الحرص على نفعهم، وهدايتهم شفقة عليهم، ورفقًا بهم، وربّما أحب إعلامهم بما طلبوا، وإن كان يعلم أنّ ذلك منهم استهزاءً رجاء أن يكون ذلك سببًا نافعًا لهدايتهم[(٤)].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٦/ ٣٩٠).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٣١٦).

(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٨٦).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٦/ ٣٩٠).

٤ ـ تعريض بالبشارة للمؤمنين بالنّصر، وتعريض بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدّارين[١].

٥ ـ تعليل لما تضمّنه الأمر بالانتظار من إضمار العذاب للكافرين الذي دلّ عليه السياق، أي: أنّ محمّدًا ﷺ، والمؤمنين، منتظرون لكم الفرصة لحربكم، أو لإخراجكم[٢].

٦ ـ ختم الله سورة السجدة بهذا الجواب وهو أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم في آية قصيرة تحمل في طيّاتها تهديدًا للكفّار بعاقبة تكذيبهم، وبتركهم يواجهون مصيرهم المحتوم بالعذاب في الدّنيا والآخرة، وسيُري الله نَبيّه عاقبة صبره عليهم بنصره وهلاكهم[٣].

توجيهات دعوية في ضوء العرض القرآني:

١ ـ أن تكون إجابة الدّاعية على سؤالات المدعوين على حسب ما يظهر له من غرضهم من تلك السؤالات، فإنّ كان الغرض التّكذيب والاستهزاء يعدل عن الجواب على ظاهر سؤالهم، إلى بيان ما هو أهمّ، وأبلغ للتّأثير في نفوسهم. وهذا من الأساليب الحكيمة التي انتهجها القرآن الكريم مع المكذّبين المستهزئين.

٢ ـ أن يوضح أن تلك الأسئلة التي تتعلّق بأمور غيبية ممّا استأثر الله بها من علم الغيب عنده مثل قيام الساعة هي ممّا لا ينبغي أن يسأل عنها، ويكتفي بتأكيد وقوعها وإظهار ما هو أهم من ذلك، وهو الاستعداد لذلك اليوم بالإيمان، والعمل الصالح، فهم الآن في دار خيار وعمل فليجدّوا وليجتهدوا بصالح الأعمال قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

٣ ـ الإعراض عن إجابة المنكرين والمستهزئين إذا جاء سؤالهم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٦/٣٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١١/١٨٦).

(٣) تفسير القطان (٣/٩٦).

بعد سماعهم للأدلة التي تدل على صحة دعوته، وظهور الحجّة البيّنة عليهم، وذلك لعدم الفائدة من الاستمرار في إجابتهم، لأنّهم لا يريدون من أسئلتهم الوصول إلى الحقائق، وإنّما غرضهم التّكذيب والجدال الذي لا يزيدهم إلّا إصرارًا على الكفر، فيكتفي بالتّعريض بالوعيد والتّهديد لمن أعرض وتولى.

٤ ـ أن يبث روح التفاؤل والثقة بالنّصر في نفوس المدعوّين، وأن يترقبوا وينتظروا ذلك. فقد تكفّل سبحانه وتعالى بنصرة دينه وأهله وبتمكينه وإظهاره على الدّين كلّه.

الموضع الثاني: من عدم الاستجابة لهم في استعجالهم العذاب: في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سَبَإ: ٢٩، ٣٠]. بعد أن سمع المشركون بالله، وعيد الله لهم وما هو فاعل بهم في معادهم، ممّا أنزل الله في كتابه، سألوا محمّدًا ﷺ استعجال قيام الساعة، استهزاءً به ﷺ، وبالمؤمنين، واستبعادًا لوقوعها إنكارًا منهم للبعث، أو يكون سؤالهم عن الساعة، ووقتها تعجيزًا له ﷺ لتوهمّهم أنّه لما أخبرهم بأمرها، فهو يدعي العلم بوقتها فقالوا: متّى هذا الوعد الذي يجمعنا الله فيه، ثمّ يقضي بيننا، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به من العذاب يوم القيامة؟[1] ويظهر استعجالهم صريحًا في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

وقد واجه القرآن الكريم سؤال كفار قريش استعجالهم العذاب والساعة بتأكيد أنّ لهم ميعادًا لا بدّ من وقوعه: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سَبَإ: ٣٠]. أي قل لهم أيّها الرسول: إنّ لكم ميعادًا وهو يوم القيامة يأتيكم لا محالة، فاحذروا ذلك اليوم وأعِدُّوا له عدّته قبل وقوعه بغتةً فإنّه إذا وقع لا يمكنكم

(١) تفسير الطبري (٤٠٦/٢٠)، زاد المسير (١٦٦/٥)، تفسير ابن كثير (٥١٨/٦).

التأخّر عن ذلك اليوم بالاستمهال ساعة للتّوبة، ولا التّقدم إليه بالاستعجال ساعةً والمراد بالساعة: الوقت الذي هو في غاية القلّة، ووقوع ذلك اليوم يكون في الزمن الذي قد قدّر الله وقوعه فيه فلا يستأخر لرغبة أحد، ولا يستقدم لرجاء أحد(١).

وللعلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ﴾ [سَبَإ: ٣٠] على ثلاثة أقوال: أنّه يوم الموت عند النّزع(٢). وأنّه يوم القيامة، قاله أبو سليمان الدمشقي(٣)، وهذا الذي عليه أكثر المفسّرين(٤). وأنّه يوم بدر، لأنّ ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدّنيا في حكم الله تعالى(٥).

والذي يظهر لنا أنّ (يوم) تحمل عدّة وجوه من المعاني، لأنّه جاء نكرة فجاء يحمل معنى يوم الموت، ويوم البعث، ويوم بدر.

قال ابن كثير: «أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم»(٦).

يكشف منهج القرآن في هذا المقام عن هدايات نلخصها فيما يلي:

١ ـ تعريض بالتّهديد، وجاءت كلمة (لكم) إشارة إلى أنّ هذا الميعاد منصرف إليهم ابتداءً، فكان مطابقًا للمقصود من الاستفهام من سؤالهم(٧).

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي (٤٣٨/٣)، تفسير البيضاوي (٣١/٥)، تفسير البحر المحيط (٢١٠/٩)، تفسير ابن كثير (٥١٨/٦).
(٢) تفسير البغوي (٤٠٠/٦)، زاد المسير (١٦٦/٥)، تفسير اللباب لابن عادل (١٥١/١٣).
(٣) زاد المسير (١٦٦/٥).
(٤) تفسير الطبري (٤٠٦/٢٠)، تفسير الخازن (٢٢٦/٥)، تفسيرالبحر المحيط (٢١٠/٩)، تفسير ابن كثير (٥١٨/٦).
(٥) تفسير القرطبي (٣٠١/١٤).
(٦) تفسير ابن كثير (٥١٨/٦).
(٧) التحرير والتنوير (٣٩٥/١١).

٢ - إظهار جهل كفّار قريش في وظيفة الرسول؛ وعدم إدراكهم لحدود الرّسالة. فما محمّد إلّا رسول قائم في حدود وظيفته لا يتخطّاها، والله هو صاحب الأمر أرسله، وحدّد له عمله؛ وليس من عمله أن يعلم تحقيق الوعد والوعيد فكلّ ذلك موكول إلى الله، وهو الذي يعرف حدوده، فلا يسأل عن شيء لم يطلعه عليه ربّه، ولم يكل إليه أمره.

٣ - التّنبيه على ما يزيل غرورهم في أنّ سبب التّأخير كلمة سبقت من الله لحكمة جهلوها وعلمها الحكيم العليم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩]، فكلّ ميعاد يجيء في أجله الذي قدّره الله له لا يتأخّر لرغبة أحد، ولا يتقدّم لرجاء أحد، فكلّ شيء عنده بقدر، فالأحداث والمواعيد والآجال أقدار مرتّبة وفق حكمته التي لا يدركها أحد من عباده إلّا بقدر ما يكشف الله له والاستعجال بالوعد والوعيد دليل على عدم إدراك هذه الحقيقة الكلية ومن ثمّ فإنّ أكثر النّاس لا يعلمون، فالجهل وعدم العلم هو الذي يقودهم إلى السؤال والاستعجال[١].

٤ - لم يجابوا بتعيين الزمان لأنّ ذاك ممّا انفرد الله سبحانه وتعالى بعلمه، وإنّما أجابهم القرآن الكريم بأسلوب حسن حكيم، أنّ الأهم للعقلاء أن تتوجه هممهم إلى تحقق وقوع الوعد في الوقت الذي عيّنه الله له، وأنّه لا يؤخره شيء ولا يقدمه، وذلك لأنّ الكفّار إنّما أرادوا من سؤالهم الكناية عن انتفاء وقوعه[٢].

٥ - جاء الاستئخار والاستقدام مبالغة في التأخّر والتّقدم، وقدم الاستئخار على الاستقدام إشارة إلى أنّه مِيعاد بَأس وعذاب الله عليهم من شأنه أن يتمنّوا تأخّره، فيكون ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سَبَإ: ٣٠] تتميمًا لتحققه عند وقته المعيّن في علم الله[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١١/٣٩٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

يتضمن الأسلوب القرآني هذا توجيهات ينبغي للدّاعية أن يأخذها بعين الاعتبار:

١ ـ أن يفقه أنّ الواجب عليه قبل الدّعوة إلى الله هو أخذ العلم على بصيرة من أساس العقيدة الرّاسخة، ومن ثمّ تعليم النّاس معاني هذه الدّعوة وأن يضرب لهم الأمثلة على ذلك، لأنّ الجهل وعدم العلم هو الذي قاد كفار قريش إلى السؤال والاستعجال.

٢ ـ أن لا يغترّ بعلمه، وليعلم أنّه يوجد من هو أعلم منه، وإذا سئل عن شيء لا يعلمه أن لا يجيب عنه.

٣ ـ لفت انتباه المدعوّين إلى أنّهم سيرجعون إلى الله تعالى وسيحاسبون على ما قدّمت أيديهم، ويجب التّشديد على حقيقة وقوعه في الوقت الذي عيّنه الله لهم، فلا يؤخّره شيء ولا يقدّمه، وأن يوجه همم المدعوين من الاستفسار عن وقت قيام السّاعة والبعث والنّشور إلى الاستعداد للقاء الله بالتّوحيد والعمل الصالح.

٤ ـ استعمال الأساليب المؤثرة في نفسية المدعوّين ليجعلهم ينصتون له، ويتقبلون ما يدعو إليه كأسلوب التّهديد الذي انتهجه القرآن الكريم في الردّ على سؤال الكفّار باستعجالهم العذاب.

٥ ـ أن لا ييأس، ولا يأخذه القنوط، والتّراجع حين تواجَه الدّعوة بالتّكذيب، وأن يتحلى بالصّبر على ذلك، ويثق تمام الثّقة بسنّة الله في نصرة أوليائه، ولو بعد حين.

الموضع الثالث: من المواضع المدرجة تحت هذا الغرض: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٤٨ ـ ٥١].
كان المشركون كلّما هدّدهم النّبي محمّد ﷺ بنزول العذاب، وقيام السّاعة، ومرّ زمان ولم يظهر ذلك العذاب، كانوا يقولون إنكارًا، واستبعادًا لوقوعه

وقدحًا في نبوّته ﷺ: متّى قيام السّاعة إن كنت أنت، ومَن تبعك من الصادقين فيما تَعِدوننا به؟ وسؤالهم هذا يدلّ على توغلهم في الكفر والجحود، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول ﷺ[(١)].

وقد واجه القرآن الكريم سؤال كفار قريش استعجالهم العذاب بعدم الاستجابة لهم وجاء ذلك في أربع إجابات:

الإجابة الأولى: إظهار عجز الرسول ﷺ بقدرته على جلب الضرّ والنّفع لنفسه: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يُونس: ٤٩]، يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يجيب الكفّار على سؤالهم استعجال العذاب بإجابة حاسمة تفيد إظهار عجزه ﷺ عن جلب نفع أو دفع ضر، ولا يقدر على شيء ممّا استأثر به الله في الغيب إلّا أن يُطلعه عليه، وقد أخبرهم بما أخبره الله به عن السّاعة وأنّها كائنة، ولم يطلعه سبحانه على وقتها، فكيف يملك القدرة على استحضار الوعد الذي استعجلوه واستبعدوه؟ فكان معنى الجواب: أنّ الوعد من الله لا مِنّي، وأنا لا أقدر على إنزاله بكم، لأنّ له أجلًا عند الله، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن يقول لما استعجلوا العذاب: ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ [الأنعَام: ٥٨]، وعلى ذلك فإنزال العذاب على الأعداء، وإظهار النّصر للأولياء، وعلم قيام السّاعة لا يقدر عليه إلّا هو سبحانه وتعالى بحسب مشيئته[(٢)].

الإجابة الثانية: تأكيد قدرة الله تعالى النّافذة في تحديد آجال الأمم: وذلك في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [يُونس: ٤٩]، أي لكلّ أمّة من الأمم الذين أصرّوا على تكذيب رسلهم خاصّة وللأمم عامّة وقت لانقضاء أجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء

---

(١) تفسير الرازي (٨/٢٩٤)، فتح القدير (٣/٣٨١)، التفسير الميسر (٣/٤٢٠).

(٢) تفسير الطبري (١٥/١٠٠)، تفسير ابن كثير (٤/٢٧٣)، تفسير الرازي (٨/٢٩٤)، تفسير الخازن (٣/٤٠٢).

آجالهم وفناء أعمارهم لا يتجاوزونه، فلا يستأخرون عنه ساعة فيُمْهلون، ولا يتقدّم أجلهم عن الوقت المعلوم؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون: ١١]. فإذا جاء ذلك الوقت قضى الله بين الأمم ورسلها، وبينهم بالقسط، وهم لا يظلمون، وعند ذلك يحل العذاب على الظالمين منهم ولا يتعداهم إلى أمّة أخرى، وبذلك أنجز الله سبحانه وتعالى وعده وجازى كلًّا بما يستحقه فلا وجه لاستعجال العذاب[١].

الإجابة الثالثة: استفهام يفيد التّهويل والتّعظيم بتصوير أحوالهم عندما يرون العذاب: في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]، أي قل أيّها الرسول لهؤلاء المشركين المُسْتَعْجِلِينَ بالعَذَابِ جهالة منهم: أخبروني عَنْ حَالِكُمْ إن أتاكم عذاب الله بغتة ليلًا في وَقْتِ مَبيتِكُمْ، أو نهارًا في وقت اشْتِغَالِكُمْ بِلَهْوِكُمْ وَلَعِبِكُمْ وَأُمُورِ مَعَايِشِكُمْ، وَمَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَفْعَلُوه إنْ أَتَاكُمْ العَذَابُ الذي تَسْتَعْجِلُونَهُ. ففي الآية الكريمة توبيخ لهم على استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء، أنّهم يرجون عدم وقوعه لمرارته وشدّة إصابته، فأيّ عَذَابٍ تستعجلون به أيّها المجرمون المُكَذِّبُونَ أَهُوَ عَذَابُ الدُّنْيَا أَمْ عَذَابُ يَوْمِ القِيَامَةِ؟[٢].

قال القطان: «قل أيّها الرّسول لهؤلاء المكذّبين المستعجلين وقوع العذاب: أخبروني إن وقع بكم عذاب الله ليلًا أو نهارًا، فعلى أيّ فائدة تحصُلون من استعجالكم إيّاه؟ وأيّ عذاب تستعجلون؟ عذاب الدنيا، أم عذاب الآخرة!؟»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٧٣/٤)، فتح القدير (٣٨١/٣)، تفسير الألوسي (٢٤/٨)، تاج العروس (٦٨٣١/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٧٣/٤)، أيسر التفاسير لأسعد حومد (١٤١٤/١).

(٣) تفسير القطان (١٩٥/٢).

الإجابة الرابعة: استفهام بمعنى التّهديد وإفساد رأيهم: في قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يُونس: ٥١]، بيّن الله تعالى في هذه الآية أنّ الكفّار الجاهلين يسألون تعجيل العذاب في الدّنيا كفرًا وعنادًا قبل معاينتهم العذاب، وهم ليسوا بصادقين فيما يطلبون، ويتعجّلون وقوعه فإذا ما وقع وشاهدوا أهواله، وذاقوا مرارته آمنوا بأنّه حقّ وتحوّل استهزاؤهم به إلى تصديق وإذعان وتحسّر. فيقال لهم حينئذٍ: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به وتقولون للرّسول ﷺ ولأتباعه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يُونس: ٤٨] فاعلموا أنّ إيمانكم الآن غير مقبول، لأنّه جاء في غير أوانه، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥]. وفي قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يُونس: ٥١] لفظ استفهام والمراد به التّهديد؛ لأنّ استعجالهم كان على جهةِ التّكذيب، والإنكار[(١)].

وللعلماء في معنى قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يُونس: ٥١] قولان: آمنتم به أي صدّقتم بالعذاب وقت نزوله[(٢)]. وأي آمنتم بالله في وقت اليأس[(٣)].

وللعلماء في تحديد القائل في قوله السابق: قولان: هو الله تعالى[(٤)]. هو الملائكة[(٥)].

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٢/٢٦٢)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢١٢١).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٠٠)، تفسير البغوي (٤/١٣٦)، تفسير البيضاوي (٣/٢٨)، تفسير الخازن (٣/٤٠٢).

(٣) بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٠٠)، تفسير البغوي (٤/١٣٦)، تفسير الخازن (٣/٤٠٢).

(٤) تفسير القرطبي (٨/٣٥٠)، فتح القدير (٣/٣٨١).

(٥) تفسير القرطبي (٨/٣٥٠).

كشفت الآيات المتقدّمة بما تضمّنته من دلالات وهدايات متّصلة بما طرحه كفار قريش وما كان من جواب للقرآن الكريم كشفت عن بعض من الحكم يحسن أن نلخصها فيما يلي:

١ ـ إعلام من الله سبحانه وتعالى للمستعجلين العذاب من الكفار بأنّ الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فمن باب أولى أن لا يستطيع أن يضر أو ينفع غيره من عند نفسه.

٢ ـ في هذه الآية تأكيد من الله تعالى على لسان نبيه أنّه لا قدرة لمخلوق، مهما كان قربه من الله تعالى، على شيء إلّا بمشيئته وإرادته، فلا ينفرد المخلوق بحال يملكه، ولا أمر يقدره ولا قوة يبطش بها، ولا مشيئة ينفذها، فأمر الله ﷻ فوق كلّ أمر، ويد الله فوق كلّ يد، ومشيئته ماضية على جميع الخلائق ونافذة فيهم(١).

٣ ـ مناسبة تقديم الضر على النّفع، لأنّ الآية مسوقة للرّدّ على المشركين الذين تعجّلوا نزول العذاب الذي هو نوع من الضّر، وذلك أنسب بالغرض لأنّهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرّتهم وهو الوعيد، ولأنّ استطاعة الضّر أهون من استطاعة النّفع فيكون ذكر النّفع بعده ارتقاء(٢).

٤ ـ تحذير للأمّة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال ونهي صريح عن دعاء غير الله مهما علت منزلة المدعو وارتفعت درجته سواء كان نبيًّا أو ملكًا مقرّبًا، فهذا محمّد ﷺ أكمل المخلوقات وسيد المرسلين والنبيين لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا في حال حياته.

٥ ـ لمّا كان المشركون المخاطبون من جملة الأمم كانوا مشمولين لحكم هذه القضية فكأنّه قيل لهم: أنتم أمّة من الأمم التي جعل الله لها أجلًا لا يعلمه إلّا هو، فإذا حان حينه جاء في وقته المحدّد له

---

(١) رسائل ابن حزم (٤/٤٠١).

(٢) التحرير والتنوير (٦/٤٩٩).

من دون أن يتأخّر أو يتقدّم فترقّبوا أيّها المشركون حلول أجلكم[١].

٦ ـ تحريك جذوة الإيمان بالقضاء والقدر في قلب كلّ مؤمن بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. فالموت من قضاء الله وقدره ولا حيلة لمخلوق في دفعه، أو الحيلولة دون وقوعه.

٧ ـ مناسبة تقديمُ بيان انتفاءِ الاستئخار على بيان انتفاءِ الاستقدام، لأنّ الأهمّ والمقصودَ بيانه عدم خلاصِهم من العذاب ولو بالتأخّر ساعةً[٢].

٨ ـ بيان شأن الكفار وحالهم، فهم استعجلوا العذاب ويرون ما أعدّه الله لهم من العذاب بعيدًا، وهو واقع بهم لا محالة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

٩ ـ تثبيت للمؤمنين على منهج الله، وحثّ لهم على الصبر وطول النّفس في عدم استعجالهم استبطاء النّصر من الله سبحانه وتعالى، فالنّصر قريب منهم ولكنّهم يستعجلون[٣].

١٠ ـ تصوير حال الكفّار حين وقوع العذاب، وكأنّه قد وقع وفي ذلك تأكيد على حقيقة وقوعه التي لا مجال للشك فيها. قال سيد قطب: «فكأنّما قد وقع. وكأنّما قد آمنوا به، وكأنّما يخاطبون بهذا التبكيت في مشهد حاضر يشهدونه الآن!».

١١ ـ تقريع وتوبيخ، وزيادة في التّنديم والتّحسير في أثناء إعلامهم الإيمان عند معاينتهم ملك الموت والعذاب[٤].

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٢٢/٣٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٢٧٣/٣).

(٣) موسوعة الخطب والدروس (٢/٤١).

(٤) تفسير البيضاوي (٢٨/٣)، تفسير الألوسي (٢٤/٨).

١٢ ـ إنكار عليهم في تأخّرهم عن الإيمان، وتوبيخٌ لهم على تكذيبهم باستعجالهم العذاب، على وجه الاستهزاء[(١)].

١٣ ـ استفهام إنكاري بمعنى التغليط، وإفساد لرأيهم، فهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم، فوقع الجواب بمجاراة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم.

١٤ ـ التّعبير عن التّكذيب بالاستعجال حكايةً لحاصل سؤالهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يُونس: ٤٨] الذي جاء في صورة الاستعجال، والمرادُ منه التّكذيب[(٢)].

١٥ ـ زيادة في تكذيبهم فيما يطلبون لأنّهم قبل وقوع العذاب يتعجلون وقوعه، فإذا وقع وشاهدوا أهواله، آمنوا بأنّه حقّ وتحول استهزاؤهم به إلى تصديق وإذعان وتحسّر[(٣)].

١٦ ـ بيان أنّ سنّة الله في عباده أنّه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل.

تضمّن هذا العرض القرآني بعضًا من المعالم التي يحسن أن يستحضرها الدّعاة إلى الله السّائرون على منهج النّبوّة:

١ ـ أن يبين للمدعوّين أنّه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، والله وحده هو النّافع والضّار الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وإذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون.

٢ ـ التّحذير من الشرك بالله في الأقوال والأفعال، وعدم الاستغاثة بالرسل والأولياء عند نزول النّوازل التي لا يقدر على دفعها إلّا الله، فسبحانه الذي خلق الخلق، الرّازق، المحي، المميت، فلا معبود بحق سواه، فكيف يُطلب من أحدهم ما هو عاجز عنه غير قادر عليه؟

---

(١) تفسير أبي السعود (٣/٢٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٦/٤٩٩).

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٢١٢١).

٣ ـ التّمسك بالصّبر والثّبات على المنهج القويم، فالدّاعية أكثر حاجة من غيره من عامّة المسلمين، إلى الصبر، لأنّه يواجه النّاس بدعوته، ويجب أن يستمر في الصّبر ويشتدّ حتّى يأتي نصر الله لأنّ هذه سنّة الله في الدّعوة والدّعاة.

٤ ـ ألّا يستعجل النتائج، بل يسعى ويعتمد على الله تعالى ويجدّ في دعوته، فبذلك سيجد عند النّاس استجابة وقبولًا للدّعوة وإصغاءً لصوت النّاصح، إذا تكلّم بعلم وحكمة.

٥ ـ أن يعي أنّ الآجال محدودة لا تتقدّم يومًا ولا تتأخّر يومًا فيحثّ المدعوّين على الاستعداد للقاء هذا اليوم بالعمل الصالح.

٦ ـ أن يبين للمدعوّين أنّ الإيمان بالله لا يقبل عند معاينة العذاب، أو مشاهدة ملك الموت، فقد كان كفّار مكّة يستعجلون نزول العذاب بهم استهزاء وسخرية لعدم إيمانهم بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، فلمّا انقضت آجالهم وهم مصرون على الكفر آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم.



المبحث الثامن

بيان جهالة الأقوام حين تلقيهم دعوة الرسل

من مواقف القرآن الكريم تجاه أسئلة الأقوام إظهار جهل المنحرفين الضّالّين تجاه دعوة التّوحيد التي قامت عليها جميع الشرائع التي جاء بها الرسل من أوّلهم إلى خاتم الأنبياء محمّد ﷺ، وإظهار معارضتهم ومجادلتهم لهم بغية حمل الرسل على تغيير جانب ممّا أرسلوا به أو الغض عن اتباع جانب من الأحكام التي أنزلها الله وبلّغها رسله، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر اقتراحات الأمم السابقة التي قصدوا بها اللجاج، والمحاجة بالباطل، ليدحضوا به الحقّ، فبدلًا من أن يتّبعوا دعوة رسلهم بالإيمان، وصالح الأعمال قابلوها بإثارة السؤالات أمام الرسل، وكلّ ذلك تبريرٌ لمواقفهم السيئة في تلقّيهم الشريعة التي لا ينخدع بها إلّا من نهج منهجهم، ولم يعرف حقيقتها، فهم كالأموات لا تؤثر فيهم موعظة، وليس لهم فيمن سبقهم عبرة؛ فلا يستجيب إلّا الذين آمنوا وسمعوا الذكر، فاتّبعوه وانتفعوا به، وأمّا الذين كفروا فقد ختم الله على سمعهم، وقلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فهم بمنزلة الموتى لا يقبلون، ولا يصغون إلى داعي الحق.

وقد جاء بيان قبح موقفهم من الدعوة في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأوّل: سوء حال تلقي قوم نوح الشريعة: في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥].

في هذه الآيات دلالة على جهالة وسوء تلقي قوم نوح للشريعة التي جاء بها نوح عليه السلام، **ويظهر ذلك في عدة أمور:**

- ❑ زعموا أنّه أراد بدعوته الارتفاع عليهم على سبيل التّكبّر والتّجبّر، فيسودهم بأن يكون متبوعًا وهم له تبع.
- ❑ ثمّ جاء سؤالهم أن ينزّل الله ملائكة رسلًا من السماء، لعلوّ شأنهم وشدّة سطوتهم، فهم أقدر على الهداية من البشر، فالخلق ينقادون لهم.
- ❑ ثمّ زعموا أنّهم ما سمعوا ببشر يدّعي أنّه رسول من الله، وما سمعوا بمثل دعوته في الأمم السابقة، فمذاهبهم قائمة على التّقليد، والرجوع إلى قول آبائهم، فلمّا لم يجدوا في دعوة نوح عليه السلام شيئًا ممّا عليه آباؤهم حكموا على شريعته بالفساد، وعلى عقله بالجنون وحثّوا قومهم على الصبر، وانتظار موته حتّى يستريحوا منه[1].

كان للقرآن موقف حازم تجاه مسلك الأقوام يتضح في إجابتين:

الإجابة الأولى: دعاء نوح عليه السلام على قومه بالانتصار عليهم بالهلاك:
في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] لمّا ثبت لنوح عليه السلام بوحي من الله أنّ تذكيره لقومه لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه، وأنّه لا فائدة من الاستمرار في دعوتهم، فكلّما جاء قرن كان أخبث من الذي قبله فسجيتهم الكفر الغليظ، والعناد البالغ الذي كان سببًا في سوء تلقيهم دعوته عليه السلام بالقبول وحسن الاتّباع، ورأى إصرارهم على الكفر والعصيان، وتماديهم في الضلال، ويئس من إيمانهم بالكلية؛ فدعا عليهم: ربّ انصرني على قومي؛ بتكذيبهم إيّاي فيما بلّغتهم من رسالتك. فلم يكن دعاؤه عليهم بالنّصر انتصارًا لنفسه، بل انتصارًا لله سبحانه وتعالى،

(١) تفسير الكشاف (٣/٨٠)، تفسير الرازي (٢٣/٩٢)، تفسير القرطبي (١٢/١١٩)، تفسير ابن كثير (٣/٤٤٢).

وجاء ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمَر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١١٨][(١)].

الإجابة الثانية: استجابة الله تعالى دعاء نوح على قومه:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]. في هذه الآية أخبر الله سبحانه وتعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام في دعائه على قومه بالهلاك وقدّم الله تعالى إليه عليه السلام أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا بعدها وأن يحكمها ويتقنها، بمرأى من الله سبحانه وبأمر ومعونة منه سبحانه وأنّه عليه السلام في حفظه وكلاءته، فإذا جاء أمره سبحانه بعذاب قوم نوح بالغرق، وبدأ الطوفان، فنبع الماء بقوة من التّنور وهو المكان الذي يخبز فيه فذلك علامة على مجيء العذاب، فعند ذلك أمره سبحانه أن يحمل في السفينة من كلّ زوجين اثنين، أي: ذكرًا وأنثى من كلّ صنف من الحيوانات والنّباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هُود: ٤٠]، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، وقدّم الله تعالى إليه أنّه إذا جاء أمره وحلّ بهم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين أن لا يعاوده فيهم، ولا يراجعه فإنّه لعلّه قد تدركه رقّة على زوجته وابنه وقومه عند معاينة العذاب النّازل بهم، فإنّه ليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا جاء

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٣٠٤)، تفسير القرطبي (٩/٢٧)، تفسير ابن كثير (٤/٣١٨)، البداية والنهاية (١/١٢٤).

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: ٣٧] أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذك رأفة بقومك، وشفقة عليهم، وطَمَع في تأخيرهم لعلّهم يؤمنون، فإنّي قد قضيت أنّهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان[١].

قال السعدي: «﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٢٧] عند استجابتنا له، سببًا ووسيلة للنّجاة، قبل وقوع أسبابه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك»[٢].

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

قال السعديّ: «﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذّبوا به، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: فارت الأرض، وتفجّرت عيونًا، حتّى محل النّار، الذي لم تجر العادة إلّا ببعده عن الماء ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: أدخل في الفلك من كلّ جنس من الحيوانات، ذكرا وأنثى، تبقى مادة النّسل لسائر الحيوانات، التي اقتضت الحكمة الرّبانيّة إيجادها في الأرض، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أدخلهم ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ كابنه»[٣].

٣ - وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: ٣٧].

قال ابن عجيبة: «لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنّهم مقضي عليهم بالإغراق لا محالة؛ لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومَنْ هذا شأنه لا يُشفع له، وكأنّه عليه السلام، ندم على الدعاء عليهم، حين تحقّق هلاكهم، فهَمَّ بمراجعة الحقّ فيهم؛ شفقة ورحمة، فنُهي عن ذلك»[٤].

---

(١) البداية والنهاية (١/١٢٣).

(٢) تفسير السعدي (٥٥٠).

(٣) تفسير السعدي (٥٥٠).

(٤) البحر المديد (٤/١٧٨).

يستفاد من عرض القرآن هذا عددًا من التّوجيهات الرّبانيّة نعرضها في النّقاط التّالية:

١ ـ جواز الدعاء على من كان غرضه من السؤال دحض الحقّ، وإحقاق للباطل، كما كان غرض قوم نوح من سؤالهم اتّخاذ الحجج في مواجهته عليه السلام، ظنًّا منهم أن يكون ذلك سببًا في صرف النّاس عن دعوته.

٢ ـ الاقتداء بنوح عليه السلام في أسلوبه، في الإجابة عن سؤالات قومه، ومن تلك الأساليب التي سلكها نوح عليه السلام مع قومه قبل الدّعاء عليهم اللطف، واللين من غير مداهنة، ولا إخفاء للحقّ، أو رضا بما هم عليه، فكان مبلّغًا فصيحًا ناصحًا لقومه(١).

٣ ـ إظهار نعمة من النّعم التي أنعم بها الله تعالى على نبيه نوح عليه السلام، فقد أجاب له دعاءه، ونجّاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكّذبين(٢).

٤ ـ التّنبيه على أنّ نصر الله لأوليائه سنّة كونيّة، وفي ذلك تهديد وتذكير لكفار قريش لعلّهم يهتدون، وبيان أنّ الظلم عاقبته الهلاك والتّدمير للظالمين، ومن أعظم الظلم سؤالهم إنزال الملائكة تكذيبًا، وكفرًا، واستكبارًا، والحكمة من ذكر أمم سابقة التّنبيه على أنّ نصر الله أولياءه سنّتُه المرادة له تعريضًا بالتّهديد للمشركين المعاندين، ليتذكروا أنّه لم تشذ عن نصر الله رسلَه شاذّة ولا فاذّة(٣).

٥ ـ نهي الله تعالى لنوح عليه السلام عن الشفاعة في ابنه الذي سيغرق مع المغرقين، وفي ذلك نهي من الله سبحانه وتعالى لمحمّد ﷺ، وللمسلمين عن الدّعاء بالرحمة لمن مات مصرًّا على الكفر(٤).

(١) المستفاد من قصص القرآن (١٤٣/١).
(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (٣٥٧٥/١).
(٣) التحرير والتنوير (١٨٧/٩).
(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (٣٠٠٩/١).

إنّ ممّا يعين أهل الدّعوة في دعوتهم أن يتدبّروا ما تحمله هذه الآيات من دروس وعبر وتوجيهات ومنها:

١ - الصبر على مشاقّ تبليغ الدّعوة وأذى النّاس، فالصبر مفتاح الفرج، وسبيل النّصر، والنّجاة للمتقين، الذين يطيعون الله ويتجنّبون المعاصي، ففيه تحمد العاقبة في الدّنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز بالجنّة.

٢ - قطع الجدال إذا انتفت فائدته، إذا تبين للدّاعية عدم جدوى دعوته، سواء بما يصرّح به المخالف، أو بما تدل عليه القرائن، لا يبقى له سبب مشروع، ولا مبرر معقول في استمرار هذا الجدل العقيم، وينتقل إلى أسلوب آخر؛ لأنّ في ذلك ضياعًا للوقت(١).

٣ - أن لا يدعو على شخص إلّا إذا رأى منه ما يدعوه لذلك، ولا يتجاوز ذلك، فنوح عليه السلام طلب النّصر من الله تعالى على قومه وإهلاكهم بتكذيبهم له، بعد أن أوحى الله إليه أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن، ورأى منهم الإعراض، والنّفور، والاستكبار، والاستهزاء، والتّكذيب لدعوته وما جاء به، فهو بذلك لم يستغل منزلته عند الله باستعجال نصره عليهم بهلاكهم.

٤ - بذل أسباب النّجاة بالاستعانة بالله، والاستغناء عن غيرهم في التّصنيع، لكلّ ما يجعلهم يتفوّقون على أعدائهم من معدات مدنية وعسكرية، وأن يأخذوا ببذل الأسباب وجميع وسائل النّجاح لدعوتهم، فنوح عليه السلام على علوّ منزلته عند الله سبحانه وتعالى أُمر بصنع السفينة التي كانت سببًا في نجاته ومن آمن معه من الغرق؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ولو شاء الله لكتب له النّجاة، وللذين آمنوا معه من غير صنع السفينة، ولكنّه سبحانه إذا قضى أمرًا فإنّما يقول له كن فيكون.

---

(١) ظلال على فقه الدعوة إلى الله تعالى (٩٣).

٥ ـ أن لا تثنيه عاطفة القرابة عن دعوته إذا استحبت قرابته العمى على الهدى، بل عليه أن يبقى ماضيًا في دعوته، وأن يكون ولاؤه لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولا يحزن على من حقت عليه الضلالة ومات على ذلك، ولا يراجع ربّه فيه بالدعاء له بالرّحمة والمغفرة.

الموضع الثاني: سوء تلقي كفار قريش الشريعة: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٧]. هذا السؤال قد تكرّر من الأقوام في عدّة مواضع من القرآن الكريم، وأجابهم الله بأجوبة مختلفة منها: ما يقتضي الردّ عليهم في سؤال الآيات بالآيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٩٩]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ﴾ [العَنكبوت: ٥١]. ومنها: ما يقتضي الإعراض عنهم؛ وإثبات الردّ عليهم بالدليل[1].

فقد واجه القرآن الكريم هذا السؤال ببيان سوء حال تلقيهم الشريعة وجاء ذلك في ثلاث إجابات:

الإجابة الأولى: تأكيد قدرة الله على إنزال آية: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾. في هذه الآية أمر الله سبحانه وتعالى محمّدًا ﷺ أن يردّ على الجاحدين، على سبيل التّوبيخ والتّقريع، بأنّ الله قادر على أن ينزّل آية تضطرهم إلى الإيمان، فسبحانه لا يعجزه شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشُعَرَاء: ٤] ولكنّه ينزل ما تقتضيه حكمته، لتظهر فائدة التّكليف الذي هو الابتلاء والامتحان، إلّا أنّهم لجهلهم وعنادهم لا يعلمون شيئًا من حِكم الله في أفعاله، ولا من سننه في خلقه، فسبحانه لو أنزل آية؛ كما طلبوا لاتّبعوا سنن من قبلهم في الإصرار على الكفر،

(١) تفسير الطبري (٣٤٣/١١)، النكت والعيون (٤٠٦/١)، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٣)، التحرير والتنوير (٣٤١/٧).

والتّكذيب فيحل بهم العذاب، ولا يمهلون، فكان ذلك من أسباب امتناع الله سبحانه وتعالى من إجابتهم(١).

وللعلماء في المراد من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعَام: ٣٧]، **قولان**:

- ❑ أنّ الله قادر على إيجاد ما طلبوه، وتحصيل ما اقترحوه من خوارق العادات(٢).
- ❑ وآيةٌ مُوجبة لهلاكهم(٣).

الإجابة الثانية: نفي العلم عن أكثر كفّار قريش: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٧].

في هذه الآية تخصيص بنفي العلم عن أكثر كفّار قريش للأسباب التّالية:

- ❑ أنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل آية باهرة ومعجزة قاهرة، وهي القرآن الكريم.
- ❑ أنّهم لا يعلمون ما عليهم في نزول الآية من البلاء، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك على رسوله ﷺ، فلو علموا السبب لما قالوا ذلك، لأنّه لو أنزلها على وفق ما طلبوا، ثمّ لم يؤمنوا لعاجلهم الله بالعقوبة؛ كما فعل بالأمم السابقة(٤).

---

(١) تفسير الطبري (١١/٣٤٣)، تفسير ابن كثير (٣/٢٥٣)، فتح القدير (٢/٤٠٩).
(٢) تفسير البيضاوي (٢/١٤٦)، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (١/٣٥٧)، تفسير الرازي (٦/٢٧٤).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى (١/٣٥٧)، تفسير أبي السعود (٢/٣٥٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٣)، تفسير أبي السعود (٢/٣٥٩)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٤٥٥).

وللعلماء في المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٧] **ثلاثة أقوال:**

- ❑ يعلمون أنّ الله قادر على إنزال آية، ولا يعلمون أنّ الله منع الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان لمصالح العباد[١].
- ❑ لا يعلمون أنّ الله قادر على إنزال الآية[٢].
- ❑ لا يعلمون المصلحة في نزول الآيات من القرآن الكريم[٣].

الإجابة الثالثة: ذكر الأدلة الدّالة على عظيم قدرته: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٨]. موضع الاحتجاج من هذه الآية أنّ الله ركّب في المشركين عقولًا، وجعل لهم أفهامًا ألزمهم بها، أن يتدبّروا أمر الرسول ﷺ، كما جعل للدّواب، والطير أفهامًا، يعرف بها بعضها إشارة بعض[٤].

وللعلماء في المراد من قوله تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ أقوال منها:

قول مجاهد: «أصناف مُصَنَّفة تُعرَف بأسمائها»[٥]. وقول السُّدِّي: «أي: خلق أمثالكم»[٦].

---

(١) تفسير الطبري (٣٤٣/١١)، بحر العلوم للسمرقندي (٣٤/٢)، النكت والعيون (٤٠٦/١)، زاد المسير (٣٤/٣).

(٢) بحر العلوم للسمرقندي (٣٤/٢)، زاد المسير (٣٤/٣)، الكشاف (١١٢/٢)، تفسير البيضاوي (١٤٦/٢).

(٣) النكت والعيون (٤٠٦/١)، زاد المسير (٣٤/٣)، تفسير الرازي (٢٧٤/٦)، تفسير البحر المحيط (١٣٤/٥).

(٤) زاد المسير (٣٤/٣)، تفسير البحر المحيط (١٣٥/٥).

(٥) تفسير الطبري (٣٤٤/١١)، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٣).

(٦) المرجع السابق.

وقول ابن عباس: «المماثلة من حيث هم يعرفون الله ويوحدونه ويسبّحونه»[(١)].

ولهم قولان في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأنعَام: ٣٨]:

أي في **اللوح المحفوظ**، فإنّه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. قاله الحسن، وقتادة.

وفي القرآن الكريم، إمّا دلالة مبيّنة مشروحة وإمّا مجملة يتلقّى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام[(٢)]. قاله ابن مسعود:

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٨]: قال السعدي: «أي: جميع الأمم تحشر، وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأوّلون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض»[(٣)].

لله تعالى حكمة بالغة بعدم استجابته سبحانه لهؤلاء الجهلة في طلبهم إنزال العذاب واستعجاله، وإنّما بيّن الله لهم أنّ عدم الاستجابة لهم في هذا المطلب المهلك لهم إنّما كان لحكم منها الإمهال، **فجاء الردّ القرآني متضمّنًا المعالم التّالية:**

١ ـ جاء التّوبيخ، والتّقريع لكفّار قريش تأكيدًا لقدرته، فهو لا يعجزه شيء، ولكنّه ينزل ما تقتضيه حكمته، إلّا أنّهم لجهلهم، لا يعلمون شيئًا من حكم الله في أفعاله، ولا من سننه في خلقه[(٤)].

٢ ـ اقتضت حكمة الله أن يجيبهم بما يقتضي الإعراض عنهم، وإثبات الردّ عليهم بالدّليل لعلم الله سبحانه وتعالى أنّهم إنّما يطلبون هذه

---

(١) تفسير الطبري (٣٤٤/١١)، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢٢/٤).

(٣) تفسير السعدي (٢٥٥).

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١٤٥٥/١).

المعجزات، لا لطلب الحقّ والإيمان بالله والتّصديق بنبوّة محمّد ﷺ، وحسن التّلقي، بل كان غرضهم من سؤالهم العناد، والإعراض عن اتّباع الحقّ، فلو أجابهم الله لما آمنوا بل سيقترحون اقتراحًا ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا، وبذلك لا تتم الحجّة بتبليغ الرّسالة(١).

٣ ـ الإعراض عن الاستجابة لسؤالهم تأكيد أنّ القرآن الكريم هو المعجزة الباهرة، والدّلالة الكافية، وبظهوره لم يبق لكفّار قريش عذر، فوجب في أوّل الأمر سد هذا الباب، والاكتفاء بالقرآن الكريم مع عجزهم عن الإتيان بمثله، وما تضمّنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عمّا كان، فيكون بذلك أبلغ الآيات، وأظهر المعجزات(٢).

٤ ـ عدم علم أكثر النّاس أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما جعل المصلحة في إرساله رسوله بالهدى، ودين الحقّ، وأيّده بالآيات البيّنات من القرآن الكريم التي تدعو للنّظر، والتّأمّل، والتّدبر، ليهتدي بها قوم، ويضل بها آخرون فيهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بيّنة(٣).

٥ ـ أنّ الذي خلق الأحياء كلّها وجعلها كالأمّم ذات خصائص جامعة لأفراد كلّ نوع منها وهي آية دالّة على عظيم قدرته، لا يعجزه أن يأتي بالآية التي اقترحها كفّار قريش، ولكنّهم لا يعلمون الحكمة في عدم إجابتهم إلى سؤالهم(٤).

٦ ـ بيان سعة علم الله تعالى، وعظيم قدرته، وبيانٌ لأحوال الأمم المذكورة في الآخرة بعد بيان أحوالها في الدّنيا.

---

(١) تفسير البحر المحيط (١٣٤/٥).

(٢) تفسير النيسابوري (٢٦٥/٣).

(٣) تفسير السعدي (٢٥٥).

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١٤٥٥/١).

٧ ـ تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان فهم أمم أمثالنا، والتّحذير من الاعتداء عليها بما نهى الشرع عنه من تعذيبها وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقتصُّ لبعضها من بعض، وهي غير مكلّفة، فالاقتصاص لها من الإنسان أولى بالعدل[١]. وقد ثبت في الحديث: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّار ـ قَالَ فَقَالَ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[٢].

تتضمّن هذه المواقف القرآنية النّاصعة معالم ربّانيّة ينبغي على الدّاعية أن يجعلها نصب عينيه في مسيرته المباركة في الدّعوة إلى الله تعالى:

١ ـ تأكيد أنّ القرآن الكريم هو البيّنة العظمى للردّ على اقتراحات وسؤالات الجاحدين، وهو أكبر المعجزات الدّالة على نبوّة محمّد ﷺ والمعجزة الباقية إلى يوم الدّين، فالله تعالى تحدّى المشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم فعجزوا، وكذلك جميع الخلق في كلّ زمان ومكان.

٢ ـ تنبيه المدعوّين على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، فهو سبحانه الحافظ لجميع خلقه، والعالم بجميع شؤونهم، غير غافل عن أعمال جميع الخلق ومجازيهم يوم القيامة كلّ بما عمل من خير أو شر.

٣ ـ تنبيه المدعوّين على الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يستعدّوا للقائه بالأعمال الصالحة، وتوحيد الله ﷻ قبل أن يحشروا إليه، ويحاسبهم بما قدّمت أيديهم، فلعلّ الدّاعية بهذا المسلك يؤثر في قلوب المدعوين فيسرعوا إلى إجابته، والعمل بما يدعوهم إليه.

---

(١) التحرير والتنوير (٤/٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (باب فضل سقي الماء ٨/٤٦٢، رقم ٢٣٦٥).

٤ ـ تنبيه المدعوّين على الرّفق بالحيوان فالرّحمة في الإسلام لم تقف عند حدود الإنسان، فقد نهى الرّسول ﷺ عن تعذيب الحيوان، ودعا إلى الإحسان إلى كلّ حيوان فإنّها أمم مماثلة للنّاس، فلا يجوز تعذيبها، ولا قتلها إلّا لمصلحة راجحة.

الموضع الثالث: من المواضع التي تكشف سلبية هؤلاء الأقوام جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦]. هذه الآيات تظهر سوء تلقي كفار قريش للشريعة التي جاء بها محمّد ﷺ، فقد اقترحوا إحياء آبائهم زعمًا منهم أنّ صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم وأنّ محمّد ﷺ لو جاءهم بكلّ آية لم يؤمنوا، إلّا إن اتّبعهم على ما قالوا، وهم كذبة فيما قالوا، وإنّما قصدهم دفع دعوة الرسل لا بيان الحقّ[(١)].

وهذا الاقتراح تكرّر مع الرّسول ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدّخان: ٣٦ ـ ٣٩]. في الآيات السابقة لهذا السؤال جاء ذكر موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وما لاقاه منهم من الإعراض، والإصرار على الكفر، والتّكذيب بما جاء به من البيّنات، ثمّ بيّن الله عاقبة سوء تلقيهم الشّريعة بأن عاقبهم الله بالغرق، وأورث بني إسرائيل الجنّات، والعيون، والكنوز التي كان يمتلكها فرعون وقومه، فما كان من كفّار قريش إلّا أن قابلوا تلك المواعظ والعبر والتّهديد بالعذاب لمن أعرض وتولّى بإنكار البعث وسؤال إحياء آبائهم الأوّلين حتّى يتحقّق لهم صدق محمّد ﷺ فيما جاء به، ففي كلا الموضعين من سؤالهم لم يكن قصدهم إلّا التّنصّل من اتّباع الحقّ، قال ابن عاشور: فقولهم هذا

---

(١) تفسير السعدي (٧٧٧).

«تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجّة البيّنة، والمصير إلى سلاح العاجز من الخروج عن دائرة البحث»[١].

وقد واجه القرآن الكريم هذين السؤالين ببيان سوء حال تلقيهم الشريعة وقد جاء ذلك في **ثلاث إجابات**:

الإجابة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦] لـمّا أنكر كفّار قريش البعث، وكذّبوا الرّسول ﷺ جاءت هذه الآية جوابًا لقولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وفي ذلك أمر من الله سبحانه وتعالى للنّبي ﷺ بأن يردّ عليهم بما يخرس ألسنتهم بأنّه سبحانه، هو الذي يحييهم ما شاء أن يحييهم في الدّنيا، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ عند انقضاء آجالهم في الدّنيا، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ جميعًا أوّلهم وآخرهم، وصغيرهم وكبيرهم إلى يَوْمِ القيامة فيعيدهم أحياءً مرّة أخرى للحساب والجزاء، وهذا اليوم وهو يوم القيامة آت ولا شكّ في حدوثه، وذلك اليوم يظهر فيه خسران أصحاب الأباطيل، وهم الكافرون يصيرون إلى النّار، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] ولكنّهم لا يَعْلَمُونَ ذلك لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم، ولو عقلوا لعلموا أنّ من أنشأ الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته من باب أولى[٢]. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وفي المراد من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيّه ﷺ، قل يا محمّد لهؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث، القائلين لك ائتنا بآبائنا إن كنت صادقًا: أيّها المشركون، الله يحييكم ما شاء أن يحييكم في الدّنيا،

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٠/٣٦٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٢/٨١)، تفسير القرطبي (١٦/١٧٣)، تفسير الخازن (٥/٤٠١)، الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٤٩).

ثمّ يميتكم فيها إذا شاء، ثمّ يجمعكم إلى يوم القيامة، يعني أنّه يجمعكم جميعًا أوّلكم وآخركم، وصغيركم وكبيركم أحياءً ليوم القيامة لا شكّ فيه، فلا تشكّوا في ذلك، فإنّ الأمر كما وصفت لكم»(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦] قال أبو السعود: «استدراكُ من قولِه تَعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦] وهُوَ إمَّا من تمامِ الكلامِ المأمورِ بِهِ، أو كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالَى تحقيقًا للحقِّ، وتنبيهًا علىَ أنَّ ارتيابَهُم لجهلِهم، وقُصُورِهم في النّظرِ، والتّفكرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ مَا»(٢).

الإجابة الثانية: في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدّخان: ٣٧]. جاءت هذه الإجابة توبيخًا، وإيذانًا من الله تعالى بأنّ إنكار الكفّار للبعث ليس عن حجّة قاطعة ودليل ظاهر، بل عن مجرد حبّ العاجلة، والتمتُّع بملاذ الدّنيا، والاغترار بالمال، والمآل، والقوّة، والمنعة، فكما أهلك الله تعالى مَن قبلَهم من الفراعنة والتابعة الكافرين، كذلك يفعل بهؤلاء الكفّار إن لم يرتدعوا، ويرجعوا عن كفرهم وغيِّهم، وكما ضرب الله سبحانه وتعالى لكفّار قريش المثل بمهلك قوم فرعون فلم يزدهم ذلك إلّا نفورًا واستكبارًا عن تلقي الدّعوة بالقبول، والإيمان بالله ورسوله، واتّباع شرعه؛ ضرب لهم مثلًا آخر هو أقرب إلى اعتبارهم به، وهو مهلك قوم هم أقرب إلى بلادهم في الزّمان والمكان، أولئك هم قوم تبّع، وقد تناقل العرب عظمة مُلكهم، وما شاهدوه من آثار قوّتهم، وعظمتهم في مراحل أسفارهم، ووقفوا على بيوتهم، وهي خاوية من أهلها الذين أهلكوا بسيل العرم(٣).

وفي المراد من قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عاشور: «والمعنى: أنّهم ليسوا خيرًا من قوم تبّع،

---

(١) تفسير الطبري (٨١/٢٢).

(٢) تفسير أبي السعود (١٢٩/٦).

(٣) البحر المديد (٤٩٩/٥).

ومَن قبلهم من الأمم، استأصلهم الله، فلمّا مَاثلوهم في الإجرام، فلا مزيّة لهم تدفع عنهم الاستئصال الذي أحلّه الله بالأمم قبلهم»[١].

الإجابة الثالثة: لمّا أنكر الله على كفّار مكّة سؤالهم، ووبّخهم بأنّهم أضعف ممن كانوا قبلهم، ذكر الدّليل القاطع على صحة القول بالبعث، والقيامة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] ففي هذه الآية تنزيه الله سبحانه وتعالى لنفسه عن اللعب والعبث، فالحقّ الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله هو مكافأة كلّ عامل بما يناسب عمله ويُجازيه عليه؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ذلك لانطماس بصائرهم واستحواذ الشيطان عليها، وفيها أنّ أكثر النّاس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان، والنّبات، الدّالة على وجود الإله القادر الحكيم، وكذلك أكثرهم لا يعلمون أنّه تعالى لمّا كان قادرًا على الإيجاد ابتداءً وجب أن يكون قادرًا على الإعادة ثانيًا، وإلّا فالذي يتدبّر خلق السماوات والأرض وما فيهما من دقّة وحكمة يتبين له أنّ كلّ شيء خلق عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، فلا يزيد ولا ينقص شيء في السماوات والأرض إلّا بعلمه وأمره، فسبحانه وتعالى عمّا يشركون، وهذا كلّه مما يوقع في النّفس الحية أنّ في خلق هذه المخلوقات عند بارئها غاية لا عبث فيها، وأنّ هذا الكون بما فيه قائم على الحقّ فلا باطل فيه، وأنّ له نهاية تحدث بموت كلّ حي، فأمر الآخرة وأمر الجزاء فيها قائم لا شكّ فيه[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٨/١٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٤٤/١٦)، تفسير الرازي (٣٤/١٤)، تفسير ابن كثير (٢٥٦/٧)، البحر المديد (٤٩٩/٥).

وفي المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]. قال ابن عاشور: «والمعنى: أنّه لو لم يكن بعثٌ وجزاءٌ لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثًا، ونحن خلقنا ذلك كلّه بالحقّ، أي بالحكمة كما دلّ عليه إتقان نظام الموجودات، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازَى كلّ فاعل على فعله وأن لا يضاع ذلك ولمّا كان المشاهد أنّ كثيرًا من النّاس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاءً على أعماله تعيّن أنّ الله أخّر جزاءهم إلى حياة أخرى، وإلّا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب»(١).

وللعلماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ قولان: غافلين، قاله مقاتل(٢). ولاهين، قاله الكلبي(٣).

ولهم في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قولان أيضًا: ﴿إِلَّا﴾ للحقّ، وهو الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، قاله الكلبي، والحسن(٤). و﴿إِلَّا﴾ لإقامة الحقّ، وإظهاره من توحيد الله، والتزام طاعته(٥).

خلاصة هذه الحوارات والسؤالات مجموعة من الهدايات التي ينبغي أن يبذل المسلم جهده في تدبرها:

١ ـ أنّ إنكار البعث هو الذي صرفهم عن توقّع جزاء السوء على إعراضهم فهم لأجل ذلك يجترئون على المعاصي، ويفسدون في الأرض فلا يرجون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا(٦).

٢ ـ أنّ الله تعالى لم يجبهم إلى سؤالهم لحكمة اقتضاها فسبحانه خلق الجنّ والإنس في هذه الحياة الدّنيا ليعبدوه بصالح الأعمال،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٨/١٣).

(٢) تفسير الطبري (٨١/٢٢).

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير الطبري (٨١/٢٢)، تفسير القرطبي (١٤٧/١٦).

(٥) تفسير البغوي (٢٣٣/٧).

(٦) تفسير السراج المنير (٤٠٥٢/١).

فهم خلقوا ليعملوا، ثمّ يموتوا، ثمّ يبعثوا فيجازوا على أعمالهم خيرها وشرها.

٣ - تسجيل على كفّار قريش بالتلجلج عن الحجّة البيّنة التي جاء بها محمّد ﷺ، وحسبوا أن سؤال إحياء آبائهم حجّة لهم، فجاء الجواب بما يجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعي الحقّ، وهو إحياؤهم، ثمّ إماتتهم، ثمّ إحياؤهم مرّة أخرى وجمعهم إليه يوم القيامة، فمن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه، فكان اتّخاذهم هذا السؤال سلاح العاجز وقصدوا به المكابرة، والخروج عن دائرة البحث[١].

٤ - أنّ تقديم اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ [الجَاثيَة: ٢٦] يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به سبحانه لإبطال قول الدّهريين الذين يقولون إنّ الدّهر هو الذي يميتهم؛ كما في قوله تعالى حكاية عنهم ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجَاثيَة: ٢٤]. وليس المقصود من هذه الإجابة الدّلالة على وجود الله سبحانه وتعالى، لأنّ هذه الأدلة تكرّرت في عدّة مواضع من القرآن الكريم فاستُغني عن تفصيلها، وجاء الإبطال هنا بطريق الإجمال والمعارضة والمقصود منه التّنبيه على ما هو الدّليل الحقّ القاطع في إحيائهم بعد إماتتهم، وجمعهم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء[٢].

٥ - لم يذكر الله الإحياء في المرّة الثانية عند البعث بالرغم من ذكرها في آيات أخرى، فقال سبحانه وتعالى مباشرة في هذه الآية: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الجَاثيَة: ٢٦] وفي هذا دلالة قاطعة على قرب القيامة بعد الموت مباشرة[٣]، كما قال محمّد ﷺ: «**من مات قامت قيامته**»[٤].

(١) تفسير القرطبي (١٧٣/١٦)، التحرير والتنوير (٣٦٤/١٠)، أيسر التفاسير للجزائري (٦١/٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣٢٩/١٣).

(٣) قرب قيام الساعة (٨/١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (باب سكرات الموت ٢٣٨٧/٥، رقم ٦١٤٦).

٦ ـ تنبيه على أنّهم يرتابون لجهلهم وتقصيرهم في التّفكُّر و النّظر، لا لأنّ فيه ريبًا ما(١).

٧ ـ بيان لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم، ولو عقلوا لعلموا أنّ من أنشأ الإنسان من العدم، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى(٢).

٨ ـ أنّهم لا يفكرون، ولا يتعقّلون، فكذّبوا بالوحي الإلهي الذي هو طريق العلم الصحيح؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الجَاثيَة: ١٨] قال ابن عباس: «على هدًى من أمر دينه» فهم لا يعلمون حتّى يؤمنوا بالوحي، ويسمعوه، ويتفهّموه ولو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالًا وتهيّؤوا له، ولكنّهم عملوا على عكس ذلك فلهذا حصل معهم الشكّ والريبة في البعث، وجاؤوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، ولو نظروا حقّ النّظر لحصلوا على العلم اليقين، واندفع عنهم الرّيب وأراحوا أنفسهم من ورطة الشكّ والحيرة(٣).

٩ ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدّخَان: ٣٧] استفهام تقريري إذ لا يسعهم إلّا أن يعترفوا بأن قوم تبّع، والذين من قبلهم خير منهم، لأنّهم كانوا يضربون بهم الأمثال في القوّة والمنعة. والمراد بالخيرية التّفضيل في القوّة والمنعة، كما قال تعالى بعد ذكر قوم فرعون: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القَمَر: ٤٣].

١٠ ـ والمقصود بذلك تحذير الكافرين من التّمادي في الضّلال، لأنّ هذا التّمادي سيؤدي بهم إلى الخسران كما هو حال قوم تبّع الذين لا يخفى أمرهم عليهم(٤).

---

(١) البحر المديد (٦/٢٢).
(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٤٩).
(٣) تفسير السعدي (٧٧٧)، أيسر التفاسير للجزائري (٤/٦١).
(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٣٢).

١١ ـ وفي الآية السابقة بشارة لمحمّد ﷺ، والمؤمنين، بأنّ الغلبة لهم، فقد أهلك الله ما حولهم من القرى لكفرهم، وكفّار قريش ليسوا بأقوى منهم، ولا أكثر أموالًا، وأولادًا[١].

١٢ ـ تقرير أنّ الحشر حاصل ولا بدّ منه فلم يكن خلق الله تعالى السماوات والأرض عن لهو وغفلة منه، فسبحانه جعل في خلقهما غرضًا صحيحًا وغاية حميدة، هي الإيمان به والطّاعة له في الدّنيا، ثمّ الموت والبعث، والجزاء في الآخرة[٢].

في هذه الآيات توجيهات للدّعاة تعدّ زادًا لهم في مواجهة أعداء الله تعالى تتمثّل فيما يلي:

١ ـ تثبيت ركائز العقيدة في نفوس المدعوّين فمثلًا إنكار البعث هو سبب سوء تلقي الأقوام للشريعة من أنبيائهم، فعلى الدّاعية أن ينهج منهج القرآن الكريم في تثبيت هذه الرّكائز بالاستدلال بالآيات الكونيّة التي خلقها الله سبحانه وتعالى، وكذلك في أنفسهم يتفكّرون فالذي بدأ بخلقهم وخلق غيرهم من العدم إلى الوجود؛ كما هو مشاهد في كلّ زمان ومكان قادر على إعادتهم بعد موتهم أحياءً لتجزى كلّ نفس بما كسبت.

٢ ـ أن يجمع للمدعوّين بين التّرغيب والتّرهيب، لعلّهم يتأثّرون بهذا الأسلوب، واستعمال هذا الأسلوب يشعر المدعو ببطلان حجّته، وفساد جدله.

٣ ـ أن يركّز في مكان العبرة من القصص التي قصّها القرآن الكريم عن مصارع الطّغاة السابقين، ليتّعظ به السامعون، فيعودوا عن غيّهم، ويرجعوا عن فسادهم، ويستجيبوا لما يدعوهم إليه الدّاعية.

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٢٣١/٤).

(٢) البحر المديد (٤٩٩/٥).

٤ ـ تنبيه المدعوّين إلى أنّ خلق السماوات والأرض لم يكن عن لهوٍ وغفلة، بل خلقهما الله سبحانه وتعالى لحكم عظيمة، جهلها من جهلها، وعلمها من علمها، وفي خلق السماوات والأرض تأكيد أنّ البعث والحساب والجزاء لا بدّ منها، وفي ذلك حثّ لهم على الاستعداد لهذا اليوم، بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وحسن اتّباع شريعته.



المبحث التّاسع

سؤالات الأقوام بين الوقوع والتّوقّع

من أهم ما يتناوله هذا المبحث إظهار موقف كل نبي من سؤالات قومه والتّخويف من مصيرهم في الآخرة، وما يستفيده الدّعاة من ذلك.

وقد اقتضت طبيعة هذا المبحث تقسيمه إلى قسمين:

❊ القسم الأوّل: ما تحقّق من تلك السؤالات

أولًا: سؤال إنزال العذاب:

الموضع الأوّل: سؤال قوم نوح: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [هُود: ٣٢].

في هذه الآية يظهر موقف المكذّبين من دعوة نوح المقنعة، والمنطقية والتي وصفوها بالجدال، لمّا ضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل، ثمّ وقفوا موقف المفلس عن الردّ بالحجّة المقنعة، فتركوا الجدال إلى تحدّي نوح بالإتيان بالعذاب ظنًّا منهم أنّه كاذب وأنّه لو سأل الله إنزال العذاب بهم فلن يجيبه(١).

تعدّدت مواقف نوح عليه السلام تجاه سؤال قومه إنزال العذاب:

الموقف الأوّل: تأكيد أنّ أمر نزول العذاب والهداية عائد إلى الله لا إليه،

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١٥)، تفسير القرطبي (٢٧/٩)، تفسير ابن كثير (٣١٨/٤).

وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هُود: ٣٣، ٣٤]. كان في استعجال قوم نوح نزول العذاب، وإظهار مللهم من كثرة جداله ﷺ دلالة واضحة على استمرارهم في تكذيبه، وما يعدهم به من العذاب فجاءت هذه الآية ببيان الحقيقة التي غفلوا عنها في سؤالهم استعجال العذاب، وهي أنّه ليس إلّا رسولًا، وما عليه إلّا البلاغ، وأمّا العذاب فهو من الله فلا يملك ردّه ولا تعجيله إلّا هو سبحانه، وليسوا بمعجزيه، ولا هم بمانعين الله إنزاله بهم، وليس لنوح ﷺ قدرة على هدايتهم، فلا ينفع نصحه إن سبق في علمه سبحانه شقاؤهم، فهو ربّهم الذي يهدي من يشاء، وإليه المصير، فيحاسب كلًّا على غيّه[(١)].

الموقف الثاني: دعاء نوح على قومه:

لمّا ثبت بوحي من الله إلى نوح ﷺ أنّ التّذكير لن ينفع قومه بوجه من الوجوه، وأنّه كلّما جاء قرن كان أخبث ممّن قبله، وأنّه لا فائدة من الاستمرار في دعوته لهم، أمره سبحانه وتعالى أن يتوقف عن جدالهم، وأن لا يحزن، ولا يغتم، بما كانوا يفعلون من تكذيب وإيذاء له، ولمن آمن معه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: ٣٦]. فلمّا أوحي إليه إصرار قومه على الكفر والتّمادي في الضّلال، يئس من إيمانهم بالكليّة فدعا عليهم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القَمَر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وقوله تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١١٨] فلم يدع عليهم انتصارًا لنفسه، بل غضبًا لله بعد أن كفروا وكذّبوا رسوله[(٢)].

---

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١٥)، تفسير الرازي (٣٩٩/٨)، تفسير ابن كثير (٣١٨/٤)، نظم الدرر (١٤٩/٤).

(٢) تفسير الطبري (٣٠٤/١٥)، تفسير القرطبي (٢٧/٩)، تفسير ابن كثير (٣١٨/٤).

الموقف الثالث: التّخويف من مصيرهم بالآخرة:

أظهر نوح لقومه شفقته عليهم، وإرادة الخير لهم، ومن مظاهر شفقته عليهم، أنّه أنذرهم عذاب الله إن رفضوا دعوته؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، أي إنّي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، إذا سرتم في طريق الكفر والضلال ولقيتم الله وأنتم مشركون به، وجاء وصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه من أهوال وذلك أكمل للإنذار[١].

الموقف الرابع: صناعة الفلك والنّجاة بالمؤمنين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]. جاء أمر الله لنبيه نوح عليه السلام بالاستعداد لليوم الفاصل بين الحقّ والباطل بصنع السفينة، ووعده سبحانه بأنّه سيحفظه ويرعاه، ونهاه عن الشفاعة لمن سبق عليه القول من الكافرين بالغرق والهلاك، ويمتثل نوح أمر ربّه ويصنع السفينة، فكان قومه كلّما مرّوا عليه سخروا منه بقولهم: كنت نبيًّا ثمّ صرت نجّارًا، وكيف تصنع سفينة على اليابس وهي لا تجري عليه، ولمّا حلّ عذاب المكذّبين بنوح ورسالته، وجاء أمر الله الذي وعد به وهو الطّوفان، وذلك بوجود علامة، وهي فوران التّنّور بالماء، أمر الله نوحًا عليه السلام بأن يحمل على ظهر هذه السفينة من كلّ صنف من المخلوقات اثنين ذكرًا وأنثى وأهله الذين آمنوا به، ومن آمن معه، فامتثل نوح لأمر ربّه، وجرت بهم السفينة بأمر الله وعنايته[٢].

مصير هذا السؤال: حقّق الله لقوم نوح سؤالهم العذابَ بالغرق في الدّنيا،

(١) تفسير القرطبي (٩/٢٧)، تفسير ابن كثير (٣/٤٣١).

(٢) تفسير الطبري (١٥/٣٠٤)، بحر العلوم للسمرقندي (٢/٣٣٠)، تفسير أبي السعود (٤/٤٠٣).

والنّار في الآخرة، جزاءً لهم على إصرارهم على الكفر بالله؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح: ٢٥][١].

يجد المتأمّل والمتدبّر بهذه الآيات وما تضمنته من هدايات إرشادات ربّانيّة ومعالم قرآنية ومنها:

١ ـ الإنكار بالأسلوب الحسن: على الدّاعية الإصغاء إلى جميع شبه المدعوّين، والردّ عليهم بأسلوب حكيم وعدم الاستسلام لسؤالاتهم الباطلة ثقة منه أنّه على الحقّ، وأنّهم على الباطل، واستخدام جميع وسائل النّجاح في دعوته، فالمتأمّل لأسلوب نوح عليه السلام في التّعامل مع قومه إنكاره عليهم بصورة الاستفهام الإنكاري في عدم قبولهم الموعظة الربّانيّة التي جاء بها وهو بشر من ربّه، لأنّ ذلك غير جارح للمخاطبين على عكس الإنكار الصريح، ففيه تعنيف شديد عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

٢ ـ حِلم الدّاعي على المخالفين: على الدّاعية أن يحلم على المخالفين وهو يجادلهم بالحسنى، فلا يستفزّه ما يقولونه عنه، وأن ينفي ما يتّهمونه به بالحجّة والبرهان.

٣ ـ الشفقة على المدعو والنّصح له: على الدّاعي أن يُشعرَ المدعو بالشفقة عليه والنّصح له، وأن يكلّمه بروح النّاصح الشّفيق المخلص، وتحذيره من مخالفة الشرع.

الموضع الثاني: سؤال قوم هود نزول العذاب: في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. جاء سؤالهم إنزالَ العذاب

---

(١) تفسير القطان (٣/٤٠٤)، أيسر التفاسير لأسعد حومد (١٥١٣/١)، التفسير المنير(٢٤/١٢٧).

إنكارًا لدعوتهم إلى إفراد الله بالعبادة، ولتهديدهم بالعذاب إن لم يستجيبوا لدعوته، فقالوا: أجئتنا تتوعدنا بالعذاب إن عبدنا الأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، فأخذتهم العزّة بالإثم، واستعجلوا العذاب لظنّهم أن هودًا عليه السلام ليس رسولًا حقًّا، ولذلك لن يستجيب الله دعاءه، فهم لا يريدون مواجهة الحقّ، والاهتداء إليه(١).

مواقف هود عليه السلام من سؤال قومه إنزال العذاب:

الموقف الأوّل: إرجاع الأمر إلى الله في إنزال العذاب: كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]. أي أنّ علم وقت العذاب عند الله فلا علم لي بوقته، فليس من شأنّي الاقتراح على الله، فذلك راجع إلى الله وليس عليَّ إلّا البلاغ، وإن سؤالكم استعجال العذاب ناتج عن جهلكم(٢).

الموقف الثاني: تخويف قومه من مصيرهم في الآخرة: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٣١ ـ ١٣٥]. أي اعبدوا ربّكم، واتّقوا عقابه وأطيعوه، فيما أمركم ونهاكم، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون وأعانكم به من المواشي والبنين، والبساتين والأنهار ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ من الله ﴿عَظِيمٍ﴾(٣).

مصير هذا السؤال: حقّق الله تعالى لقوم هود سؤالهم إنزال العذاب،

(١) تفسير الطبري (١٠/٣٠)، تفسير البغوي (٧/٢٦٣)، تفسير القرطبي (٢/٢٠١)، تفسير ابن كثير (٣/٤٣٧).

(٢) تفسير الطبري (١٠/٣٠)، تفسير الرازي (١٤/٦٤)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٦٦)، تفسير السعدي (٧٨٢).

(٣) المرجع السابق.

فأهلكهم بالريح المدمّرة كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥][١].

يحسن بالدّعاة والعلماء أن يجعلوا من سير الأنبياء نبراسًا يضيء لهم طريق الدّعوة فإنّ القواسم المشتركة بين الأقوام على اختلاف العصور كثيرة فإنّ الشيطان الذي أغوى من مضى من الأمم مازال يغوي ويضل فهذه بعض توجيهات تنفع الدّعاة:

١ ـ مناقشة المدعوّين مناقشة عقلانية بعيدة عن العناد والتّحدي الذي يعطّل الفكر والعقل، مع ضرب الأمثلة بقوم هود، فقد كان السبب الرّئيسي في ضلالهم، وردّهم دعوةَ نبيهم حماقتهم، وتقليدهم الأعمى لآبائهم، وسؤالهم إنزال العذاب استهزاءً وتكذيبًا.

٢ ـ الحلم والصبر على الجاهلين: إذا نسب المدعوّون إلى الدّاعية ما لا يليق به، فعليه أن يبقى منهم في موقف الشفيق عليهم، وأن يوطّد نفسه على الصبر على ما يصيبه من أذى، فالدّعاة إلى الله قلّ ما ينجون من إيذاء الجاهلين.

٣ ـ تذكير المدعوّين بنعم الله التي يجب أن يوحدوه شكرًا عليها، وأن يتركوا الفساد في الأرض لأنّ ذلك سيؤدي إلى زوال النّعم.

٤ ـ اتّخاذ أسلوب التّرهيب في دعوته كأن يعكس آمالهم إذا شعر بأنّ المدعوّين مستمرون في ضلالهم، وهم آمنون من العذاب والهلاك فينسبون الرّياح المدمّرة، والبراكين الثائرة، إلى أسباب كونية، فيبين لهم أنّها غضب من الله؛ فالشّخص إذا كان بحاجة ملحّة إلى الشيء فظهرت له مؤشرات الوصول إليه، ثمّ يمنع منه يزداد حسرة وندامة وألمًا مع آلامه السّابقة.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٣٠)، تفسير الرازي (١٤/٦٤)، تفسير البحر المحيط (٥/٣٦٦)، تفسير السعدي (٧٨٢).

الموضع الثالث: سؤال قوم صالح نزول العذاب:

في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. سأل قوم صالح نبيَّهم أن يأتيهم بالعذاب الموعود بعد أن عقروا النّاقة[١].

موقف صالح عليه السلام من سؤال قومه إنزال العذاب: حين عقروا النّاقة واستعجلوه العذاب أدبر عنهم، وخرج عن أرضهم، متأسّفًا عليهم: لقد أبلغتكم أوامر ربّي ونواهيَه، ونصحتكم لكنّكم لا تحبّون من ينصحكم: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩][٢].

تخويف قومه من مصيرهم: لقد خوّف قومه بالعذاب القريب، والعظيم والأليم؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَراء: ١٥٦] وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، لكفرهم بالبعث والحشر والحساب والجزاء، فكان جواب صالح لسؤالهم مناسبًا للحال والمقام، ولعلّه لذلك اكتفى بهذا العذاب الدّنيويّ ولم يخوفهم بالعذاب الأخرويّ.

مصير هذا السؤال: حقّق الله تعالى سؤال قوم صالح العذابَ بالرّجفة والصّيحة؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨][٣]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصّلَت: ١٧].

---

(١) تفسير الطبري (٥٤٤/١٢)، تفسير البغوي (٢٤٨/٣)، تفسير الرازي (١٧٧/٧).

(٢) تفسير الطبري (٥٣٧/١٢)، الكشاف (٢١٥/٢)، تفسير البيضاوي (٤٤٠/٤).

(٣) تفسير الطبري (٥٤٤/١٢)، تفسير الخازن (٥٤/٣)، تفسير النسفي (٦٢/٢)، حوارث الأقوام (١٨٠).

دروس وتوجيهات مستفادة لورثة الأنبياء من دعاة وعلماء:

١ ـ إذا أيس من استجابة المدعوّين لدعوة الحقّ يُعرض عن من رفض دعوته، ويخرج من أرضهم بعد تأديته ما أمر الله بأدائه من أمر ونهي، وتحذيره لهم بالعذاب الشديد في الدّنيا والآخرة لمن كفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفَال: ٢٥].

٢ ـ إذا كان المدعوون لا يؤمنون بالآخرة من بعث، ونشور وحساب، وجزاء بالجنّة، أو النّار، يخوّفهم بالعذاب الدّنيوي، ثمّ يتدرج بهم إلى الإيمان بالأمور الغيبيّة شيئًا فشيئاً.

ثانيًا: سؤال إنزال آية:

جاء من قوم صالح: في قوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٤]. في هذه الآية يظهر سؤال قوم صالح نبيهم أن يأتيهم بمعجزة ظاهرة ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربّهم، قال ابن كثير: «فطلبوا منه ـ وقد اجتمع ملؤهم ـ أن يخرج لهم من الصخرة، ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنُنَّ به، وليصدّقنّه، وليتّبعنّه، فأعطوه العهد بذلك»[١].

موقف صالح عليه السلام من سؤال قومه آية: ذكر المفسّرون أنّ صالحًا، بعد أن سأل قومه الآية، قام فصلى، ثمّ دعا الله ﷻ، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصّفة التي وصفوها، فكانت آية ظاهرة الدّلالة شاهدة بنبوّته، وبرهانًا على صدق ما يقول، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعرَاف: ٧٣][٣].

---

(١) تفسير الرازي (٤٩٦/١)، تفسير ابن كثير (١٥٧/٦).

(٢) تفسير الطبري (٥٢٦/١٢)، أضواء البيان (٧٢/٨)، حوارث الأقوام (١٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٥٣٧/١٢)، الكشاف (٢١٥/٢)، تفسير البيضاوي (٤٤٠/٤)، تفسير الألوسي (٢٣٦/٦).

مصير السؤال: حقّق الله سؤالهم الآية، وأيّد الله نبيّه بالمعجزة التي سألوها إيّاه، وهي النّاقة[١].

يجد الدّعاة إلى الله في العرض القرآني هذا من المعاني والتّوجيهات ما يعينهم على تحمّل مشاق الدّعوة:

١ ـ أن لا ييأس، ولا يأخذه القنوط، والوهن، أو التّراجع عن دعوته، وإن كذّبه قومه وعاداه جميع من في الأرض، بل عليه أن يتّجه إلى ربّه ليؤيّده ببرهان جلي من عنده، وعليه أن يهيئ البرهان الذي يشرح الله صدره له، وأن يستعدّ لإلقائه على خصمه ليتحقّق بذلك النّصر على أعدائه، فإنّ الله الذي قد أيّد رسله بمثل هذه المعجزات، والآيات النيّرات قادر على أن يؤيّد دعاته من ورثة النبييّن، والمرسلين.

٢ ـ أن يركّز في العبر التي تذكّر مصارع الطّغاة السّابقين ليتّعظ بها السّامعون، فيرتدعوا عن غيّهم، ويستجيبوا إلى ما يدعوهم إليه الدّاعية؛ ففي ذكر الله سبحانه وتعالى ما نزل بقوم صالح من العقاب بعد كفرهم، عظة بالغة للمشركين، ومن جاء بعدهم، فالله منتقم قهّار، ولكنّه رحيم يمهل الكافرين، والتّركيز في إظهار مصارع المجرمين ظاهر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النَّمل: ٥١].

ثالثًا: سؤال كشف العذاب: جاء من فرعون وقومه:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]: لـمّا اشتدّ على فرعون وقومه العذاب، رجعوا إلى موسى عليه السلام يسألونه أن يدعو لهم ربّه برفع العذاب، على أن يؤمنوا، ويرسلوا معه بني إسرائيل.

---

(١) تفسير الطبري (٥٣٧/١٢)، المحرر الوجيز (٤٣٩/٣)، أيسر التفاسير لأسعد حومد (١٠٣٣/١).

موقف موسى عليه السلام من سؤال فرعون وقومه كشف العذاب: دعا موسى عليه السلام الله سبحانه وتعالى أن يكشف العذاب عن فرعون وقومه[(١)].

مصير هذا السؤال: حقّق الله لفرعون وقومه سؤالهم، فكشف الله العذاب عنهم.

موقف فرعون وقومه بعد تحقّق سؤالهم: بعد أن استجاب الله لموسى عليه السلام ورفع عنهم العذاب إذ هم ينقضون ما عاهدوا موسى عليه؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزّخرُف: ٥٠]، فلم يخرجوا عمّا جبلوا عليه؛ كما هو دأبهم حتّى بلغوا أقصى غايات الاستكبار، والعتوّ، فقالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعرَاف: ١٣٢]، فهم عند الضرّاء تظهر حقيقة إيمانهم، فإذا كشف عنهم الضر إذا هم يرجعون.

موقف موسى عليه السلام من نكث فرعون وقومه ما عاهدوه عليه:

لما أيس موسى عليه السلام من فرعون وقومه أن يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، اتّجه إلى ربّه يدعو على فرعون وملئه الذين يملكون المال والزينة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونس: ٨٨] دعا عليهم بطمس أموالهم، والطّبع على قلوبهم بحيث لا يدخلها الإيمان حتّى يأتيهم العذاب[(٢)].

ما يستفيده الدّاعية من موقف القرآن الكريم تجاه هذا السؤال:

١ - تقوية الأواصر بين العبد وربّه، في السرّاء والضرّاء فسبحانه هو النّافع، والضّار فإذا حصل لدى العبد يأس فعليه أن يتّجه إلى الله تعالى، ويبث شكواه إليه ويطلب النّصر منه وتأييده على أعدائه حتّى يصيروا عبرة للآخرين.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٤٢)، نظم الدرر (٦/٤٩).

(٢) تفسير الطبري (١٥/١٧٥)، تفسير البيضاوي (٣/٥٤)، تفسير النسفي (٢/٣)، تفسير ابن كثير (٦/١٦٤).

٢ ـ أن يبيّن لهم أنّه إذا أصابهم الضر فعليهم دعوة الله تعالى وحده، فهم حينئذ حريون أن يستجاب لهم إن صدقوا، فإن كشف عنهم ولم يؤمنوا فلا يفرحوا بذلك فإنّه إمهال لهم.

٣ ـ التّنبيه على أنّ استجابة الدّعاء للمضطرين تكون قبل غرغرة الرّوح، مع ضرب الأمثلة في كشف العذاب عن بعض الأمم الكافرة كقوم فرعون.

رابعًا: سؤال إحياء القتيل جاء من بني إسرائيل لموسى عليه السلام:

سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام أن يبيّن من قتل الرّجل الذي وجد مقتولًا واختلفوا في القاتل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٢] فتحقّق لهم ما سألوه بأن أمرهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة فيضرب القتيل ببعضها فيحيا بإذن الله فيخبر عن قاتله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البَقَرَة: ٦٧][1].

موقف موسى عليه السلام من سؤال قومه: دعا موسى عليه السلام الله سبحانه وتعالى أن يبيّن القاتل فكان الجواب أن أمرهم الله بذبح بقرة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البَقَرَة: ٦٧] ولكنّهم لم يسارعوا إلى تنفيذ أمر الله، بل اتّهموا موسى بالسّخرية بهم لأنّهم لم يتصوروا علاقة ذبح البقرة بإظهار القاتل، ولكنّه ردّ عليهم أنّه أمر من الله تعالى، ونفى عن نفسه الجهل، فلمّا علموا صدق خبره لم ينفّذوا الأمر بذبح أي بقرة، بل استمروا في اللّجاج والعناد، فحلِم عليهم، واستمرّ في إجابتهم، فما كان منهم إلّا أن يقروا بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام حقّ لا شكّ فيه؛ وبعد ذبحها، أمرهم موسى عليه السلام بضرب القتيل ببعض البقرة فضربوه فدبت به الحياة بإذن الله وأعلن عن قاتله؛ كما في قوله تعالى:

---

(١) تفسير الطبري (٢/٢٠٤)، تفسير أبي السعود (١/١٤١)، حوارث الأقوام (٤٥٤).

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧٣][١].

حقّق الله لبني إسرائيل سؤالهم إحياء القتيل بعد عناء شديد، ولأنّهم شدّدوا، شدّد الله عليهم قال ابن عباس: «لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، لكنّهم شدّدوا فشدّد الله عليهم»[٢].

في ضوء ما تقدّم من عرض لهذه السؤالات وما تبعها من إجابات يبرز عدد من الإرشادات يحسن بالدّعاة أخذها بعين الاعتبار:

١ ـ أن يتّصف بسعة الصدر والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم الإغلاط في الردّ عند إطلاق بعض ألفاظ السباب المثيرة للدّاعية، بل يقابل ذلك بنفيها عن نفسه ويكتفي بذلك.

٢ ـ عند مواجهة الدّاعية أسئلة المدعوّين أن لا يتكلّف الإجابة من عنده، وأن لا يخجل من ذلك، بل يردّ العلم فيما لا يعلم إلى الله تعالى.

٣ ـ ضرب الأمثلة بإحياء قتيل بني إسرائيل على بيان قدرة الله على البعث بعد الموت، فالقادر على إحياء قتيل بني إسرائيل قادر على إحياء النّاس جميعًا يوم القيامة.

٤ ـ عرض تشدّد بني إسرائيل للدّلالة على صلافة اليهود، وعنادهم، وتوضيح ما عليه اليهود اليوم في تعاملهم مع كلّ قضية ليست لصالحهم، وأبرزها قضية المسلمين في احتلال بيت المقدس، فكلّما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم.

خامسًا: سؤال الإذن بالجهاد تحت راية ملك: جاء من بني إسرائيل لنبيّهم: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦]. في هذه

---

(١) تفسير الطبري (٢/٢٠٤)، المحرر الوجيز (١/١٠٢)، تفسير القرطبي (١/٤٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٢/٢٠٤).

الآية سأل أشراف ووجهاء بني إسرائيل نبيّهم أن يولي عليهم ملكًا، يجتمعون تحت قيادته، ويقاتلون أعداءهم في سبيل الله[(١)].

توقع منهم نبيّهم: الفرار من القتال عند تحقّق سؤالهم فعرض عليهم العاقبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦] فلم يقبلوها واعتمدوا على عزمهم ونيّتهم فقالوا مستنكرين توقع نبيهم: وأي مانع يمنعنا عن القتال في سبيل الله، وقد أَخْرَجَنَا عدوُّنا من ديارنا، وأبعدنا عن أولادنا بالقتل والأسر؟ فلمّا فرض الله عليهم القتال مع الملِك الذي عيّنه لهم جَبُنوا وفرُّوا من القتال، إلّا قليلًا منهم ثبتوا بفضل الله، والله عليم بالظّالمين النّاكثين عهودهم[(٢)]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦].

حقّق الله سؤال بني إسرائيل بأن أذن لهم بالقتال في سبيل الله، وبعث لهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته، ولكن اعترض كبراؤهم على اختيار الله طالوت ملكًا عليهم لكونهم أفضل منه نسبًا، ومالًا بنظرهم، وهذا هو مقياس الأفضليّة عندهم.

بيد أنّ القرآن الكريم ذكر مزايا وصفات هي أهم من المال والنّسب تفضله عليهم، وهي السّعة في العلم للتّدبير، وحسن القيادة والخبرة بشؤون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم، وإن السّلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده والله واسع الفضل والعطاء، عليم بحقائق الأمور، لا يخفى عليه شيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧].

---

(١) تفسير البغوي (٢٩٦/١)، تفسير الألوسي (٢٨٧/٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٩٣/٥)، المحرر الوجيز (٢٩٣/١)، تفسير القرطبي (٢٤٣/٣).

حين يتدبّر الدّعاة إلى الله تعالى هذه المحاورات وما تضمّنته من هدايات سوف يقف على عدد من التّوجيهات الربّانيّة التي لا يستغني عنها؛ ومنها:

١ - إرجاع الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك كمال لتعظيم الله وحسن الأدب معه، وأسوة بالأنبياء عليهم السلام في تعظيمهم لله، وأدبهم معه وإسنادهم الفضل إلى أهله.

٢ - أن يختار في إجابته ما يكون به الإقناع بادئًا بالأهم فالمهم.

٣ - اختيار الألفاظ التي يكون بها إقناع المخاطَب، وتسليمه للأمر الواقع، فإنّ ذلك أبلغ في الإقناع والتّسليم.

٤ - بيان إعراض وتخلّف بني إسرائيل عن القتال كان ظلمًا منهم لأنفسهم ولنبيهم ودينهم.

٥ - أن ينبّه أن يكون القتال في المقام الأوّل في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله مع إحسان النّوايا، وتكون قوّتهم بتوكلهم على ربّهم، وأنّ الإعراض والتّخلف عنه ظلم لأنفس المتخلّفين لئلّا يجبنوا عند قتال الأعداء، ويضعفوا عند المصادمة، ويزول ما كانوا عزموا عليه.

٦ - أن يبيّن للمدعوين أنّ من شروط الولاية الكفاءة، وأهم خصائصها العلم، وسلامة العقل، والبدن، وأن يبيّن أنّ الملك قد يُعطى من لا يترقبه لكونه غير وجيه، ولا من سلالة الملوك.

٧ - إثارة عزائم المدعوين، وتقوية هممهم على القتال بذكر الأحداث الهامّة التي وقعت لهم كالتّفريق بينهم وبين نسائهم وأبنائهم وإخراجهم من ديارهم، والاعتداء على أعراضهم.

٨ - أن يتّسع صدره لاعتراض المخاطبين على ما يدعوهم إليه لاحتمال أن يكون المراد به الاستكشاف، والبحث عن السبب بدون اعتراضَ.

سادسًا: سؤال إنزال المائدة: جاء من الحواريين لعيسى عليه السلام في قواله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢].

لم يرحب عيسى عليه السلام بهذا السؤال وخشي على أصحابه أن يصيبهم سوء لأنّه قد يدل على أنّ الإيمان لم يحصل لهم وأمرهم أن يتّقوا عذاب الله تعالى، إن كانوا مؤمنين حقّ الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢][١].

لكن الحواريين قالوا لنبي الله عيسى إنّنا أردنا بطلبنا هذا حصول البركة بالأكل واليقين بالمعاينة وعلّلوا سؤالهم بأنّهم يريدون أن يأكلوا من المائدة، وتسكن قلوبهم لرؤيتها، ويعلموا يقينًا صدق نبوّة عيسى عليه السلام، وأن يكونوا من الشاهدين على هذه الآية أنّ الله أنزلها حجّة له عليهم في توحيده، وقدرته على ما يشاء[٢].

أجاب عيسى ابن مريم طلب الحواريين، فدعا ربّه جلّ وعلا قائلًا: ربّنا أنزل علينا مائدة طعام من السّماء، نتّخذ يوم نزولها عيدًا لنا، نعظّمه نحن ومَن بعدنا، وتكون المائدة علامة وحجّة منك يا الله على وحدانيتك، وعلى صدق نبوّتي، وامنحنا من عطائك الجزيل، وأن ترزقنا الشكر عليها، فأنت خير الرّازقين[٣]؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المَائدة: ١١٤].

حقّق الله للحواريين سؤالهم إنزال المائدة بدلالة سياق الآية التي تظهر تأكيد إنزالها عليهم بقوله، ومن أصدق من الله قيلا؛ كما في

(١) تفسير الطبري (٢١٨/١١)، تفسير ابن كثير (٢٢٥/٣)، تفسير أبو السعود (٣١٤/٢).
(٢) تفسير الطبري (٢١٨/١١)، تفسير ابن كثير (٢٢٥/٣)، تفسير أبو السعود (٣١٤/٢).
(٣) تفسير الطبري (٢١٨/١١)، زاد المسير (٢٨٨/٢)، تفسير القرطبي (٣٦٦/٦)، تفسير النسفي (٣١٤/١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ﴾ [المَائدة: ١١٥][(١)]. وهذا هو الرّاجح خلافًا لمن ذكر من السلف أنّ الله لم ينزّلها أصلًا.

تضمّنت الآيات صفات للدّعاة لا ينبغي أن يُغفل عنها ومنها:

١ ـ أن يكون رابط الجأش حين يواجه الخصم بما يثيره، أو يخرجه عن أدب الحوار.

٢ ـ أن يحرص على إيمان المدعوّين بثبوت المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء، والخوارق التي يشاء الله إحداثها، فإنّ الإيمان بذلك من معاني العقيدة الإسلامية.

٣ ـ أن يقبل التّعليل الصحيح لما كان يظنّه فاسدًا[(٢)].

سابعًا: سؤال إنزال آية تأذن بقتال الكفّار: جاء من المؤمنين عامّة وهم قسمان[(٣)]:

١ ـ المؤمنون المخلصون لله بالإيمان، سألوا ربّهم ﷻ أن ينزل على رسوله ﷺ سورة يأمرهم فيها بقتال الكفّار، رغبة في الجهاد ونيل ما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب[(٤)]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ [محَمَّد: ٢٠].

٢ ـ المنافقون الذين أعلنوا إسلامهم ظاهرًا، فيسألوا إنزال سورة تأذن لهم بالقتال مع كرههم لذلك، ظنًّا منهم أنّ هذا السؤال لن يتحقّق، وأرادوا به نيل الثناء من الرسول ﷺ[(٥)].

---

(١) تفسير البحر المحيط (٥/٥٥)، تفسير ابن كثير (٣/٢٢٥).

(٢) حوارث الأقوام (٥٧٣).

(٣) للاستزادة: فصلت الباحثة في المقصود بالمؤمنين عامة في الفصل الأول ـ المبحث الثاني ـ المطلب الخامس.

(٤) تفسير الطبري (٢٢/١٧٤)، تفسير البحر المحيط (١٠/٧٤).

(٥) المراجع السابقة، فتاوى ابن تيمية (٢/٤٦).

لقد استجاب الله تعالى بحكمته لهذا الطلب فكان القوم منه على موقفين مؤمنين طائعين ومنافقين كارهين:

لم يظهر القرآن الكريم صراحة موقف المؤمنين المخلصين من إنزال السورة التي تأمرهم بالقتال في سبيل الله لأنّ حالهم التّسليم المطلق في اتّباع أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ كما في قوله تعالى عنهم: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النُّور: ٥١]. وما يُنقل عنهم أنّهم اعترضوا؛ كما نقل عن بني إسرائيل لما فرض عليهم القتال؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦][١].

موقف المنافقين من تحقّق هذا السؤال: تجلّى موقف المنافقين من تحقّق السؤال في كشف أوصافهم، وإظهار خبيئة نفوسهم، فعرى أحوالهم للمؤمنين حتّى لا ينخدعوا بهم؛ بقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمَّد: ٢٠] . فالرّعب يظهر عليهم عند ذكر القتال، وكانت شدّة الأمر عليهم كشدّة حال نزع الإنسان عند الموت، وفي ذلك كناية عن ظهور حالهم وانكشافها[٢].

موقف القرآن الكريم بعد تحقّق سؤالهم:

١ ـ هدّد الله الذين في قلوبهم مرض على جبنهم، وخبث طويتهم، وتوعّد من أعرض منهم عن القتال إذا جدّ الأمر، بالعذاب إن لم يطيعوا الله، ولم يقولوا قولًا موافقًا للشّرع، وتخلّفوا.

٢ ـ التّرغيب والتّرهيب؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمّد: ٢٠، ٢١] قال ابن عاشور: «فهذا اللفظ صالح لأن يكون دعاء عليهم بالهلاك أي لجبنهم ونفاقهم، وصالح أن يكون

(١) تفسير السراج المنير (٤١٤٦/١)، تفسير الألوسي (١٤٤/١٩).

(٢) تفسير الطبري (١٧٤/٢٢)، النكت والعيون (١٣٣/٤)، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٣٥٧/٧).

بمعنى الأجدر بمثلهم طاعة لله ورسوله»[(١)]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النِّساء: ٧٧]. فكان أولى لهم من خوفهم الذي دلّ عليه نظرهم كالمغشيّ عليه من الموت، وخوفهم من النّاس كخوفهم من الله، أن يطيعوا أمر الله، ويقولوا قولًا معروفًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النُّور: ٥١] فلو صدقوا الله ما وعدوه قبل نزول السورة بالقتال، فوفّوا له بذلك، لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم[(٢)].

توجيهات قرآنية في ضوء العرض المتقدّم للدّعاة:

١ - أن يفقه أنّه قد يندس في تجمّع المؤمنين من ليس منهم فقد يندس فيه المنافق، أو ضعيف الإيمان الذي لا يثبت في شدّة، أو قتال والرّاغب في الحصول على مغنم دنيوي، ففي سؤال المؤمنين إنزال سورة تأمر بالجهاد كان له أثر في تميّز المؤمنين من المندسين فيهم من المنافقين الذين انكشفت حقيقتهم، وشدة جزعهم من الخروج إلى الجهاد، فصاروا كالمغشي عليهم من الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمَّد: ٢٠].

٢ - الحض على الجهاد عند خطاب المدعوّين، والتّرغيب فيه وذم التّاركين له جبنًا، وإنّ من أسباب هزيمة الأمّة الإسلامية حب الدنيا، وطول الأمل، والخوف من الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) التحرير والتنوير (٤١٨/١٣)، أيسر التفاسير للجزائري (٩٢/٤).
(٢) تفسير الطبري (١٧٤/٢٢)، تفسير البغوي (٧٨/٣)، تفسير ابن كثير (٣٥٩/٢).

❊ القسم الثاني: ما لم يتحقّق من سؤالات الأقوام لأنبيائهم:

أولًا: سؤال قوم نوح نبيّهم إنزال ملائكة: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .فجاء سؤال قوم نوح لنبيّهم، أن ينزل الله عليهم ملائكة من السّماء، تبريرًا لرفضهم دعوة نوح عليه السلام، بأنّ الله لو شاء إرشاد البشر لأرسل لهم ملائكة.

ـ مواقف نوح عليه السلام من سؤال قومه إنزال ملائكة:

الموقف الأوّل: تأكيده أنّه رسول من ربّ العالمين:

أكّد لهم نبيّهم أنّ الله سبحانه وتعالى أرسله إليهم، ليبلّغ رسالته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢]. فلا قيد ولا تقييد على إرادة الله فيمن يرسله رسولًا من البشر، ولا تعقيب على مشيئته[(١)].

الموقف الثاني: بيان الحكمة من إرسال رسول منهم:

بيّن لهم أنّ الله أوحى إلى رجل منهم رحمة بهم، ولطفًا، وإحسانًا إليهم، فليتّقوا نقمة الله، فلا يشركوا به شيئًا[(٢)]؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

مصير سؤال قوم نوح: لم يتحقّق سؤالهم إنزال الملائكة.

موقف قوم نوح من عدم تحقّق السؤال: حرص قوم نوح على إنكار الإيمان بالغيب، لما في ذلك الإنكار من إبطال الوحي والرسالة من أساسها، ثمّ أتبعوه بسؤالهم إنزال العذاب جحودًا، وإنكارًا لوقوعه واشتدّ بلاء نوح بإيذاء قومه له، فصبر عليهم في دعوتهم مدّة طويلة من الزّمن

---

(١) بحر العلوم (٤٠٦/٧)، تفسير الرازي (٢٧٩/٢)، تفسير القرطبي (٢٣٥/٧)، تفسير ابن كثير (٤٣١/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٣١/٣).

حتّى أوحى الله إليه، أنّه لن يؤمن من قومك، إلّا من قد آمن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هُود: ٣٦] فدعا عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فكشف الله عنه ذلك البلاء بإهلاكهم بالطّوفان[1]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

في دلالة الآيات منارات على طريق الدّعوة يحسن الوقوف عندها:

١ ـ الإصغاء إلى جميع شبه المدعوّين، والردّ عليها بأسلوب الحكمة، والتّأثير مع عدم الاستسلام لها طالما الدّاعية على حقّ، والمدعو على الباطل، واستعمال الأساليب النّافعة في مجال الدّعوة، وهي السّعي على إزالة الشّبهة التي قد تعرض للمدعوّين، فلعلّهم يلبّون النّداء، ويستجيبون للدّعوة.

٢ ـ الصّبر على العمل في حقل الدّعوة مهما طال الزمن فالدّاعية لا يحمل اليأس، ولا يعرف القنوط، فنوح عليه السلام لم يدع على قومه إلّا بعد إعلام الله له أنّه لن يؤمن من قومه إلّا من آمن، فلم يكن دعاؤه عليهم من أجل اليأس، وإنّما بعد تيئيس الله له من إيمان قومه.

ثانيًا: سؤال كفّار قريش وأهل الكتاب محمّد ﷺ عدّة سؤالات منها:

١ ـ سؤالهم إنزال الملائكة جاء في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]. فكفّار قريش الذين لا يؤمنون بلقاء الله في الآخرة، ولا يخافونه، اقترحوا أن ينزل الله عليهم الملائكة فتخبرهم أنّ محمّدًا صادق فيما يدّعيه، وهم أرادوا بذلك اقتراح آيات غير الآيات التي نزلت، وقامت بها الحجّة عليهم جحودًا واستكبارًا عن الحقّ،

---

(١) السباق إلى العقول (١/١١٦).

وتجاوزوا الحدّ في الظّلم، وأفرطوا في عتوّهم، فبلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتوّ، وهم بذلك لا يقصدون من هذا إلّا المكابرة والتّمادي في الإنكار والعناد، والتّمرّد عن اتّباع الطّريق المستقيم(١).

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]. في هذا الموضع تنازل كفّار قريش عن سؤال إنزال ملائكة، إلى إنزال ملك يكون نذيرًا، وجاء ذلك منهم تعنّتًا، وجحودًا للحقّ، بلا دليل منهم، وعلّلوا جحودهم، بأنّه لا بدّ أن يكون الرّسول مؤيّدًا بملك من عند الله ليسانده في الإنذار(٢).

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]. في هذا الموضع جاء سؤال كفّار قريش لمحمّد ﷺ بمصاحبة ملك يجيء معه يصدّقه، ويبيّن لهم صحة رسالته فكان النّبي ﷺ يضيق صدره عند أدائه الرّسالة، لما يعرض له في تبليغه من الشدائد بمثل أقوالهم هذه، ويثقل عليه أن يلقي إليهم، مالا يقبلونه ويضحكون منه(٣).

مواقف القرآن الكريم من سؤالهم:

الموقف الأوّل: قرن الله سبحانه وتعالى إنزال الملائكة عليهم بإنزال العذاب: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعَام: ٨]. أي: لو أنزلنا ملكًا على رسولنا محمّد ﷺ لقضي الأمر بإهلاكهم، ثمّ لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين، إمّا لأنّهم إذا عاينوا الملك قد نزل على الرّسول في صورته، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثمّ لا يؤمنون، فلا يكون بدّ من إهلاكهم، وإمّا لأنّهم إذا شاهدوا الملك في

---

(١) تفسير الطبري (١٩/٢٥٤)، تفسير ابن كثير (٣/٣٣٢).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٢٤٠)، النكت والعيون (٣/١٩٢)، تفسير ابن كثير (٦/٩٥)، تفسير الألوسي (٢/٤١١).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٤/١٣٥)، فتح القدير (٣/٤٣١).

صورته تزهق أرواحهم من هول ما يشاهدون. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]. لقد طلب هؤلاء الظّالمون نزول الملائكة عليهم فكان موقف القرآن الكريم من سؤالهم أن لا يستعجلوا رؤية الملائكة لكونها عمّا قريب تكون عند الاحتضار، وفي القبر، ويوم القيامة، على غير الصّورة التي سألوا محمّدًا ﷺ، فرؤيتها لا لتبشّرهم بالجنّة، ولكن لتقول لهم: جعل الله الجنّة مكانًا محرّمًا عليكم(١).

الموقف الثاني: اقتضت حكمة الله أن يكون الملك في صورة رجل: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]. أي لو جعلنا الرّسول ملكًا؛ كما اقترحوا لأرسلناه في صورة رجل، لأنّهم لا يبقون مع رؤية الملائكة بصورهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فإنّهم سيقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملَك.

الموقف الثالث: تسلية الرسول ﷺ وقصر وظيفته على النّذارة: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢] أي ليس عليك إلّا الإنذار، بما أوحي إليك، ولا تبال بما يصدر عنهم.

الموقف الرابع: تفويض الأمر كلّه إلى الله: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] أي إنّ الله على كلّ شيء وكيل حافظ له، فيحفظ أحوالك، وأحوالهم، فتوكّل عليه في جميع أمورك، فإنّه فاعل بهم ما يليق بحالهم.

مصير سؤالهم: لم يتحقّق لهم إنزال الملائكة في الحياة الدّنيا، وإنّما أُخر إلى وقت إقبالهم على الآخرة وإدبارهم عن الدّنيا في حالة الاحتضار، وما بعده في القبر، وعند الحساب، والجزاء.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (٣١٢١/١)، التفسير الميسر (٢٨٩/٦).

في الآيات بيان لواجبات الدّعاة وبعض ما ينبغي الالتزام به ومنها:

١ ـ **تحديد وظيفة الدّعاة**: إنّ وظيفة الدّعاة إلى الله هي: تبليغ الدّعوة إلى النّاس على أحسن ما يكون بإنذارهم من العذاب الأليم لمن كفر، وأعرض، وتولّى، والبشارة لمن آمن، وعمل صالحًا، وأمّا الهداية فأمرها إلى الله، فمن يقبل الدّعوة فقد اهتدى، وكان نفع قبولها لنفسه، ومن رفضها كان ضرر ذلك على نفسه، وليس على الدّعاة مسؤولية رفض النّاس دعوتهم، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد بيّن لكفّار قريش أنّ مهمّته إنذار النّاس عاقبة كفرهم وعصيانهم وتفويض الأمر كلّه لله؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هُود: ١٢].

٢ ـ **ضرورة الصبر للدّعاة:**

عليهم التّحلي بالصبر حتّى يبلغوا مقصودهم، وهم أكثر من غيرهم حاجة إلى الصبر على ما يتعرّضون له من الشدائد، والاستهزاء، في أثناء تبليغهم الدّعوة، لأنّهم يواجهون النّاس بدعوة تخالف أهواءهم.

٣ ـ وعليهم عند خطابهم المدعوّين حثّهم أن لا يستعجلوا أقدار الله من رزق وصحة، ومال، لأنّ الله لا يؤخر عنهم شيئًا إلّا لحكمة اقتضاها؛ كما في تأخير إنزال الملائكة على كفّار قريش، كان فيه رحمة من الله تعالى بهم، لأنّ في إنزالها عقوبة، وهلاكًا لهم.

٢ ـ سؤال كفّار قريش وأهل الكتاب لمحمّد ﷺ بإلزامه بالإتيان بمثل ما جاء به موسى عليه السلام:

الموضع الأوّل: جاء من كفّار قريش وأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨]. يقول كفّار قريش: هلّا أوتي هذا الرّسول من الآيات، مثل ما أوتي موسى، كالكتاب المنزّل جملة واحدة، وكقلب العصا حيّة، وفلق البحر، وسائر المعجزات التي أخبر الله تعالى عنها في محكم كتابه،

فجاء سؤالهم تمرّدًا على الله، وتماديًا في الغيّ، فقالوا ما قالوا على سبيل الجحود[١].

مواقف القرآن الكريم من سؤالهم:

الموقف الأوّل: استفهام لتقرير كفرهم وتأكيده: في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القَصَص: ٤٨] في هذه الآية بيان لحال المشركين الذين كفروا بما أعطاه الله تعالى لموسى من قبل محمّد من معجزات، كما كفروا بالمعجزات التي جاء بها من عند ربّه، فهم ديدنهم الكفر بكلّ حقّ. ثمّ حكى سبحانه بعض أقوالهم الباطلة فقال: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القَصَص: ٤٨] أي نحن بكلا النّبيين كافرون وبما جاؤوا به كفرًا لا رجوع معه[٢].

الموقف الثاني: تحدّاهم أن يأتوا بكتاب أهدى من القرآن الكريم والتّوراة للبشر وأصلح لحالهم: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القَصَص: ٤٩]. في هذه الآية أمر الله تعالى محمّدًا ﷺ أن يتحدّاهم، وأن يفحمهم بما يخرس ألسنتهم، أن يأتوا بكتابٍ أهدى من الكتابين اللذين أنزلهما سبحانه على نبيين كريمين من أنبيائه، هما موسى، ومحمّد، عليهما الصلاة والسلام فالآية الكريمة تتهكم بهم، وتسخر منهم، بأسلوب بديع معجز، لأنّه من المعروف لكلّ عاقل، أنّه ليس في استطاعتهما، ولا في استطاعة غيرهما الإتيان بكتاب من عند الله.

الموقف الثالث: زيادة في تثبيت قلب النّبي ﷺ وتسليته عمّا أصابه منهم من أذى:

في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القَصَص: ٥٠] في هذه الآية إعلام من الله لرسوله ﷺ إن لم يستجب

(١) تفسير الطبري (٥٨٧/١٩)، التحرير والتنوير (٣٦٤/١٠).
(٢) تفسير الطبري (٥٨٧/١٩)، البحر المديد (٣٢/٦)، التحرير والتنوير (٣٦٤/١٠).

كفّار قريش، واليهود له بأنّهم كذبة، وأنّهم تركوا اتّباعه، لا لأنّهم ذاهبون إلى حقّ يعرفونه، بل لاتباع أهوائهم. وقد جرت سنّة الله أن لا يهدي القوم الظالمين إلى طريق الحقّ، بسبب إصرارهم على الباطل، وتجاوزهم لكلّ حدود الحقّ والخير[١].

يحسن بالدّاعية أن يقف في جداله مع المُخافين والجاحدين موقف التّحدي الذي وقفه رسول الله ﷺ في جداله مع المشركين؛ كمطالبتهم بالبرهان والدّليل على ما يدعونه، وما يقومون به ضد الدّعوة الإسلامية.

كما يطلب منه أن يوضح عند مناقشته للمخالفين، أنّ في القرآن الكريم دلالة واضحة على ثبوت نبوّة محمّد ﷺ، وحجّة قاطعة، لا يستطيع أيّ مكابر أن ينكرها، وأنّ هذا الدليل قائم منذ عهد النّبي ﷺ، وأنّ الإسلام واجه الكفّار به، وأنّهم بذلوا كل جهد للطّعن والتّشكيك فيه، ومع هذا لم يجرؤوا على تحدي القرآن الكريم، والإتيان بسورة مثله.

الموضع الثاني: سؤال كفّار قريش وأهل الكتاب لمحمّد ﷺ بإلزامه بالإتيان بمثل ما جاء به الأنبياء: في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. في هذه الآية سأل كفّار قريش، وأهل الكتاب محمّد ﷺ أن يأتي بمعجزة؛ كما أُرسل الرسل من قبل، ففي سؤالهم هذا أظهروا تناقضهم، ومكابرتهم عن اتّباع الحقّ، فلم يثبتوا على صفة له، ولا رأي يرونه فيه، فهم يتنصلون من الانصياع إلى الحقّ، ويحاولون أن يعللوا أثر القرآن الكريم الذي زلزل نفوسهم بشتّى التّعليلات والادّعاءات، فهم بذلك حائرون، غير مستقرين، فسألوا أن يأتيهم بدل القرآن الكريم بخارقة من الخوارق التي جاء بها الرسل الأوّلون من قَبْله، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلّا الله، ولا يأتي بها إلّا الأنبياء والرسل، وإلّا فما أتاهم محمّد ﷺ

---

(١) تفسير السعدي (١٦٧)، تفسير القطان (٣/٥٤).

به من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى والقرآن الكريم، مع كونه أميًّا، وغير ذلك من المعجزات أكبر دليل على صدق نبوّته(١).

مواقف القرآن الكريم من تكذيب قوم محمّد ﷺ:

الموقف الأوّل: إظهار مشابهة كفّار قريش للأقوام السابقة في العتوّ والعناد، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]، أي أنّ الأقوام الذين سألوا الآيات من قبلهم، وجاءتهم رسلهم بما سألوهم، ثمّ لم يؤمنوا، وتمادوا بالكفر والعصيان، أهلكهم الله سبحانه وتعالى، فكيف بهؤلاء المشركين! الذين هم أشدّ منهم عتوًّا، وعنادًا، فلو جاءهم ما سألوه ما آمنوا فحقّ عليهم العذاب، والهلاك كما أهلكت الأقوام السابقة(٢).

كان موقف كفّار قريش من دعوة التّوحيد غاية في السوء ومنتهى الجحود وقد عبّر كفّار قريش عن هذا الموقف بعبارات متنوّعة وأساليب مختلفة وهذه مسالك يحسن بالدّاعية أن يتنبّه إليها ويفيد منها:

ردّ الدّعوة والطّعن في دعاتها: أن لا يأخذهم الحزن والانزعاج، إذا رأوا النّاس يردّون دعوتهم ويتّهمونهم بالتّهم الباطلة، وأن لا يلتفتوا إلى تكذيب الجاحدين، وطعنهم بأشخاصهم، بل يستمروا في دعوتهم بإصرار، ويقين بنصر الله لهم، فمحمّد ﷺ ردّ المشركون دعوته وقابلوها بالتّكذيب، والطّعن فيها، باتّهامه بالكذب والسحر، مع علمهم أنّه بريء منها ولكن تمسّكهم بجحودهم، واستكبارهم حملهم على ردّ دعوته، والطّعن في نبوّته جحودًا واستكبارًا عن الحقّ.

ثالثًا: سؤال كفّار قريش استعجال العذاب: في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النّمل: ٧١ ـ ٧٤]. في

---

(١) تفسير الطبري (٤١١/١٨).

(٢) الكشاف (١٠٤/٣)، أضواء البيان (١٣٥/٤).

هذه الآية يقول هؤلاء المستعجلون لمحمّد ﷺ: متى يجيئنا هذا العذاب الذي تعدوننا به إن كنتم من الصادقين، قالوا ذلك تكذيبًا، وجحودًا وكفرًا وعنادًا، واستبعادًا لوقوعه، ولولا أجل سمّاه الله لهم حتّى يستوفوه ويَبلُغوه لأهلكهم ولجاءهم العذاب عاجلًا(١)، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العَنكبوت: ٥٣].

مواقف القرآن الكريم من سؤال كفّار قريش استعجالهم العذاب:

الموقف الأوّل: إثارة الخوف والقلق في نفوسهم من العذاب الذي هو كالرّديف لهم: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النَّمل: ٧٢] فهو يثير في قلوبهم الخوف، والقلق من شبح العذاب، فقد يكون وراءهم رديفًا لهم؛ كما يكون الرديف وراء الرّاكب فوق الدابّة، وهم في غفلتهم يستعجلون به ويستهزئون ويستهترون.

الموقف الثاني: وصف حال الكفّار والمؤمنين من قيام الساعة: وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشّورى: ١٨]. في هذه الآية يستعجل مجيء السّاعة الذين لا يؤمنون بها؛ تهكّمًا واستهزاءً، والذين آمنوا بها خائفون من قيامها، ويعلمون أنّها الحقّ الذي لا شكّ فيه. ثمّ أكّد سبحانه وتعالى أنّ الذين يخاصمون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحقّ(٢).

الموقف الثالث: الحكمة من تأخير العذاب بيان فضل الله على النّاس: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النَّمل: ٧٣، ٧٤].

أي أنّه متفضّل عليهم بتأخير العقوبة مع ما يرتكبونه من المعاصي،

(١) تفسير الطبري (١٨/٤٤٤)، تفسير ابن كثير (٥/٣٤٣).

(٢) التفسير الميسر (٨/٤٣٩).

وخاصّة هؤلاء الذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النّمل: ٧١] ومع هذا يمهلهم لعلّهم يتوبون، لكنّ أكثرهم لا يعرفون هذه النّعمة، ولا يشكرونها، فسبحانه وتعالى أنعم على جميع خلقه المؤمن، والكافر بأرزاق متنوعة، ومعافاة في الأبدان متجدّدة، وتبصيره إيّاهم سبيل الهدى، وتحذيره لهم طريق الرّدى، وغير ذلك من النّعم التي لا تعد ولا تحصى، أنعمها الله عليهم في دينهم، ودنياهم، ثمّ أكّد سبحانه وتعالى علمه بما تسرّه قلوبهم من عداوة النّبي ﷺ وما يعلنونه بألسنتهم من الكفر والشرك[١].

وضعت هذه المواقف القرآنية معالم للتّعامل مع المخالفين يحسن بالدّعاة مراعاتها واستحضارها ومنها:

١ - أن يَحلُم على المخالفين، فلا تستفزه سؤالاتهم، بل يجيبهم بنفي ما يسألونه بالحجّة، والبرهان، فالدّاعي لا ينتصر لنفسه، ولا يغضب لها، بل يحلم عليهم، ويصبر على آذاهم.

٢ - تأكيد أنّ من أسباب هلاك بعض الأمم سؤال استعجال العذاب وأنّه قد يكون قريبا منهم، وهم لا يشعرون.

٣ - تنبيه العباد على سعة جود الله تعالى، وكثرة أفضاله، وحثّهم على شكرها بفعل الخيرات، وترك المنكرات، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والتّنبيه إلى أنّ إعراضهم عن شكر هذه النّعم واشتغالهم بالنّعم عن المنعم، سبب في زوالها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

رابعًا: سؤال كفّار قريش إنزال آية: جاء سؤال آية بصيغ متّفقة، ومختلفة في مواضع من القرآن الكريم؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠] جاء بهذه الصيغة في ثلاثة مواضع

---

(١) تفسير السمرقندي (٣/٣٠٠)، تفسير الرازي (٢/٤٨)، تفسير أبي السعود (٥/٢٠٥)، فتح القدير (٥/٣٧٥).

من القرآن الكريم[١]، وجاءت مختلفة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعَام: ٣٧] بلفظ ﴿نُزِّلَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١١٨]. وجاءت آية مفردة في كلّ المواضع السابقة، وفي الموضع السادس جاء سؤال آية بالجمع؛ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العَنكبوت: ٥٠] في هذه الآيات قال الله تعالى مخبرًا عن كفّار قريش أنّ هؤلاء العادلين بربّهم، المعرضين عن آياته يقولون هلّا نزل على محمّد آية من ربّه؟ على مقتضى ما يريدون، ويقترحون أن تكون دليلًا على صدقه، وصحة نبوّته، ومرادهم بالآية هنا خارقة للعادة تضطرهم إلى الإيمان؛ كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع، أو نتق الجبل كما وقع لبني إسرائيل، فكان اقتراحهم آية دليلًا على جهلهم بعظيم قدرة الله تعالى وتعنّتهم ومكابرتهم، فلم يعتدّوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البيّنات التي من جملتها القرآن الكريم، الذي عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله[٢].

مواقف القرآن الكريم من سؤال كفّار قريش إنزال آية:

الموقف الأوّل: تأكيد قدرة الله تعالى على إنزال آية: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٧].

فالله قادر على إنزال خارقة على وفق ما طلبوا، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنّه لو أنزلها وفق ما سألوا، ثمّ لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسرَاء: ٥٩].

---

(١) يونس (٢٠)، الرعد (٧)، الرعد (٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٣٤٣/١١)، النكت والعيون (٤٠٦/١)، تفسير الرازي (١٣٢/٦)، فتح القدير (٤٠٩/٢).

الموقف الثاني: تأكيد أنّ إنزال الآية المقترحة من الأمور الغيبيّة التي لا يعلمها إلّا الله:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يُونس: ٢٠].

أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه محمّدًا ﷺ إذا سأله الكفّار آية، أن يؤكّد لهم أنّ الأمر كلّه لله فهو يعلم عواقب الأمور كلّها، وهو المحيط علمًا بأحوال العباد فيدبّرهم بما يقتضيه علمه وحكمته البديعة فيهم، وإذا كان علم الغيب مختصًا بالله تعالى، وقد ادّعوا من ذلك ما ادّعوا، وطعنوا في ذلك ما طعنوا، فانتظروا نزول العذاب بكم إنّي معكم من المنتظرين له(١).

الموقف الثالث: تأكيد أنّ الهداية ليست منوطة بإنزال آية على وفق ما اقترحوا: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧]. في هذه الآية أمر الله سبحانه وتعالى محمّدًا ﷺ أن يؤكّد لقومه أنّ المضل والهادي هو الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: ١٠١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يُونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧] أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرّع لديه(٢).

الموقف الرابع: تأكيد أنّ وظيفة الرّسول هي الإنذار وليست الإتيان بالخوارق: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧] في هذه الآية تأكيد أنّ مهمّة محمّد ﷺ اقتصرت على الإنذار، وتخويف قومه من سوء عاقبة ما نهى الله عنه، ونصحه لهم كغيره من الرسل،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٧/٤)، تفسير الألوسي (٤٦٧/٧)، تفسير السعدي (٣٦٠)، التفسير الميسر (٣٩٢/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٥٤/٤).

ولكلّ قوم هاد يهديهم إلى سواء السبيل بالإيمان بالله والطّاعة والجنّة، أو إلى الضّلالة، والكفر والعصيان والنّار، وكلا الأمرين مردّهما إلى الله، فهو القادر على هداية وإضلال من يشاء من عباده[1]؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢].

الموقف الخامس: تأكيد أنّ الآيات من عند الله وأنّ النّذارة وظيفة الرسل والإشارة إلى أنّ القرآن الكريم معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة. وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. في هذه الآية أمر الله نبيّه محمّدًا ﷺ أن يؤكّد لقومه أنّ الآيات لا يقدر على الإتيان بها غير الله، وتأكيد أنّ وظيفته ﷺ إنذارهم بأس الله، وعقابه على كفرهم به، وما جاءهم به من عند ربّه؛ كما بيّن الله تعالى بطلان اقتراحهم باستفهام إنكاري بمعنى: أولم يكفهم القرآن الكريم النّاطق بالحقّ المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية آية دائمة تتلى عليهم إلى أن تقوم الساعة[2].

تضمّنت هذه الآيات هدايات وتوجيهات تكشف عن طرف من مقاصد القرآن وأوّلها:

- تعظيم الله في قلوب العباد، باستشعار عظمة الله سبحانه وتعالى، وتأكيدها في قلوب المدعوّين بدعوتهم إلى النّظر والتّفكر في آيات الله في أنفسهم، وفي الكون، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، فسبحانه هو القادر على نصرة الإسلام، والمسلمين لكن حكمته تقتضي تأخير ذلك إلى أجل مسمّى؛ كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى عدم إجابة كفّار قريش إلى ما اقترحوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].
- وبيان أنَّ وظيفة الدّاعي هي الدّعوة إلى الله وتفويض أمر الهداية إلى الله،

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (٢٣٦٣/١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢٨٧/٦).

والإنذار، وتخويف العباد من سوء العاقبة لمن تولى وكفر، وأتى ما نهى الله عنه، وليس عليه هداية النّاس، فأمر هدايتهم بيد الله؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرّعد: ٢٧] وأمّا الدّعوة فهي في قدرة العبد وهو مكلّف بها.

- ❑ كما توجّه الدّاعية إلى أن لا يدّعي ما ليس عنده ممّا يقترحه عليه النّاس من الإتيان بخوارق الأشياء، وفي رسولنا الكريم أسوة حسنة فقد ردّ على المشركين المطالبين بنزول الآيات بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فإذا كان هذا موقف النّبي فكيف بمن جاء بعده من الدّعاة، وغيرهم من النّاس؟

خامسًا: سؤال كفّار قريش إنزال كتاب:

الموضع الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]. في هذه الآية يخبر الله تعالى عن حال الكفّار من مشركي قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، إذا قَرأ عليهم الرسول ﷺ الآيات الواضحة من القرآن الكريم كانوا يقولون له: ائتنا بكتاب آخر على غير نظم القرآن الكريم أو يبقيه على نظم القرآن الكريم وترتيبه، لكن يوضع مكان الآيات المخالفة لأهوائهم ومعتقداتهم آيات أُخر موافقة لطريقتهم بأن يضع مكان آية العذاب رحمة، وأن يسقط ذم الآلهة، ويجعل الحرام حلالًا، والحلال حرامًا، والذي حملهم على هذا التّعنّت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله، وأمّا من آمن بلقاء الله، فلا بدّ أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنّه حسن القصد وكان قصدهم من ذلك إبطال دعوى أنّ القرآن الكريم كلام الله[١].

مواقف القرآن الكريم من سؤال كفّار قريش إنزال كتاب:

الموقف الأوّل: رفض مطالب المشركين وإعلان كون القرآن الكريم كلام الله وأنّ مهمّة الرسول تبليغ ما يوحى إليه وإنّه يخاف إن عصاه

---

(١) تفسير الطبري (١٢/١٨٨)، تفسير القرطبي (٨/٣٢٠)، تفسير ابن كثير (٥/١٤١).

عذاب يوم عظيم: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونس: ١٥]. في هذه الآية أمر الله نبيّه محمّدًا ﷺ أن يقول لهم: إن ذلك ليس إليّ، ولا يمكنني أن أُغيّر أو أبدّل القرآن الكريم من تلقاء نفسي، ولا يجوز لي ذلك، وإنّما أنا متّبعٌ ومبلّغٌ ما يوحى إليّ من ربّي، وأتّبع في كلّ ما آمركم به، وأنهاكم عنه ما يأمرني به، وإنّي أخشى من الله إن خالفت أمره عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة(١).

الموقف الثاني: أمر الله تعالى محمّدًا ﷺ أن يردّ عليهم ردًّا آخر زيادة في تسفيه أفكارهم: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يُونس: ١٦]. في هذه الآية عرّف الله نبيّه الحجّة على قومه إظهارًا لكمال اعتنائه بشأن القرآن الكريم، وإيذانًا باستقلاله ببطلان ما يقترحون الإتيان به بأن أمره سبحانه وتعالى أن يقول لهؤلاء المشركين: إنّ هذا الكلام ليس من عندي، وإنّما هو من عند الله، ولو شاء ما بعثني به، ولا تلوته عليكم، ولا أعلمكم به، ولكنّ الله يمن على من يشاء من عباده، وخصّني بهذه الكرامة وجعلني أهلًا لها من دون النّاس، والقدح في صحة عقل من نسب القرآن الكريم إليه ﷺ لأنّ أصحاب هذا السؤال شاهدوا رسول الله من أوّل عمره، فلبث فيهم إلى أن بلغ أربعين سنة قبل الرّسالة، لم يحدّثهم بشيء، وكانوا عالمين بأحواله بأنّه لم يطالع كتابًا، ولم يتعلّم من أحد، ثمّ جاءهم بهذا القرآن الكريم الذي اشتمل على علوم وأحكام وأخلاق، وأسرار قصص الأوّلين، وعجز عن معارضته الإنس والجان(٢).

الموقف الثالث: ختم الله سبحانه الردّ على هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه، بالحكم عليهم بالإجرام وعدم الفلاح: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونس: ١٧].

---

(١) تفسير الطبري (١٨٨/١٢)، تفسير ابن كثير (١٤١/٥)، تفسير القطان (١٨٤/٢).

(٢) تفسير القرطبي (٣٢٠/٨)، تفسير ابن كثير (١٤١/٥)، أيسر التفاسير للجزائري (١٢٢/٢).

في هذه الآية استفهام بمعنى الجحود، والتنديد بالمجرمين الذين يكذبون على الله تعالى، ويشركون غيره في العبادة، وأنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله الكذب، وبدّل كلامه، وأضاف شيئًا عليه كذبًا وزورًا، فأنكر القرآن الكريم وافترى على الله الكذب وقال ليس هذا كلامه[١].

الموضع الثاني: من سؤال كفّار قريش إنزال كتاب: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]. في هذه الآية سأل الكفّار الرسول ﷺ أن يرقى إلى السماء، ولن يصدقوا رقيه، حتّى ينزل إليهم كتابًا يرونه نازلًا من السماء ولعلّهم أرادوا أن ينزّل عليهم كتابًا من السماء كاملًا دفعة واحدة لكونهم ملحدين في تنجيم القرآن الكريم، توهّمًا منهم أن تنجيم القرآن الكريم يقتضي التأمّل والتّصنع في تأليفه، وهذا لا يناسب كونه منزلًا من عند الله، ولذلك يكثر في القرآن الكريم بيان حكمة تنجيمه[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

مواقف القرآن الكريم من سؤال كفّار قريش إنزال كتاب من السماء:

الموقف الأوّل: تنزيه الله من أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته وليس لأحد أن يتخيّر عليه: وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه أن ينزهه بقوله ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه، وآياته تابعة لأهواءهم الفاسدة، وآرائهم الضالّة، ثمّ أتبعه باستفهام إنكاري لصيغة الحصر التي تقتضي قصر نفسه على البشرية، وكان المقصود من هذا الحصر إظهار العجز والضعف، وأنّه لا يستقل بتحصيل هذه المعجزات التي طلبوها من عند نفسه، فلا يمكن تحصيلها إلّا بقدرة الله، فأمر إنزال الكتاب من السماء إلى الله، وليس لأحد أن يتخيّره عليه[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/١٨٨)، تفسير القرطبي (٨/٣٢٠)، أيسر التفاسير للجزائري (٢/١٢٢).
(٢) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨).
(٣) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨)، تفسير السعدي (٤٦٦).

الموقف الثاني: بيان السبب في استمرارهم في الكفر، وهو استبعادهم أن يبعث الله رسولًا من البشر: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]. في هذه الآية بيّن الله تعالى حقيقة أمرهم ببيان السبب الذي بعث جميع الأمم على الجحود، وهو توهّمهم الباطل باستحالة أن يبعث الله للنّاس بشرًا رسولًا، وفي هذا الموقف تعريض بكلّ من أنكر رسالة الرسل من عامّة الأمم، وجاء التّعميم لأنّ جميع الكفّار السابقين من جنسهم، فما منعهم من الإيمان بالله، واتّباع الرسل وتصديقهم بما جاؤوهم من البيّنات، إلّا أن قالوا جهلًا منهم، واستكبارًا أبعث الله بشرًا رسولًا[١].

الموقف الثالث: بيان شدة صلابتهم في الكفر: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧]. في هذه الآية ذكر الله تعالى حال كفّار قريش أنّهم لا يؤمنون، ولو أنزل الله على رسوله كتابًا مكتوبًا في قرطاس، ولو اجتمع لهم في ذلك إدراك الحاستين حاسة البصر، وحاسة اللّمس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى الرّسول ﷺ بواسطة ملك لا يرونه، ولا يحسونه[٢].

تأخذ هدايات هذه الآيات بأيدي الدّعاة وتعينهم على عبء الدّعوة من خلال:

- ❑ تسلية للدّاعي، فما من حق إلّا يقابله باطل، وما من مصلح صادق إلّا وله أعداء؛ فكما جعل الله لأنبيائه أعداء من كفّار أقوامهم، فقد جعل الله لنبيه محمّد ﷺ أعداء من كفّار قومه، وكذلك الدّعاة المصلحون يكون لهم أعداء من أقوامهم فعليهم بالصبر، كما صبر الأنبياء، والصّالحون، والعاقبة للصّابرين.

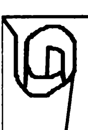
---

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٥٨)، تفسير الرازي (١٠/١٣٨)، تفسير الألوسي (١/١٠٠).
(٢) تفسير الطبري (١١/٢٦٥)، تفسير البغوي (٣/١٢٩)، تفسير البحر المحيط (٥/٨٣).

- وتوجهه إلى الإمساك عن مخاطبة السّفهاء، والتّرفع عن مجاراتهم والتّورُّط معهم، فهم فاقدون للحلم سيئو الخلق، والتّعامل معهم إقحام للنّفس في ميدان لا تُتوقع فيه السّلامة، ولا تُؤمن فيه العاقبة؛ فهم موجودون في كلّ عصر وفي كلّ بيئة، يشاغبون مع كلّ نبي وداعية، لا يخلو منهم جيل، ولذا نبّه القرآن الكريم على خطرهم، وحذّر من مجاراتهم ومناقشاتهم.
- كما تطلّب منه أن يثق بالطريق الذي يسير فيه فلا يتأثر بأقاويل وادّعاءات المبطلين فإذا صاحوا به في طريق سَيره فلا يلتفت إليهم، فليس في وقته متّسع لتشتيته هنا وهناك؛ فإنّ وراء كلّ داعية نعيقًا، وعواءً للباطل لو التفت إليه لربّما تأثّر به، ولربّما ضعف سيره به، وانشغل به عمَّا هو أهمّ منه، ولذا ضرب (ابن القيم) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مثلًا للمتلفت لنعيق الباطل بالظّبي، ومثّل أهل الباطل بالكلب، فيقول: الظّبي أشد سعيًا من الكلب، لكن الظّبي إذا أحسّ بالكلب وراءه التفت إليه، فضعف سعيه، فأدركه الكلب، وهو أبطأ منه(١).



---
(١) إغاثة اللهفان (١/١٠٧).



الفصل الرابع

السؤالات العواقب والمآلات

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: نزول العقوبات.

المبحث الثاني: العاقبة الحسنى للمؤمنين.

المبحث الثالث: توجيهات القرآن الكريم حول مواقف الأقوام من الأسئلة.



تمهيد

عند استقراء عواقب سؤالات الأقوام لأنبيائهم، نجد أنّها في الغالب تدور حول ثلاثة أمور تناسب حال السائلين، ومن شابههم في كلّ زمان ومكان، وهي العقوبات، وما ينال المؤمنين من الخير، ثمّ توجيهات القرآن الكريم حول مواقف الأمم من الأسئلة؛ لنعرف بعد ذلك أكانت آثار هذه السؤالات المترتبة عليها، شهادة لمن وراءهم أو كان أثرها إنزالَ العقوبة على السّائلين، وهلاكهم فكانت سببًا في انقطاع عناية الله بهم ووكْلهم إلى أنفسهم، وكذلك أخذ العبرة والموعظة بالانتقال عبورًا من حادثة جرت إلى حادثة لم تجرِ، أو من قضية إلى قضية مشابهة بقياسها عليها، والحكم بأنّها ستحدث كما حدثت إذا تماثلت الصفات والأسباب.



المبحث الأوّل

نزول العقوبات

المتأمّل في القرآن الكريم يجد أنّ الأقوام طرحوا كثيرًا من السؤالات والطلبات على أنبيائهم، ولقد استوعب الأنبياء هذه السؤالات وردّوا عليها، فمنها ما كان سؤالًا حقيقيًا لأجل الاستفسار، وانتفعت به بعض الأقوام، ومنها ما كان سؤالًا قصد به التعنّت، والتّنصل من الدّخول في الدّين الذي ارتضاه الله لعباده، فحذّر الله الأقوام من عاقبتها، وحين أصرّوا على مواقفهم، وقامت عليهم الحجّة أنزل الله العقوبة عليهم، وقد تعدّدت هذه العقوبات:

أوّلًا: الغرق: كان العقوبة المترتّبة على سؤال قوم نوح لنبيهم العذابَ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هُود: ٣٧].

وكذلك على سؤالهم إنزال الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

وكذلك كان الغرق من العقوبات المترتّبة على سؤالات فرعون وقومه لموسى عليه السلام، التي منها إلقاء أسورة عليه أو مجيء الملائكة معه، كما في

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٣ ـ ٥٥].

الغَرَق لغة: دُخولُ الماء في سمّي الأنْفِ حتّى تمْتَلئَ منافِذهُ وفي الفَم حتّى يشرق، ويُغَصَّ به لكثْرَتِه فيَهْلِكَ[١]، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: ٩٠].

والمراد بالغرق هنا: انطباق الماء على قوم نوح، وفرعون وقومه، حتّى هلكوا بالغرق.

صفة إغراقهم: أهلك الله قوم نوح، وآل فرعون بالغرق، لمّا أصروا على كفرهم، ولم ينتفعوا بما جاءهم من البيّنات، ولم يكن لها أثر إيجابي في نفوسهم، فحقّ عليهم العذاب، فأغرق الله قوم نوح بالطوفان بأن فتح عليهم أبواب السّماء؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القَمَر: ١١، ١٢]. وفي موضع آخر من القرآن الكريم ذكر عظم الأمواج وكأنّها الجبال؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هُود: ٤٢، ٤٣]، ثمّ جاء في موضع آخر من القرآن الكريم وصف الماء بالطّوفان؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العَنكبوت: ١٤]، والطّوفان هو: الماء الذي ينزل من السّماء، وينبع من الأرض بكثرة[٢].

---

(١) لسان العرب (٢٨٣/١٠)، المفردات في غريب القرآن (٣٦٢)، المغرب (٧١/٤).

(٢) تفسير السعدي (١٦٢٧).

وحدث الأمر نفسه مع فرعون وقومه، بأنّ الله أغرقهم في البحر؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصص: ٤٠].

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال:

سبق أن سأل قوم نوح نبيهم إنزال الملائكة إنكارًا منهم للإيمان بالغيب وإبطالًا للوحي والرسالة من أساسها[1]. ثمّ جاء سؤالهم إنزال العذاب إصرارًا على تكذيب الحقّ، وانهماكًا منهم في الشرّ، والفساد، وجحودًا، وإنكارًا لوقوعه فناسب إهلاكَهم جميعًا بالغرق[2]؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٧٧].

وأمّا فرعون وقومه فلمّا كشف الله عنهم العذاب مرّات فلم يؤمنوا، ولم يرجعوا عن كفرهم، واستمرّوا في نقض العهود والمواثيق التي عاهدوا موسى عليها من غير تأمّل وتوقف، ومن ذلك سؤال إنزال أسورة من ذهب على موسى عليه السلام، أو مجيء الملائكة معه مؤيدين وناصرين له، كان الانتقام منهم بسلب النّعمة عنهم، وإغراقهم في اليم مناسبًا لِما أسلفوا من المعاصي والجرائم[3].

ثانيًا: عذاب يوم الظلة

كان من العقوبات المترتّبة على سؤال قوم شعيب لنبيهم إسقاط كسف من السماء عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٧ ـ ١٨٩].

---

(١) السباق إلى العقول (١١٦/١).

(٢) تفسير أبي السعود (٤٢٩/٤).

(٣) تفسير الخازن (٨٥/٣)، تفسير أبي السعود (٣٥/٣)، أيسر التفاسير للجزائري (٤٩٧/١).

والظلة لغة: من ظلّ بمعنى له ظِلّ، والظُّلة ما أظل من سحاب، أو نحوه[١]. والمراد بالظُلة هنا: غَمامة حارّة أَطْبَقَتْ على قوم شعيب، وهلكوا تحتها[٢].

صفة عذاب يوم الظلة: انتقم الله من قوم شعيب بعذاب يوم الظلة لإصرارهم على كفرهم، وشركهم بالله وقطعهم الطّريق، ونقصهم المكيال والميزان، ووصف القرآن الكريم ذلك اليوم بالعظيم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] فأكّد العذاب بـ ﴿إِنَّ﴾ وعظّم بـ ﴿كَانَ﴾ وزاده تعظيمًا بنسبته إلى اليوم فصار له من الهول، ما تجِفّ له القلوب، وتعظّم به الكروب ويحدث في النّفوس من الرّعب ما لا يمكن وصفه، ولا يمكن لغيره سبحانه شرحه، وأضيف العذاب إلى يوم الظّلّة تنبيهًا على أنّ لهم في ذلك اليوم عذابًا غير عذاب الظّلّة[٣].

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال:

١ - جاء سؤالهم العذابَ جحودًا، وتعنّتًا، وإنكارًا لوقوعه، وإبطالًا للوحي والرسالة من أساسها، فناسب أن يحيق بهم ما استبعدوا وقوعه.

٢ - كانت العقوبة من جنس ما سألوا من الكسف، سواء أرادوا بالكسف القطعة من السحاب، أو أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم من جهتها[٤].

٣ - ولمّا كان الحال موجبًا للسؤال عن يوم الظّلّة، جاء وصف القرآن الكريم لذلك اليوم تهويلًا لأمره وتعظيمًا لقدره[٥]؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) لسان العرب (١١/٤١٥)، تهذيب اللغة (٥/٣٦).
(٢) تفسير الطبري (١٩/٣٩٣)، نظم الدرر للبقاعي (٦/٩١).
(٣) نظم الدرر للبقاعي (٦/٩٢)، فتح القدير (٥/٣٢٨).
(٤) فتح القدير (٥/٣٢٨).
(٥) نظم الدرر للبقاعي (٦/٩٢).

ثالثًا: الرّيح المدمّرة: كانت من العقوبات المترتبة على سؤال قوم هود لنبيهم العذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٥].

الرّيح لغة: الهواء المتحرّك، وجمعها رياح، وأغلب المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الرّيح بلفظ الواحد كانت للعذاب(١)؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]. والمراد بالرّيح هنا: الرّيح التي عذّب الله بها قوم هود، والتي نشأت من ذلك السّحاب الذي رأوه.

صفة الرّيح المدمّرة: أهلك الله سبحانه وتعالى قوم هود بالرّيح المدمّرة لإصرارهم على الكفر والتّكذيب وطلبهم أن يأتيهم هود بالعذاب، فأتاهم العذابُ في صورة سحاب ممتدّ في الأُفق مقبلًا على أوديتهم، فظنّوه غيثًا فقالوا فرِحين: هذا سحابٌ جاءنا بالمطر والخير. فقيل لهم: بل هو العذابُ الذي طلبتموه، واستعجلتم به إنّه ريحٌ فيها عذابٌ شديد، فأهلكتهم فصار النّاظر إليهم لا يرى شيئًا من آثارهم سوى مساكنهم، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم وصوّر القرآن الكريم الرّيح بالحي المدرك المأمور بالتّدمير، الذي لا يأتي من ذاته، وإنّما أتاهم بأمر الله ـ تعالى ـ وبقضائه وبمشيئته(٢).

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال: جاء سؤالهم لاغترارهم بقوّتهم، فكان ذلك باعثًا على كفرهم، فأهلكهم الله بما لا يترقب النّاس الهلاك به، فإنّ النّاس يقولون للشيء الذي لا يُؤبه به: هو ريح، فسبحانه شديد القوة وضع القوة في الشيء الهيّن مثل الرّيح ليكون ذلك عذابًا وخزيًا وتحقيرًا

---

(١) لسان العرب (١١/٤٩٥)، العين (١/٢٣٣).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (١/٣٨٧٢).

لهم كما في قوله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فُصِّلَت: ١٦]. فقوم عاد أقوياء أشدّاء هلكوا بهذه الريح اللطيفة، التي لا يرى لها جسم وإنّما يحس بها بدون أن يرى منها شيء، ومع ذلك قضت عليهم بأمر الله - ﷻ - كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذّاريَات: ٤٢].

رابعًا: الرجس والغضب: كان من العقوبات المترتّبة على سؤال قوم هود لنبيهم العذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ٧٠، ٧١].

والرِّجس لغة: اسمٌ لكلِّ ما اسْتُقذِرَ من العَمَل[١]. والمراد بالرّجس هنا: الازدياد في كفر قوم هود بالرّين على قلوبهم[٢].

والغضب لغة: ثوران دم القلب إرادة الانتقام[٣] ولذلك قال الرسول ﷺ: «**اتَّقُوا الغَضَبَ فإنّه جَمْرَةٌ تُوقَدُ في قَلْبِ ابنِ آدمِ، ألم تَرَ إلى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ وحُمْرَةِ عينيه**»[٤].

والمراد بالغضب هنا: غضب الله الذي ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثار، وهو من صفات الله تعالى الفعلية التي تتعلّق بمشيئته، ويترتّب عليها الانتقام[٥].

---

(١) العباب الزاخر (١/١١٥)، المحيط في اللغة (٢/٩٠).
(٢) تفسير النيسابوري (٣/٤٥٧).
(٣) المفردات في غريب القرآن (٣٦٣).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٩٦)، وعبدالرزاق في مصنفه (١١/١٨٨، رقم ٢٠٢٨٩).
(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/٢٨١).

صفة الرجس والغضب: ذكر الله سبحانه صفة عقاب قوم هود لمّا أصرّوا على التّقليد، وعدم الانقياد للدّليل بالرّجس الذي أصاب نفوسهم بالفساد لكفرهم، فلا يقبلون الخير. واختلف أهل التّفسير بمعنى الرّجس فمنهم من فسّر الرّجس هنا بالسّخط(١)، ومنهم من فسّره بالعذاب، ومنهم من فسّره بوقوع الرّين(٢)، على قلوبهم عقوبة منه لهم بالخذلان لألفتهم الكفر(٣). ثمّ خصّهم بمزيد من العقاب؛ بقوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١] وغضبه سبحانه معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة(٤). ثمّ هدّد بالعاقبة المقرّرة المحتومة فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: فانتظروا نزول العذاب الذي استعجلتموه حين قلتم فإنّي معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم وتكذيبكم(٥).

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال:

جاء سؤالهم استعجال العذاب تمرّدًا منهم على الله، ونكوصًا عن طريق الحقّ وبعدًا عن اتّباع الصواب، بعد أن بلغتهم الحجّة، فحقّ وثبت عليهم العقاب بالرّجس والغضب من الله فكان ذلك علامة على تمكّن الخبث والشّرك من قلوبهم تمكّنًا لا يزول، ولا يرجى منه إيمان.

خامسًا: الرّجفة: كانت من العقوبات المترتّبة على سؤال قوم صالح العذاب: في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

---

(١) تفسير الطبري (٥٢١/١٢)، تفسير الرازي (١٧٠/٧)، تفسير البحر المحيط (٣٧٨/٥)، تفسير ابن كثير (٤٣٥/٣).
(٢) تفسير الطبري (٥٢١/١٢)، تفسير البغوي (٢٤٣/٣)، زاد المسير (٢/٣)، تفسير الرازي (١٧٠/٧).
(٣) تفسير الرازي (١٧٠/٧).
(٤) قسم العقيدة (باب شرح العقيدة الواسطية ٤٧/١٢).
(٥) تفسير القطان (٥٥/٢).

والرّجفة لغة: من رجف، وهي الاضطراب الشديد، يقال رجفت الأرض[(١)]. والمراد بالرّجفة هنا: إهلاك قوم صالح بالزلزلة العظيمة في مساكنهم[(٢)].

صفة إهلاكهم: وصف القرآن الكريم الحالة التي آلت إليها شخصيات المجرمين المستكبرين على الحقّ من قوم صالح، أن أوقع الله بهم العذاب بالرّجفة العظيمة التي زلزلت الأرض زلزالًا شديدًا فأصابهم من هولها ما أصابهم ومات كلّ منهم على الحالة التي كان عليها، فأصبحوا جثثًا ساقطة على وجوههم هامدين لا حراك بهم في أرضهم التي لم تغن عنهم حضارتها شيئًا من عذاب الله. وعبّر بالرّجفة إشارة إلى شدّة العذاب، وعظم الاضطراب ليتحقّق المقصود من النّكال العظيم[(٣)]، وحدث الأمر نفسه لقوم شعيب بأن أخذتهم الرجفة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠، ٩١].

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال: لمّا نزّلوا وعيد هود عليه السلام منزلة الوعد والبشارة بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧] استخفافًا منهم، ومبالغة في التّكذيب جازاهم الله بالرّجفة، والجثوم مقابل العتوّ والتّبجح، فالرّجفة يصاحبها الفزع، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف وما أجدر المعتدي أن يعجز. جزاءً وفاقًا في المصير[(٤)].

سادسًا: الرّجز: كان من العقوبات المترتّبة على سؤال قوم لوط العذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣، ٣٤].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٨٧).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٥٦٦).

(٣) تفسير الطبري (١٢/٥٤٤)، تفسير النسفي (٢/٦٢)، تفسير الخازن (٣/٥٤).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٣/٢٢٩).

الرِّجز لغة: العمل الذي يؤدّي إلى العذاب وأصل الرّجز: الاضطراب والزلزلة[(١)]؛ كقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سَبَإ: ٥]. والمراد بالرّجز هنا: العذاب الذي أصاب قوم لوط عقوبة لهم، وجعلهم في حالة اضطراب وهلع بحيث لا يملكون دفعه، أو النّجاة منه، بسبب فسوقهم عن أمر ربّهم، وخروجهم عن طاعته[(٢)].

صفة إهلاكهم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العَنكبوت: ٣٤]. في هذه الآية إعلام وتأكيد من الملائكة بأنّ الأمر قد فُرِغَ منه قطعًا، ولن يشفع فيهم أحدٌ، حتّى لا تنالهم شفاعة لوط عليه السلام جريًا على عادة الأنبياء في الشفقة على أممهم، وسمي العذاب رجزًا لأنّه عذاب فريد من نوعه يوقع صاحبه في القلق والاضطراب، وذلك أنّ جبريل عليه السلام طمس أعينهم بجناحه، ثمّ اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثمّ رفعها إلى عَنَان السّماء، ثمّ قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسوّمة من عند الله وما هي من الظّالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة ميتة غير صالحة لأيّ كائن حي، وجاء وصف عذابهم في مواضع عدّة من القرآن الكريم[(٣)]؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: ٨٢، ٨٣].

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال: لمّا جاء سؤال قوم لوط إنزال العذاب، وهو يحمل الاستكبار، والتبجح في طيّاته كما يدل على السّخرية، والتّكذيب في وعيد لوط عليه السلام لهم بالعذاب والتّحدي له؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العَنكبوت: ٢٩]، فأصابهم الله بعذاب الرّجز الذي دمّر وقلب كلّ شيء، وغيّر المعالم ومحاها بالعذاب عقوبة لهم،

---

(١) لسان العرب (٣٤٨/٤)، مفردات القرآن (٥٣٢/١).

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي (٣٣١٠/١).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٧٧/٦).

فكان ذلك العذاب مناسبًا على قدر مقام القوم الذين تلوّثت أخلاقهم بسبب معصيتهم لله، وارتكابهم الفاحشة(١).

سابعًا: الصاعقة: كانت من العقوبات المترتّبة على سؤال قوم موسى لنبيّهم رؤيةَ الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٥، ٥٦].

الصاعقة لغة: من صعق، وهي الصوت الشديد من السماء فيه نار، فيغشى على المصعوق، أو يموت(٢). والمراد بالصّاعقة هنا العقوبة التي صعق بها السّبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربّه فغشاهم الموت بظلمهم وبعضهم ينظر إلى بعض، ثمّ أحياهم بعد موتهم.

صفة الصاعقة: عاقب الله سبحانه وتعالى السّبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربّه بالصاعقة عقوبة لهم على ما بدا منهم من العجرفة، والاستخفاف في سؤالهم رؤية الله، وقلة الاكتراث بالمعجزات التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام، وقد اختلف المفسّرون في تفسير الصاعقة التي استولت عليهم وأحاطت بهم، فمنهم من فسّر الصاعقة بنار من السماء أحرقتهم، ومنهم من فسّرها بجند سماوي سمعوا حسهم فماتوا، ومنهم من فسّرها بصيحة سماويّة خرّوا لها صعقين ميتين يومًا وليلة، وهذه عقوبة دنيوية قدر فيها أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلّا قليلًا فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود(٣).

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال: جاء سؤال القوم من بني إسرائيل استخفافًا بموسى عليه السلام، وقلة اكتراث بالمعجزات التي أيده الله بها،

---

(١) التفسير الميسر (١٥٥/٧).

(٢) لسان العرب (١٩٨/١٠)، الفائق (٢٩٩/٢)، المفردات في غريب القرآن (٣٦٣)، تفسير الطبري (٤٤٢/٢١).

(٣) تفسير الطبري (٣٥٩/٩)، تفسير القرطبي (٤٠٣/١)، تفسير البحر المحيط (٢٧٠/١).

وطلبًا للمستحيل وهو رؤية الله في الحياة الدنيا، وذلك مما لا يحق لهم مسألته، فناسب أن يأخذهم الله بسبب عتوهم أخذ عزيز مقتدر بالصاعقة التي تسكتهم لظلمهم أنفسهم بسؤالهم الرؤية(١).

ثامنًا: إخراج بني إسرائيل من بلادهم، وضرب الذلة، والمسكنة عليهم، واستحقاقهم الغضب من الله:

كان من العقوبات المترتبة على كفر بني إسرائيل بآيات الله وقتلهم الأنبياء عدوانًا وظلمًا وكفرهم بنعم الله عليهم بسؤالهم لموسى ﷺ، استبدالَ الأطعمة الدنيئة بالأطعمة الطيبة النافعة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

الذلة والمسكنة لغة:

الذلة: من ذَلَّ، وهي كل شيء كان عن قهر معه انكسار، وهوان وصغار(٢).

والمسكنة: من سَكن، وهي الخضوع، والذِّلة، وقلة المال، والحال السيئة للفرد، والجماعات(٣). والمراد هنا: إبدال الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل الذل بالعزة، والبؤس بالنعمة والغضب بالرضا عنهم(٤).

صفة ذل ومسكنة بني إسرائيل: عاقب الله بني إسرائيل بالذلة

---

(١) تفسير الرازي (٣٥٣/١)، نظم الدرر للبقاعي (٢٩٤/٢)، تفسير الألوسي (٢٩٥/٤)، التحرير والتنوير (٥٠٧/١).

(٢) معجم لغة الفقهاء (٢١٤/١)، المفردات في غريب القرآن (١٨٤).

(٣) لسان العرب (٢١١/١٣)، تفسير القرطبي (٤٣١/١).

(٤) تفسير الطبري (١٣٢/٢).

والمسكنة جزاءً منه لهم على كفرهم بآياته، ونعمه العظيمة، وقتلهم أنبياءه ورسله، فهم لا يزالون مستذَلّين، من وجدهم أهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون أينما كانوا، فلا يرى في أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود، وإن كانوا مياسير فكأنهم فقراء[١].

وجه ارتباط العقوبة بالسؤال: لما كان سؤالهم استبدال الطعام الدنيء بالطعام الطيب من باب البطر والأشر الذي لا ضرورة فيه، بل هو كثير في أيّ بلد يدخلونه ويجدونه، فلم يستحق مع دناءته، وكثرته في الأمصار أن يسأل موسى الله فيه، فكان ذلك مناسبًا أن لا يجيبهم على سؤالهم، وأن يجازوا من الله بالذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب كفرهم بنعمه وآياته، واستكبارهم عن اتباع الحق، وانتقاصهم للأنبياء إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ظلمًا وعدوانًا[٢].



(١) تفسير ابن كثير (١/٢٨٢).
(٢) المرجع السابق.

المبحث الثاني

العاقبة الحسنى للمؤمنين

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول: النجاة من العقوبات النازلة على أممهم.

المطلب الثاني: إرث الأرض والأموال لبني إسرائيل.

المطلب الثالث: إتمام كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل.





تمهيد

لقد اقتضت طبيعة الأنبياء الشفقة والرحمة بأممهم، لذلك كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله وحده، ويوجهونهم إلى ربهم لينالوا الخير، لكنهم فهموا هذه التوجيهات فهمًا معكوسًا، فخالفوا المأمور، وارتكبوا المحظور فحل بهم الويل والثبور، فكانت نتيجة الصراع والجدال الذي دار بين الأنبياء وأقوامهم، نجاةَ الرسل، ومن آمن معهم من العقوبات النازلة على أممهم، لأنهم استجابوا لأمر الله و تركوا التنطع في طرح الأسئلة؛ كما حصل مع نوح، وهود، ولوط، ومن آمن معهم، وقوم يونس، ومحمد، ومن اتبعه، وقد تمثلت نجاة الأنبياء ومن آمن معهم في عدة مواضع من القرآن الكريم، وسنتناولها بالدراسة في خمسة مطالب كما يلي:

المطلب الأول

النجاة من العقوبات النازلة على أممهم

النجاة لغة: من نجا، وهي الخلاص من الشيء المكروه[١] كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النَّمل: ٥٣]. والمراد بالنجاة هنا: نجاة نوح، وهود، ولوط، ومن آمن معهم، مما أصاب أقوامهم من العذاب.

أولًا: نجاة نوح والذين آمنوا معه: في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]. لما كان سؤال قوم نوح استعجال العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هُود: ٣٢]، أمر الله نبيه أن يصنع السفينة التي كانت سببًا في نجاته، والذين آمنوا معه، فلما حلت اللحظة الأخيرة المرتقبة لهلاك المكذبين بنوح ورسالته وقَرُبَ أمر الله الذي وعد به وهو الطوفان، أمر الله نبيه أن يحمل معه في السفينة التي صنعها بوحي منه سبحانه أهله الذين آمنوا والمؤمنين، فامتثل نوح لأمر ربه، وفي هذه الآية جعل الله استواءهم على السفينة نجاة لهم من الغرق جزمًا؛ فسبحانه قد سبق في علمه أن ذلك سبب نجاتهم من الظُّلمة، وسلامتهم من أن يحل بهم العذاب،

---

(١) لسان العرب (١٥/٣٠٤)، الفروق اللغوية للعسكري (١/٣٦٥)، المفردات في غريب القرآن (٤٨٦).

وتأكيدًا منه سبحانه بالنجاة أمر نبيه بالحمد على هلاك الكفار والنجاة منهم قبل الهبوط من السفينة. وعند ركوبها أمر نوح عليه السلام المؤمنين بالتسمية ثم جرت بهم بأمر الله وحفظه لتلك العصبة المؤمنة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هُود: ٤٢]، فنفذ القضاء بإهلاك قوم نوح، ثم جاء أمر الهبوط بأن يهبط نوح والذين آمنوا معه من السفينة إلى الأرض، بعد أن ابتلعت الأرض الماء، وجفت بأمر من الله وأمن وسلامة وبركة منه سبحانه عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هُود: ٤٨]، دخل في ذلك السلام نوح، ومن آمن معه من أهله، وكل مؤمن ومؤمنة، آمن بالله وبرسله واتبعوا ما جاء به الرسل إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة، كفروا بالله ورسله و آياته إلى يوم القيامة(١).

ثانيًا: نجاة هود والذين آمنوا معه:

في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعرَاف: ٧٢]. لما كان سؤال قوم هود استعجال العذاب، جاء أمر الله بتحقيق الوعيد وإهلاك من كفر من قوم هود، فأوقع الله عذابه بإرسال الريح الشديدة على من كفر منهم واستثنى هودًا ومن آمن به من أن يصيبهم سوء فأنجاهم الله برحمة عظيمة مباشرة منه تعالى وخلّصهم من العذاب العام النازل بالقوم، وأهلك الكفار من قومه جميعًا، ودمَّرهم عن آخرهم والفاء في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الأعرَاف: ٦٤] للتّعقيب فعجّل الله استئصال عاد، ونجّى هودًا ومن آمن به من قومه، فالمعيّة هي المصاحبة في الدّين، وهي معيّة مجازيّة، ووصف الله الرحمة بأنّها منه للدّلالة على كمالها، وكذلك فيها إشارة إلى أنه لن ينجو أحد بعمله الصالح، إلا برحمة من الله تعالى؛ كما في الحديث:

(١) تفسير الطبري (١٥/٣٥٣)، فتح القدير (٥/١٥٤)، صفوة التفاسير (٢/١٧).

عن النبي ﷺ قال: «**لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»[١]، ثم نفى الله عن قوم هود الهالكين الإيمان، لجمعهم بين التكذيب بآياته، وترك العمل الصالح بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢][٢].

ثالثًا: نجاة لوط والذين آمنوا معه: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]. لما استجاب الله ﷻ لدعوة لوط عليه السلام على قومه، أتت بوادرها عند نزول الملائكة عليه، وذلك لما شاهدوا علامات التخوف، والتضجر، تظهر على لوط عليه السلام من أن يهجم قومه على ضيوفه الكرام، بسبب خروجهم عن طاعة الله، وعن الفطرة السليمة بإتيان الذّكران دون النساء؛ فأزالت الملائكة عنه ذلك التخوف والتضجر؛ ثم زفوا إليه بشارتين عظيمتين الأولى تنجيته وأهله غير امرأته التي كانت بالله كافرة، وللوط خائنة في اتباعه لأن هواها كان مع القوم المجرمين، فهي من الباقين في القرية، وأما البشارة الثانية فهي إعلام لوط عليه السلام بأن الله قد قضى على أهل تلك القرية بالخسف[٣]؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وجه ارتباط النجاة بالسؤال:

أولًا: نجاة نوح، وهود، ولوط، والذين آمنوا معهم: كما كان الوعيد والتهديد لمن سأل استعجال العذاب استهزاء، وتكذيبًا، بحقيقة وقوعه، وجحودًا بآيات الله، ومعصية للرسل، كانت نتيجة ذلك هلاكهم

---

(١) صحيح البخاري (٣٣١/٢١، رقم ٦٤٦٣)، وصحيح مسلم (١٢٦/١٨، رقم ٧٢٨٩).

(٢) الكشاف (٤٠٢/١)، تفسير أبي السعود (٣/٣)، تفسير الألوسي (٢٣٣/٦)، التحرير والتنوير (٣٥٦/٥).

(٣) تفسير الطبري (٥٥١/١٢)، تفسير ابن كثير (٢٧٧/٦)، تفسير اللباب لابن عادل (٤٤٧/١٢).

واستئصالهم بتدميرهم جميعًا، وبالمقابل كانت النجاة والبشرى لمن صدق، وآمن بالرسل وبما جاؤوا به من ربهم، وترك الجدال، والتنطع بكثرة السؤال، وفي ذلك بيان أن الفارق بين من نجا وبين من هلك، هو الإيمان بالله تعالى والتصديق بما جاء به الرسل؛ كما أن مدارَ البوارِ هو الكفرُ والتكذيب[١].



(١) تفسير أبي السعود (٣/٣).

المطلب الثاني

إرث الأرض والأموال لبني إسرائيل

في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٧].

الإرث لغة: الأَمْرُ القَدِيمُ الذي تَوَارَثَهُ الآخِرُ عنِ الأَوَّلِ[١]؛ كما في الحديث: «**إِنَّكُم على إِرْث من إِرْث أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ**»[٢]. والمراد هنا: تمليك الله الأرض، والأموال لبني إسرائيل بإهلاك من كان فيها من العمالقة.

كيفية توريث بني إسرائيل الأرض والأموال: تظهر في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، أي أعطى الله بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفون في مصر من فرعون وملئه بسوء العذاب بقتل أبنائهم، واستذلال نسائهم

(١) لسان العرب (٢/١١١)، تاج العروس (١/١٢٠٧).

(٢) هذا الحديث صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤/٤١٩، رقم ١٩١٩).

بالخدمة تسخيرًا، واستعبادًا، أن أعطاهم عن طريق استخلافهم مشارق ومغارب أرض الشام، التي بارك الله فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق، ليكون ذلك امتحانًا لهم، واختبارًا لنفوسهم، وسمّاهم بالقوم إظهارًا لكمال اللطف بهم، وعظيم الإحسان إليهم، رُفعوا من حضيض المذلّة إلى أوج العزّة، وجمع سبحانه بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ [الأعرَاف: ١٣٧]، وقوله: ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٣٧] للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده[١]؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٧ ـ ٥٩].

وجه ارتباط الإرث بالسؤال:

١ ـ لما أخبر الله سبحانه وتعالى عن إهلاك فرعون وقومه، بسبب نكثهم العهد الذي عاهدوا موسى عليه بسؤاله ربه برفع العذاب عنهم، فلمّا استجاب الله له، قابلوا ذلك بالنقض لعهودهم التي عاهدوا ربّهم وموسى عليها، وأصرّوا على كفرهم وضلالهم. فكان سلب النّعم التي كانوا ينعمون بها من جنات، وعيون، ومقام كريم، وإعطاؤها بني إسرائيل بما صبروا مناسبًا لينظر كيف يعملون![٢].

٢ ـ أورث الله بني إسرائيل ما كان يرجو موسى من إهلاك عدوهم في اليم واستخلاف بني إسرائيل في الأرض[٣]؛ كما يظهر في القرآن الكريم لما قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعرَاف: ١٢٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٧٤)، تفسير القرطبي (٧/٢٧٢)، تفسير النسفي (١/٣٨٨)، تفسير الخازن (٣/٨٥).

(٢) تفسير الطبري (١٣/٧٣).

(٣) تفسير القرطبي (٧/٢٧٢).

المطلب الثالث

إتمام كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل

في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

الحسنى لغة: اسم تفضيل مؤنث، من الحسن، وهو ضدُّ القُبْح، وقيل: الحُسنى، العاقبة الحسنة[١]. وكلمة الله الحُسنى: هي إنجاز ما وعد الله به بني إسرائيل من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم.

وصف إتمام كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل:

لم يبين الله في هذه الآية معنى كلمته الحسنى التي تمت على بني إسرائيل، وذكر بعض المفسرين[٢]، أن الله بينها في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] وذلك كان بإنجاز وعد الله لبني إسرائيل بالنصر على عدوهم، والتمكين لهم في الأرض بعد إهلاك فرعون وقومه بسبب صبرهم على أذى فرعون،

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٤٨١/١)، لسان العرب (١١٤/١٣).

(٢) تفسير الطبري (٧٧/١٣)، تفسير البغوي (٢٧٣/٣)، تفسير القرطبي (٢٧٢/٧)، تفسير ابن كثير (٤٦٦/٣).

وصبرهم على أمر الله بعد أن آمنوا بموسى، وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أي أهلكنا إهلاكًا عظيمًا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات وبناء القصور، وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء؛ كصرح هامان وغيره، فدمرها سبحانه تدميرًا جعلها كالرماد[١].

وجه ارتباط السؤال بإتمام كلمة اللّٰه الحسنى على بني إسرائيل:

تمت كلمة الله بالهلاك والدمار لفرعون وقومه، بسبب تكذيبهم، ونكثهم العهود وبالمقابل تمّت كلمة الله الحسنى باستخلاف بني إسرائيل، بسبب صبرهم على أذى فرعون ودل ذلك على أن من قابل البلاء بالجزع، وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج[٢].



(١) تفسير القرطبي (٧/٢٧٢)، تفسير النسفي (١/٣٨٨)، نظم الدرر للبقاعي (٣/٢٦٠).
(٢) الكشاف (٢/٢٨٠).

المبحث الثالث

توجيهات القرآن الكريم
حول مواقف الأقوام من الأسئلة

بعد آثار سؤالات الأقوام لأنبيائهم نجد أن الآيات القرآنية حفلت بتوجيهات حول مواقف الأقوام من الأسئلة وفيه:

التوجيه الأول: أخذ العظة والعبرة: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ١١].

العظة لغة: من وَعَظَ، والعِظَة هي النُّصْحُ، والتذكيرُ بالعواقب[١]. والمراد هنا: تذكير السامعين بما يلين قلوبهم من ثواب وعقاب[٢].

(١) لسان العرب (٤٦٦/٧)، الصحاح في اللغة (٢٨٦/٢)، معجم لغة الفقهاء (٥٠٦/١).
(٢) المحكم والمحيط الأعظم (٣٢٢/١)، نظم الدرر للبقاعي (١٢٣/١).

العبرة لغة: هي الحالة التي يَتوصّلُ بها الإنسان من معرفة المشاهَد إلى معرفة ما ليس بمُشَاهَد[(١)]؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٣، النّور: ٤٤].

والمراد هنا: التحذير من الوقوع فيما وقع فيه السابقين، بسوء أعمالهم، والاقتداءُ بهم فيما يحمدون عليه من المحامد منها[(٢)].

ربط التوجيه بالسؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: ٢٠٣].

الشاهد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعرَاف: ٢٠٣] أشار سبحانه إلى أن هذا القرآن الكريم فيه دلائل، وعبر، وحجج، وبيان لهم من ربهم يهدي به المؤمنين إلى الطريق المستقيم، وهو رحمة يرحم الله بها من آمن وصدّق بأنه تنزيل الله ووحيه وعمل بما فيه وينقذهم به من الضلال والهلاك، وفي هذا توجيه لكفار قريش بأن هذا القرآن الكريم خير من الآيات التي يسألونها، لأنه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول الله ﷺ بواسطة دلالة الإعجاز، وصدوره عن الأمي وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء له على مر العصور[(٣)]، قال الخطيب: «ولما كان القرآن الكريم سببًا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية السبب بأسم المسبب»[(٤)]. وأخبر عن المفرد بالجمع في قوله: ﴿بَصَائِرُ﴾ لاشتماله على سور وآيات، وجمع أنواعًا من الهدى يهدي إليها من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين،

---

(١) المفردات (٣٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٣/١).

(٣) تفسير الطبري (٣٤٢/١٣)، تفسير القرطبي (٣٥٣/٧)، تفسير أبي السعود (٨٩/٣)، فتح القدير (١٤١/٣).

(٤) تفسير السراج المنير (١١٩١/١).

ووضع الأسس، والقوانين للمعاملات، والمعاشرة بين الناس، والمرشد إلى طريق النجاح، والنجاة في الدنيا والآخرة، والمحذر من مهاوي الخسران(١).

وفي قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ترغيب للمؤمنين، وتخويف للكافرين، ثم خص الله المؤمنين بالانتفاع بالقرآن الكريم؛ بقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وفي ذلك تعريض بأن غير المؤمنين ليسوا أهلًا للانتفاع به، فهم لهوا عن تلاوته، وإعجازه بطلب خوارق العادات(٢).

يحسن ممن نزلت عليهم هذه الآيات أن يجعلوا منها منارات تضيء لهم الطريق وذلك بأخذ العظة والعبرة بالاطلاع على القرآن الكريم، وتفهم معانيه، وتدبر ما فيه من الحكم، والمواعظ، والعبر حتى تحل على القارىء الرحمة، ويتحقق له الانتفاع به، فالقرآن الكريم بمنزلة البصائر للقلوب متحققٌ بالنسبة إلى الكل، وبه وبالاطلاع على جوانبه الإعجازية المختلفة تقوم الحجة على الجميع عربًا، وعجمًا مسلمين، وكفارًا. وأما كونُه هدى ورحمةً فمختصٌّ بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره، والمغتنمون بآثاره، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين، وتخويف للكافرين في كل زمان ومكان(٣).

وينبغي أن يُعلَم أنَّ الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من بلغوا الغاية في العلم في هذه المعارف، حتى صاروا كالمشاهدين لها وهم أصحاب عين اليقين، فالقرآن الكريم في حقهم بصائر.

---

(١) تفسير الطبري (٣٤٢/١٣)، تفسير ابن كثير (٥٣٥/٣)، التحرير والتنوير (٦٠/٦).

(٢) التحرير والتنوير (٦٠/٦).

(٣) تفسير أبي السعود (٨٩/٣).

القسم الثاني: من لم يبلغوا إلى ذلك الحد في تلك المعارف إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين فالقرآن الكريم في حقهم هدى.

القسم الثالث: من اعتقد اعتقادًا جازمًا في التوحيد، والنبوة، والمعاد، وإن لم يبلغ مرتبة المستدلين من عامة المؤمنين، فالقرآن الكريم في حقهم رحمة(١).

ويلحظ أن في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] دلالة على أن هذا القرآن الكريم يهدي إلى الرشد، وخص بذلك المؤمنين لأنهم الذين يستبصرون، وهم الذين ينتفعون بالقرآن الكريم فيتبعون ما يؤمرون به فيه، ويجتنبون ما ينهون عنه فيه ويؤمنون بما تضمنه، وهو على الذين لا يؤمنون به عمًى، وخزي لمن كذب، وجحد وكفر به(٢).

ربط التوجيه بالسؤال في الموضع الثاني من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ١١].

الشاهد في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لما ذكر ما حل بالمكذبين المستهزئين من الأمم السابقة بأنبيائهم، أمر الله كفار قريش بالسير في الأرض، ثم النظر والاعتبار بحال المكذبين ليعتبروا بذلك، ويقفوا على آثارهم الباقية حتى يتحققوا من صدق إخبار الرسول ﷺ، ويغنيهم ذلك عن سؤال الآيات

---

(١) تفسير الرازي (٣٤٥/٧).

(٢) تفسير الطبري (٣٤٢/١٣)، تفسير الرازي (٣٤٥/٧)، فتح القدير (١٤١/٣)، التحرير والتنوير (٦٠/٦).

والاقتراحات، وجاء أمر الله لهم بذلك لأنهم قوم تغلب عليهم الأمّية، فلم يدرسوا الكتب ولم يجالسوا العلماء فغاب عنهم أخبار إهلاك الأمم السابقة المستهزئة، والمعرضة عن أنبيائها[١].

في هذه الآيات هدايات يحسن بالمؤمنين الوقوف عندها وتأملها للاستعانة بها ومنها:

١ ـ الأمر بالسير في الأرض حتى يعلموا بذلك كمال قدرة الله وعظمته في هلاك الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله من قبلهم، كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم، أن دمر الله عليهم ديارهم وسلبهم ما كانوا فيه من النَّعيم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئًا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمره الذي لا يردّ.

٢ ـ لما كان السياق للتهديد، والتحذير من أن يؤخذ كفار قريش؛ كمثل أخذ الأمم الماضية الذين كانوا أشد منهم قوة، وتمكينًا في الأرض؛ وأكثر منهم ثراء، ورخاء، فكان إمهالهم بالنظر أقوى في التهديد، وأدل على القدرة والتذكير بمصارع أسلافهم التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية، والتكذيب.

٣ ـ بالنظر إلى إنعام الله، والمبالغة في التفكر، والإطالة في التدبر عند رؤية آثار المعذبين المكذبين للرسل، يتحقق كمال الاعتبار، وقوة الاستبصار بالإيمان والاستغناء بذلك عن سؤال الآيات[٢].

٤ ـ التعبير بالمكذبين دون المستهزئين للإشارة إلى عظم مآل من كذب، فكيف مآل من جمع بين التكذيب، والاستهزاء؟[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢٦٦/١١)، تفسير البغوي (١٢٩/٣)، تفسير ابن كثير (٢٤١/٣).

(٢) تفسير الرازي (٢٢/١١)، نظم الدرر للبقاعي (١٤/٣).

(٣) تفسير الألوسي (٢٤٤/٥).

٥ - عرض ما وقع للمستهزئين بالرسل فيه دعوة للمكذبين خاصة من جميع الأمم على مر العصور إلى تدبر مصارع أسلافهم، والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع؛ الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين.

التوجيه الثاني: الأمر بالإنصات عند تلاوة القرآن الكريم.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣، ٢٠٤].

الإنصات لغة: من أنْصَتَ، وهو السُّكُوتُ لاستِماع شيءٍ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

والإنصات جامع لمعنى الإصغاء، وترك اللغو، والإنصات الاستماع مع ترك الكلام(١).

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

هذا خطاب من الله تعالى للكفار بأن يستمعوا، وينصتوا حتى يقفوا على فصاحته ومعانيه، ومزاياه، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة، فحينئذ يظهر لهم كونه معجزًا دالًّا على صدق محمد ﷺ، فيعترفوا بإعجازه، فيستغنوا بهذا القرآن الكريم ويتوقفوا عن سؤال الآية، ويظهر لهم صدق قوله في صفته بصائر، وهدى ورحمة(٢). وأيد هذا بقوله سبحانه وتعالى في آخر الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فرجاء الرحمة يناسب حال الكفار لعلهم يستمعون، وينصتون فيهتدون وتنزل عليهم الرحمة وأما المؤمنون فقد جزم الله تعالى بحصول الرحمة لهم(٣)؛ كما في الآيات السابقة لهذا الجواب في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٦٠/٦).

(٢) تفسير السعدي (٣١٤).

(٣) تفسير الألوسي (٤٩٨/٦).

في هذه الآية توجيه من الله لعامة الخلق أن هذا القرآن الكريم من أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات[(١)]، ويتحقق ذلك بالاستماع، وحسن الإنصات عند تلاوة آيات من القرآن الكريم، فقد روي عن جبير بن مطعم إنه لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطُّور: ٧] قال: خشيت أن يدركني العذاب وفي لفظ كاد قلبي يطير، فأسلم[(٢)]، وكذلك لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي، وقرؤوا القرآن الكريم، وسمع ذلك القسيسون، والرهبان، انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق[(٣)]؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المَائدة: ٨٢]». قال سعيد بن جبير: «بعث النجاشي من خيار أصحابه ثمانين رجلًا إلى رسول الله ﷺ فقرا عليهم القرآن فبكوا، ورقّوا، وقالوا: نعرف والله، فأسلموا وذهبوا إلى النجاشي، فأخبروه فأسلم، فأنزل الله فيهم[(٤)] قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المَائدة: ٨٣]». وكذلك في واقعنا المعاصر تأثر غير المسلمين من غير العرب، عند سماعهم القرآن الكريم لتميزه عن غيره من الكلام، وأثره في النفوس العربية، والأعجمية عند سماعه والإنصات له، والاستسلام له ثابت إلا لمن اتبع هواه[(٥)].

قال صالح آل الشيخ: «وقد كان مَرَّة أحد الدعاة يخطب بالعربية، وفي أثناء خطبته يورد آيات من القرآن الكريم يتلوها، فكانت امرأة كافرة لا تحسن الكلام العربي ولا تعرفه، فلما انتهى الخطيب من خطبته استوقفته ـ وكانت خطبته في سفينة ـ وقالت: كلامك له نمط، وتأتي في

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٥/٣)، التحرير والتنوير (٦٠/٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٣٩/١، رقم ٦٧٩)، وابن عبدالبر في التمهيد (١٤٨/٩).

(٣) لنكت والعيون (٤/٣)، تاريخ الطبري (٥٦٥/٢)، تفسير التستري (١٣٢/١).

(٤) تفسير الطبري (٤٩٩/١٠، رقم ١٢٣١٥)، لباب النزول (٨٤/١).

(٥) المرجع السابق.

كلامك بكلمات مختلفة في رنتها، وفي قرعها للأذن عن بقية كلامك، فما هذه الكلمات؟ فقال: هي القرآن»[١].

فحصل كذلك منفعة القرآن الكريم للأقوام بتعظيمه، والخشوع عند تلاوته، والاعتناء بمواعظه، والعمل بأحكامه، وتنزيهه وصيانته من كل نقص، واجتناب الضحك، واللغط، والحديث في مجالس القرآن الكريم، إلا كلامًا يضطر إليه وليمتثلوا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد خشع ﷺ لسماع القرآن الكريم من عبدالله بن مسعود حتى ذرفت عيناه. فحُسن الاستماع هو بالضرورة طريق الانتفاع بالقرآن الكريم.

إن من هدايات الآيات التنبيه على اجتناب النظر إلى ما يلهي، أو يبدد الذهن عند سماع القرآن الكريم، والنهي عن ذلك على قدر الاستطاعة، والحث على تعظيم قرّائه، واحترامهم والقيام بمصالحهم، والتأدب في حق القارىء، فهم ورثوا تلقّيه؛ كما تلقّاه محمد ﷺ من ربّه.

وكذلك اختيار الآيات المناسبة لحال الأقوام حتى يكون أثرها على النفوس عظيمًا وشديدًا، ويتحقق الهدف، وتعم الفائدة؛ كتلاوة الآيات التي يذكر فيها عيسى ابن مريم وأمه على النصارى، ولنا في رسول الله ﷺ قدوة حسنة، عندما دعا القبائل للإسلام تلا عليهم آيات من القرآن الكريم تحث على معالي الأمور ومكارم الأخلاق التي كان يتفاخر بها سادات العرب، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة، فدعاهم إلى الإسلام وأن ينصروه، فقال مفروق بن عمرو منهم: إلَام تدعونا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. فقال: دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لصالح آل الشيخ (١/١٢٦).

ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذَّبوك، وظاهروا عليك[١]. وروي أن سماع هذه الآية كان أيضًا سببًا في إسلام عثمان بن مظعون، وسببًا في الفقرات التي شهد بها الوليد بن المغيرة في القرآن الكريم، عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: ما كنت أسلمت إلا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام ولم يستقر الإيمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية، وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق وما هو بقول البشر[٢]. وقال أبو جهل: إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق[٣].

ليس يخفى أنَّ مَن لازم الإنصات بترك الكلام، ولم ينشغل عن الاستماع وكان قلبه حاضرًا فيتدبّر ما يسمعه حين يتلى كلام الله، ناله خير كثير وعلم غزير، وإيمان مستمر متجدد، وهدى متزايد، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، محروم الحظ من الرحمة قد فاته خير كثير[٤]. وظهر له صدق قوله تعالى في صفة القرآن الكريم إنه: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

التوجيه الثالث: الحذر من الاستهزاء بالحق وأهله.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

الاستهزاء لغة: مصدر استهزأ، وهو: المبالغة في السخرية والتهكم من المستهزأ به[٥]. والمراد هنا: سخرية الأقوام من أنبيائهم، واستهزاؤهم بهم بعرض اقتراحاتهم الباطلة.

---

(١) التحرير والتنوير (٨/١١٥).

(٢) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٩/١١٣)، تفسير الطبري (١٧/٢٧٩)، تفسير النسفي (٢/١٧٦).

(٣) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٩/١١٣)، تفسير الطبري (١٧/٢٧٩).

(٤) تفسير السعدي (٣١٤).

(٥) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٤٣٣).

ربط التوجيه بالسؤال:

لما كان سؤالهم إنزال الملك على سبيل الاستهزاء بمحمد ﷺ قال الله مؤنسًا ومعزّيًا لنبيه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وفي هذا تسلية لرسوله عليه السلام، في تكذيب من كذبه من المشركين، وتهديد وتحذير للمستهزئين منهم بأن لا يغتروا بأنفسهم؛ فكما أرسل الله الرسل للأمم السابقة؛ فكذبوهم فنزل بهم العذاب فأهلكوا به جزاء لاستهزائهم وتكذيبهم لأنبيائهم؛ كذلك كل من كفر بما جاء به محمد ﷺ سيحلّ عليه من العذاب ما حل بالأمم السابقة[١].

إذا كان من كفر من الأقوام لم ينتفع بهذه الآيات وما فيها من توجيهات فإنه ينبغي على المؤمنين أن ينتفعوا بها وذلك من خلال الحذر من التكذيب والاستهزاء بالله وبرسوله، وبمن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين حتى لا يحل بالقوم سخط الله، ولا ينزل بهم عاجل عقوبته.

والمبادرة، والتوبة، والإنابة بالرجوع إلى عبادة الله وحده، وتصديق الرسول والانقياد إلى الحق.

كما كانت هذه الآية تسلية للرسول ﷺ في تكذيب من كذّبه من المشركين، وتقوية لنفسه على مُحَاجَّتهم، وإخبارًا يَتَضَمَّنُ وعيد مُكَذِّبِيهِ والمستهزئين به ووعدًا له بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، هي أيضًا تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين من الدعاة، والمصلحين ووعد لهم بالنصر على كل من عاداهم، وكذبهم، واستهزأ بهم[٢].

وكذلك تأكيد أن الاستهزاء بالرسل والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف، وللدعاة والمصلحين في رسول الله ﷺ قدوة حسنة في صبره على مشاق تبليغ الدعوة، وأذى الناس، والتحمل على ما يلاقونه من أهل الزيغ والضلال التي منها الاقتراحات الباطلة.

---

(١) تفسير الطبري (٢٦٦/١١)، تفسير القرطبي (٣٩٣/٦)، تفسير ابن كثير (٢٤١/٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٤١/٣)، تفسير الثعالبي (٤٥٥/١).

التوجيه الرابع: التحذير من تشابه القلوب بسببب التقليد الأعمى ومتابعة الاسلاف.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨].

التشابُه لغة: مصدر فعل تشابَه، وهو المماثلة من جهة الكيفية كاللون، والطعم، وكالعدالة والظلم والغي والجهالة كما في قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البَقَرَة: ٢٥].

والمراد هنا: تشابه المكذبين للرسل في أقوالهم وأفعالهم في الكفر وقسوة القلوب وطلب المحال في كل زمان ومكان[1].

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أخبر الله جل ثناؤه أن أهل الكتاب والمشركين سألوا ما ليس لهم مسألته تحكمًا منهم على ربهم أن يسمعهم كلامه أو يريهم ما اقترحوا من الآيات فشابهوا بذلك القول أسلاف اليهود حين سألوا موسى عليه السلام، أن يريهم ربهم جهرة والتماثل ليس شرط في تشابه سؤالهم وإنما التشابه قد يكون وقع في سؤالهم ما لا يليق ولا يحق لهم سؤاله تحكمًا منهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام، ثم ذكر تماثل قلوب الكفار جميعًا في الضلالة والكفر بالله والتعنت في السؤال؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي ماثلت قلوب مشركي العرب قُلُوب من تقدّمهم من الأمم السابقة في الكفر، والعناد، والعتو، فهم وإن اختلفت مذاهبهم، فقلوبهم متشابهة في الكفر بالله والفرية عليه في كل زمان ومكان، ثم جاء قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي قد أوضح الله الآيات

(١) تفسير الطبري (٢/٥٥٥)، تفسير البغوي (١/١٤٢)، تفسير الرازي (٢/٣١٦)، تفسير البحر المحيط (١/٤٧٩).

فسؤال آية مع تقدم مجيء الآيات الواضحات إنما هو على سبيل التعنت، ولا يظهر وضوح الآيات إلا لمن كان موقنًا، أما من كان في شك، وريبة، وجهل، وغفلة، فلا تنفعه الآيات، ولو كانت في غاية الوضوح(١).

دلّت هذه الآيات على:

- أنَّ قلوب المشركين تماثل قلوب من تقدمهم في العمى بسبب عدم إنصافهم للحق وخبث نفوسهم، وعنادهم، ومكابرتهم، فالضلال واحد وإن تعددت طرقه، وآثاره تتشابه حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم، فالاستجابة لنداء الإيمان تتطلب إعمال العقل، وتفتح الفكر، وصفاء النفس، وإدراك حقائق الكون، والتجرد من الأهواء الشخصية، وترك التقليد، والعناد فإذا توافرت هذه الاستعدادات تسارع نور الإيمان إلى القلب(٢).
- كما أنَّ سؤال السابقين ما لا حاجة لهم به إنما هوالكفر، والمعاندة، والتقليد لمن سبقهم من الأمم في الأقوال، والأفعال، فكان ذلك له دور في إلغاء حواسهم التي هي طرق العلم للعقل، ثم في إلغاء عقولهم عن التدبر والتفكير السليم، وسوف يماثلهم أناس من أمة محمد ﷺ؛ كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ؟!**»(٣).
- يفهم كذلك من قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١٨]، حث للشاكّين في وحدانية الله على تعاطي أسباب الإيقان، وهو صفاء العلم بإعمال العقل والسمع، والبصر، والمحافظة عليها من أكدار الشك والريبة.

---

(١) تفسير الطبري (٢/٥٥٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٠٠)، التفسير المنير (١/٣١٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه «باب ما ذكر عن بني إسرائيل» (٦/٢٦٦٩، رقم ٦٨٨٨).

- كما أن من كان دأبه الإعراض عن النظر، والمكابرة بعد ظهور الحق حال الإعراض دون حصوله على اليقين، وحالت المكابرة دون الانتفاع به[١].

التوجيه الخامس: الحذر من المجادلة بالباطل.

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠، ٧١].

المجادلة لغة: الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة[٢]. والمراد هنا: منازعة الأقوام لأنبيائهم بالشبه الباطلة؛ لإفحامهم، وإفساد دعوتهم.

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد هو قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، في هذه الآية استفهام من هود عليه السلام، على سبيل الإنكار على قومه بعد مناظرته لهم في عبادة أصنام سموها بأسماء ليس تحتها مسميات، كتسميتهم الأصنام بالآلهة، وهي خالية عن معنى الألوهية، ثم سؤالهم العذاب فجاء استنكار هود عليه السلام لهم بأن هذه الأصنام التي زعموا أنها آلهة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ولم يجعل الله في عبادتها حجة، ولا برهان، إذ هو الخالق المستحق للعبادة وبذلك صارت منازعتهم لهود عليه السلام، باطلة[٣]، ولم يبين هنا شيئًا من هذا الجدال الواقع بين هود عليه السلام وقومه، ولكنه أشير إليه في مواضع أخرى

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (١/١٧٤)، التحرير والتنوير (١/٤٥٥).

(٢) لسان العرب (١١/١٠٣)، المفردات (٩٧).

(٣) تفسير الطبري (١٢/٥٢١)، تفسير الألوسي (٦/٢٣١).

من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٣ ـ ٥٦].

في الآيات توجيهات كان ينبغي للأقوام أن ينتفعوا بها وهذا يكون بتحررهم من سلطان سادتهم وكبرائهم المتمردين عن دين الله وترك التبعية لآبائهم في تقليدهم الأعمى بعبادتهم أصنامًا من حجارة أو حديد أو نحاس لا نفع فيها ولا ضرّ، إلا أن تستخدم بصفتها آلةً.

كما كان ينبغي لقوم هود، وكذلك من تبعهم من الأقوام، أن لا يحملهم غرورهم بقوتهم الجسدية والمادية في البناء والمصانع على الاستهانة بالرسل وما جاؤوا به بمجادلتهم بالباطل، والتمرد عليهم بالعتو والطغيان، فالنتيجة من الله هي الانهيار والدمار؛ كما أن الإيمان سبب لاستحقاق الرحمة والنجاة من العذاب.

إنَّ العقائد الباطلة الراسخة مأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم، وهم من أكبر الموانع لقبول الحق، التي ليس لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق، ومع ذلك فهي كانت من أعظم ما رد به قوم هود دعوة نبيهم، وجميع الأمم المكذبة لدعوة الرسل[١].

التوجيه السادس: الحث على الصبر.

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام (٣٥١/١).

الصبر لغة: من صبَر، وهو الإمساك في ضيق(١). والمراد هنا: تمسك بني إسرائيل بأمر الله، واتباع موسى ﷺ مع ما كانوا يعانونه من فرعون وقومه من تضييق عليهم بالعذاب، وقتل الأبناء واستحياء النساء.

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد هنا هو قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، أي نجَّا الله بني إسرائيل الذين بقوا سنين متتابعة، يعانون أشد العذاب من فرعون وقومه، وهم صابرون على أمر الله بالإيمان به، وبما جاء به موسى، وتخطوا تلك العقبات والمراحل، فقطعوا كل هذا البلاء والعناء بالصبر فقط دون غيره، فأثابهم الله على حسن بلائهم بأن أورثهم أرض مصر، والشام من مشرقها ومغربها التي بارك فيها بالخصب، والنماء، وسعة الأرزاق، والخيرات ووفرة الأنهار، وبيّن سبحانه أن ذلك إنما هو جزاءٌ لصبرهم، وبالمقابل فرعون وقومه تمادوا بالكفر، والطغيان، وسؤال موسى المعجزات، وعند تحققها إذا هم ينكثون العهود، والمواثيق، تكذيبًا، واستهزاءً، فكان الدمار بأن خرب الله ديارهم وجناتهم بما ظلموا جزاءً وفاقًا(٢).

يحسن أن يقف الأقوام على فائدة الصبر على الإيمان بالله، واتباع رسله وأذى السلطان الجائر فالصبر على ذلك صائر إلى النصر، وتحقيق الأمل والفرج بإذن الله.

كما يستفاد مما سبق أن على الأقوام تأمل ما حل ببني إسرائيل من محن عظيمة انجلت بمنح جليلة، ليُعرف مدى فضل الله على عباده بكشف شدائده وإغاثته، بإصلاح كل فاسد لمن تمسك بطاعته، وأخلص في خشيته وأصلح من نيته، فسلك هذه السبيل، فإن ذلك أوضح طريق، وأهدى دليل، إلى النجاة من المكاره(٣).

---

(١) المفردات (٢٧٧).

(٢) تفسير الطبري (٧٤/١٣)، تفسير القرطبي (٢٧٢/٧)، التحرير والتنوير (١٦٢٥/١).

(٣) تفسير النسفي (٣٨٨/١)، الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦/١).

التوجيه السابع: دعوة إلى التعقل.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

التعقل لغة: التعقل: التدبر، وتعقلت الشيء تدبرته(١). والمراد هنا: هو التدبُّر باستماع آيات الله، ومشاهدةِ حُججِه الواضحةِ والمفاوضة مع من يؤخذ منه العُلوم(٢).

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد هو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، جاءت الهمزة من قوله: ﴿أَفَلَا﴾، للاستفهام التوبيخي أي أجهلتم أن هذا الأمر الجلي الواضح من عند الله، وأن مثل هذا السؤال المتعنت الذي سألتموه لا يملك تنفيذه أحد إلا الله تعالى وخاطب الله عقول المشركين لأن العقل هو أول درجات الإدراك، واستنكر عليهم كيف لا يحملهم التعقل والتدبر أن يستغنوا عن سؤالهم بالإتيان بقرآن غير هذا الذي يتلى عليهم، أو تبديله بكتاب آخر، فهم العالمون بأحوال محمد ﷺ، وأنه ما طالع كتابًا، ولا تتلمذ لأستاذ، ثم جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي اشتمل على علوم، وأحكام، وأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء، فكل من له عقل سليم يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي، والإلهام، فكان الأولى الدخول في الإيمان، ونبذ الكفر، والطغيان(٣).

كيفية استفادة الأقوام ومن جاء بعدهم من التوجيه:

١ - في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، توجيه للعقول السليمة أن تتفكر

---

(١) التعاريف (١٨٨/١).

(٢) تفسير الطبري (٧/٦)، تفسير الرازي (٤٦/١٧)، تفسير أبي السعود (٢٤٠/١).

(٣) التحرير والتنوير (١١٨/٥)، الوسيط لسيد طنطاوي (٢٣٥٤/١).

وتتأمّل بالنظر في القرآن الكريم قبل أن تُكذِّب هذا الرسول الذي يأتيهم بأنباء الغيب، كما جاء في سورة الروم أن الروم سيغلِبون من بعد غلبهم، ووقع ذلك كما أخبر، وقد شهد له قومه بما يوجب تصديقه والإيمان به، ولم يكن ذلك عن موقف واحد أو أكثر، بل كان على امتداد عمره ﷺ صادقًا أمينًا في أقواله، وأفعاله، وهذا ما يجعل ذلك أبلغ وأوكد في الإلزام بالحجة[١].

٢ ـ بالتأمل والتدبر يشهد كل من له عقل سليم وطبع مستقيم بأن هذه الآية تسجيل واضح، وفاضح لسؤال المشركين محمدًا ﷺ، الإتيان بغير القرآن الكريم أو تبديله الذي جاء استهزاءً، وتكذيبًا منهم، وإلا فالقرآن الكريم كلام الله بدليل إعجازه من حيث النظم والأسلوب، ومن حيث المعاني التي اشتمل عليها وبدليل كون المبلغ له أُمِّيًّا لم يكتب، ولم يتعلم من أحد.

٣ ـ أن التبديل والتغيير مردود من أساسه، وأن القرآن الكريم فوق طاقة الرسول ﷺ وليس من مقدوره، بدليل التحدّي لمعارضته والإتيان بمثله أو بأقصر سورة من مثله.

٤ ـ أن من أسباب إيمان كثير من الناس إعجاز القرآن الكريم اللغوي والعلمي، وتأثير آياته على العقول والقلوب، والاقتناع بأنها حق فانقادوا إليه راغبين ودخلوا في الإسلام أفواجًا[٢].

التوجيه الثامن: التفكُّر في قدرة الله.

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

ربط التوجيه بالسؤال: بعد أن بين الله سبحانه أنه قادر على أن ينزل الآية المقترحة إذا رأى أن من الحكمة والمصلحة إنزالها، ذكر ما يعد

(١) مجلة البيان. الأعداد ١ ـ ١٠٠، (٢٢/٨٧).

(٢) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٨٤/٢).

من الأدلة للتفكر فيها على تلك القدرة فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فكانت بمنزلة الدليل على مضمون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، أي أنه لا يوجد نوع من أنواع الأحياء، التي تدب على الأرض، ولا نوع من أنواع الطيور التي تطير في الهواء، إلا وهي أمم مماثلة للناس، وكذلك الخلق يماثلون الناس في الخلق والرزق، والحياة، والموت، والحشر ولها نظامها، وخصائصها، وطريقة حياتها ومعاشها، وجميع المخلوقات علمها عند الله، وقد أثبتها عنده في أم الكتاب، لا ينسى واحدًا منها من رزقه وتدبيره. وجميع الخلائق تحشر إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة قال ابن عباس: «حَشْرها الموتُ»[(١)]. فكان خلق الأمم على مختلف أصنافها آية عظيمة دالة على عظم قدرته، فكيف يعجز سبحانه أن يأتي بأي آية يسألها الكفار، ولكن الجهل والعناد أدى بهم الى اختلاق المبررات بإثارة التساؤلات التي نتج عنها سوء تلقيهم للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ[(٢)].

تضمنت هذه الآيات وما فيها من هدايات توجيهات منها:

١ - في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ فيها تقرير من الله بأن قدرته ليست قاصرة عن شيء، فكل منقاد لعزته مذعن لسلطانه.

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. دلالة على كمال قدرة الله تعالى، وشمول علمه، وسعة تدبيره، وتنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، لتكون دليلًا على أنه سبحانه قادر على أن ينزل آية[(٣)]. قال ابن عاشور:

---

(١) تفسير الطبري (٣٤٤/١١)، تفسير البيضاوي (١٤٦/٢)، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٣).

(٢) تفسير الطبري (٣٤٤/١١)، تفسير ابن كثير (٢٥٣/٣)، أيسر التفاسير لأسعد حومد (٨٢٨/١).

(٣) تفسير البيضاوي (١٤٦/٢)، تفسير أبي السعود (٣٥٩/٢).

«فموقع هذه الآية عند بعض المفسّرين أنها بمنزلة الدليل على مضمون[١] الآية: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]».

٣ ـ فيها توجيه للقلوب وللعقول إلى أن وجود هذه الخلائق بهذا النظام، وشمولها بهذا التدبير وإحصاءها في علم الله، ثم حشرها إلى ربها في نهاية المطاف، أكبر من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس.

٤ ـ وفيها إنذار وتحذير للكفار المعرضين عن دعوة رسول الله ﷺ بأن الله ليس غافلًا عما يعملون، كما أنه غير غافل عن عمل شيء يدبّ على الأرض صغيرًا أو كبيرًا ولا عمل طائر يطير بجناحيه في الهواء، فالكل مُثْبَت عنده في أمّ الكتاب؛ فكما أنه سبحانه لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدوابّ في الأرض، والطير في الهواء، فكذلك لن يضيع أعمال الخلق، ولن يفرّط في حفظ أفعالهم، فالكل مجازى إن خيرًا فخيرًا، وإنّ شرًّا فشرًّا[٢].

٥ ـ وفيها تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوانات، فهي أمم أمثالنا، وتحذير من الاعتداء عليها بما نهى الشرع عنه من تعذيبها، وإذا كان الله تعالى يقتصّ لبعضها من بعض، وهي غير مكلّفة فالاقتصاص من الإنسان لها أولى بالعدل[٣]. وقد ثبت في الحديث: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ**، ـ قَالَ: فَقَالَ: وَاللهُ أَعْلَمُ: ـ **لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ولَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ منْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٤/٢٢٢).

(٢) تفسير الطبري (١١/٣٤٤).

(٣) النكت والعيون (١/٤٠٦)، أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن (٢/١)، التحرير والتنوير (٧/٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، باب فضل سقي الماء، (٨/٤٦٢، رقم ٢٣٦٥).

التوجيه التاسع: الأمر بتقوى الله.

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢].

التقوى لغة: من الجذر وقى، وهي من الفعل اتقى (القاموس المحيط)، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما تخاف، وتقوى الله فعل أوامره، وترك نواهيه[١]. والمراد هنا: تقوى الله بترك سؤال الأنبياء الآيات إيمانًا بالله، وتيقنًا بقوته، وتوكلًا عليه.

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ١١٢]، لما سمع عيسى عليه السلام، سؤالهم الذي ظاهره التعنت، والشك في قدرة الله، قال لهم استعظامًا منه وزجرًا لهم لما قالوا وأمرًا منه بتقوى الله التي من تحلى بكمال معناها ترك جميع المعاصي، والتي منها هذا السؤال الذي لم تسأله الأمم من قبلهم، وإن شابه بني إسرائيل في سؤالاتهم لأنبيائهم وأمرهم بالتقوى لأن ذلك أولى من سؤالهم ولأن مثل هذا لا ينبغي أن يصدر من مؤمن وفي ذلك نهي لهم عن سؤال الآيات بعد الإيمان، لأن في طلب إنزالها ضعفًا في التوكل على الله في طلب الرزق، وقد تكون سبب فتنة لهم[٢].

التوجيه العاشر: الإبلاغ والنصح.

في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧ ـ ٧٩].

---

(١) المفردات (٥٤٥)، كتب العقيدة (٨/٤).

(٢) تفسير البغوي (١١٧/٣)، تفسير ابن كثير (٢٢٥/٣)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٤٩٨/٣).

النصح لغة: من نصح، وهو تحري فعل، أو قول فيه صلاح صاحبه، وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار[(١)].

التبليغ لغة: من بلغ، وهو مصدر بلَّغ، والإبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا، أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة[(٢)]. والمراد هنا: نصح وتبليغ الأنبياء لأقوامهم بالأقوال، والأفعال المنجية من عذاب الله.

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

في هذه الآية توبيخ، وتقريع، من صالح عليه السلام، لقومه لما كذبوه، وعقروا الناقة، ثم سألوه العذاب الذي كان يتوعدهم به إن خالفوه، وأبوا الحق وأعرضوا عن الهدى، فأخذتهم الرجفة المهلكة جزاء لهم، فأعلن عليه السلام، أنه قد أدى ما عليه من تبليغ الرسالة بقوله: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي كاملة غير منقوصة ونصحت لكم بالترغيب تارة والترهيب أخرى، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بُغض الناصحين وعداوتهم فلم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم إلى أن تقوم الساعة، وليس لي في هدايتكم حيلة ولا لي بدفع العذاب عنكم قدرة»[(٣)].

يمكن أن يستفاد من هذه الآيات ما يلي:

١ ـ علامة قرب ساعة الهلاك إذا أصبح الناس يكرهون النصح ولا يحبون الناصحين[(٤)].

---

(١) المفردات (٤٩٦)، التحرير والتنوير (٢١٠٤/١).

(٢) المفردات (٧٠).

(٣) تفسير البحر المحيط (٣٨٦/٥)، الوسيط لسيد طنطاوي (١٦٤١/١)، قصص الأنبياء (١٦٢/١).

(٤) أيسر التفاسير للجزائري (٤٧٩/١).

٢ - خاطب صالح قومه ليكون ذلك عبرة لمن معه من المسلمين ليزدادوا إيمانًا وانتفاءً عن معصية الله لهم ولمن خلفهم، فيكون ذلك عظة، وعبرة لهم فيعتبرون وينزجرون عن فعل تلك الطريقة التي كان عليها من سبقهم من الأقوام(١).

٣ - في خطاب صالح لقومه إشهاد على أمانة التبليغ والنصح، والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتو، والاستهزاء، والتكذيب.

٤ - في ذكر توجيه صالح عليه السلام، النصيحة لقومه، تخويف لأمة محمد ﷺ، وزيادة في يقينها، فالواجب على كل من أراد السلامة في الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ويتحرى في ذلك جهده؛ ويقصد من ذلك رضا الله ورسوله(٢).

٥ - إن النصح والتواصي بالحق هو سبيل الأنبياء والمؤمنين الناصحين المتناصحين، ومن توفيق الله للعبد أن يسلك سبيل التواصي بالحق، والتعاون على البر والتقوى(٣).

٦ - يتضح أيضًا أن النصيحة للأقوام إذا كانت مخالفة للهوى تستثقل النفوس قبولها.

التوجيه الحادي عشر: الشكر.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٥٥، ٥٦].

الشكر لغة: من شكر، وهو تصور النعمة، وإظهارها بذكر المُنعم عليه(٤). والمراد هنا: القيام بطاعة المنعم إقرارًا بالقلب، فيعترف أن هذه

(١) تفسير الرازي (٥٧/٣)، تفسير البحر المحيط (٣٨٦/٥).
(٢) البحر المديد (٢٦٦/٢).
(٣) المستطرف في كل فن مستظرف (٧٧/١)، مجموع فتاوى ومقالات ابن باز (٢١٢/٧).
(٤) المفردات (٢٦٨).

النعمة من الله؛ واعترافًا باللسان فيتحدث بها، وعملًا بالأركان بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر[(١)].

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، و«لعل» هنا للتعليل المفيد للحكمة؛ وليست للترجي، فالترجي إنما هو في حق البشر، وفي هذه الآية تذكير من الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ، حتى يحصل الشكر منهم على نعمته على أسلافهم بإحيائهم بعد أن أماتهم من الصاعقة التي ماتوا منها موت همود يعتبر به الآخرون جزاء لهم على تمردهم، وسؤالهم موسى رؤية الله لينقادوا له[(٢)]، وقيل المعنى: لعلّ بني إسرائيل يشكرون نعمة الله بعدما كفروا بها لما رأوا بأس الله في رميهم بالصاعقة التي أذاقتهم الموت[(٣)].

في هذه الآيات توجيهات وهي:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، إبهام معلومة أن بعض الناس يشكر المنعم عليه سواء كان الله هو المنعمَ أو كان المنعمُ أحدًا من الناس، ومنهم من يجحد، ولا يشكر على السواء، فمن كان من طبعه كفران نعمة الناس، وترك الشكر لمعروفهم؛ كان من عادته كفران نعمة الله ﷻ، وترك الشكر له[(٤)].

٢ ـ سعة حلم الله ﷻ، وأنه مهما بارز الإنسان ربه بالذنوب فإن حلم الله تعالى قد يشمله بالتوبة؛ كما وفق الله بني إسرائيل لها[(٥)].

٣ ـ وجوب الشكر على من أنعم الله عليه منهم بنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقرارًا بالقلب،

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٣/١٣٧).
(٢) تفسير الطبري (٢/٨٥)، المحرر الوجيز (١/٨٢)، تفسير القرطبي (١/٤٠٤)، التحرير والتنوير (١/٢٩٥).
(٣) المحرر الوجيز (١/٨٢)، تفسير البحر المحيط (١/٢٧٢).
(٤) تفسير القرطبي (١/٣٩٨)، نظم الدرر للبقاعي (١/٩٧).
(٥) تفسير القرآن للعثيمين (٣/١٢٧).

واعترافًا باللسان وعملًا بالأركان؛ فيقرّ بقلبه أنها من الله؛ كذلك يتحدث بها بلسانه اعترافًا لا افتخارًا؛ ويقوم أيضًا بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون الشكر[١].

٤ ـ خطاب الله للعباد من غير واسطة بينه وبينهم رفع لأقدارهم عنده سبحانه فيرفع من يشاء فيجيبه بما شاء، ويوقف من شاء فيجعل بينه وبينهم في الخطاب واسطة من نبيهم[٢].

٥ ـ وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]؛ تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله ـ ﷻ ـ أي: نقلكم الله ـ تعالى ـ من الشدة إلى الرخاء، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفقر إلى الغنى. حتى تستمروا على طاعة الله وشكره، ولا يشغلكم عن ذلك أي شاغل[٣].

٦ ـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ تذييل قصد به تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم وحثهم بالمداومة على شكرها[٤]؛ وكذلك حث لمن جاء بعدهم من الأقوام فبالشكر تدوم وتزيد النعم الموجودة، وتُجلب النعم المفقودة، ويُمنع نزول العذاب[٥].

٧ ـ أن الشاكرين هم المنتفعون بآيات الله، ينظرون بعين البصيرة إلى من قصّ الله أخبارهم في القرآن الكريم؛ كسؤال بني إسرائيل لموسى ﵇، فيعرفون أن تلك العقوبة جزاءُ كفرهم نعم الله؛ وأن من فَعَلَ فعلهم فُعِلَ به مثلهم، سنة الله التي لا تتغير في كل زمان ومكان.

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٣/١٣٧).

(٢) نظم الدرر (١/٩٢).

(٣) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٨٠٧).

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي (١/١٣٥٣).

(٥) كيف نكون من الشاكرين (١/١٧).

التوجيه الثاني عشر: الموازنة.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ٦١].

الموازنة لغة: من وزَن أي معرفة قدر الشيء[(١)]، كما في قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]. والمراد هنا: مراعاة المعادلة في جميع ما يتحراه الأقوام من أقوالهم وأفعالهم، ومن ذلك ترك سؤال استبدال الرديء بالطيب من الأطعمة.

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، القائل في هذه الآية موسى عليه السلام، ويظهر ذلك في مناسبة سياق النظم والاستفهام الذي فيه إنكار، وتقريع، وتوبيخ من موسى عليه السلام، ودعوة للتأمل بالموازنة بين الأدنى والأفضل من الأطعمة لبني إسرائيل في سؤالهم أن يستبدلوا بالأنواع الطيبة من المن والسلوى، أنواعًا أحط منزلة وأدنى قدرًا كالبقل والثوم، ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على دناءتهم، وقلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم موسى عليه السلام، من جنس عملهم فلم يستجب لسؤالهم، ويدعو ربه لهم لأن طلبهم لا يستحق الدعاء فهو هين زهيد متوافر في أي مصر من الأمصار، فأمرهم بالانتقال والاستقرار في أي بلد زراعي فإنهم واجدوه فيه[(٢)].

الخلاصة:

❑ كان سؤال بني إسرائيل استبدال الأقل قدرًا بالطيب سببًا في

(١) المفردات (٥٣٧).

(٢) تفسير الطبري (١٣٠/٢)، تفسير البيضاوي (٩٨/١)، تفسير ابن كثير (٢٨٢/١).

قطع عناية الله بهم بإهمالهم، واتكالهم على أنفسهم بالسعي لها، فالذي سألوه لا يجيء إلا بالحرث، والزراعة والتعب، وكفى بذلك تأديبًا، وتوبيخًا على سوء اختيارهم، وضعف عقولهم بإيثارهم الأدنى وهو البقل على ما هو خير منه وهو المن والسلوى(١).

- ❑ لقد جاء وصف سؤالهم بالأدنى لمعرفة قدر الذي سألوا استبداله، لأن المنّ والسّلوى طعام مَنَّ اللهُ به على بني إسرائيل، وأمرهم بأكله فهو أطيب وألذ من الذي سألوه وكان في استدامة أمره وشكر نعمته أجر وذخر لهم في الآخرة، فكان وصفه «أدنى» بهذا الوجه حتى يعلموا بأن ترك سؤالهم استبدال الأدنى بالطيب أولى(٢).

- ❑ في الآيات كذلك توجيه لمن جاء بعدهم من الأقوام بأنه من علوّ همة المرء أن ينظر إلى الأكمل، والأفضل في كل الأمور ومنها أن التوسع في المآكل، والمشارب، واختيار أفضلها إذا لم يصل إلى حد الإسراف فلا ذم فيه؛ ولذلك لم ينكر النبي ﷺ، على أصحابه حين أتوه بتمر جيد بدلًا عن الرديء؛ لكن لو ترك التوسع في ذلك لغرض شرعي فلا بأس(٣)، فدل ذلك على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات.

التوجيه الثالث عشر: الحذر من طبع القلب.

في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ١٥٣ ـ ١٥٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٣/١).

(٢) تفسير القرطبي (٤٢٨/١).

(٣) تفسير القرآن للعثيمين (١٥٢/٣).

طبع القلوب لغة: من طبع بفتح الطاء، وهو أن تصور الشيء بصورة ما كطبع الدراهم، وطبع القلوب: هو نقش النفس بصورة ما، إما من حيث الخلقة، وإما من حيث العادة كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يُونس: ٧٤][١]. والمراد هنا: طبع قلوب الكفار بغشاوة، وأغطية عند دعوة رسل الله لهم، فلا تفقه ما يقال لها، ولا تعقله[٢].

ربط التوجيه بالسؤال: في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ١٥٥]. جاء في هذه الآية إخبار عن أخلاق اليهود، وطباعهم الوعرة، والصعبة والغريبة، فهم لا يذعنون للحق، وإنما يجادلون فيه، وينحازون عنه إلى المطالبة بأمور على سبيل التعجيز والإلحاد، والعناد، والمراوغة، والتعنت بسؤالهم إنزال كتاب[٣]، فجاء قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ شاهدًا ومكذبًا لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، **والذي جاء في تفسيره وجهان:**

الوجه الأول: أن قلوبهم أوعية مملوءة من العلوم، والمعارف، ومغلفة على ما فيها من دينهم، وشريعتهم، وتبقى على مدى الدهر، وهي لصلابتها تمنع أن يصل إليها غير ما فيها فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي أن قلوبهم محجوبة عن العلم، بخذلانها ومنعها التوفيق في التدبر، والتذكر بالمواعظ فهم لا يهتدون، ولو جاءتهم الآيات التي يسألونها من أنبيائهم، إذ لم يكن في مجيئها منفعة لهم، فجعل الله عليها طابعًا بكفرهم وتكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع إلى دعوة الحق، فلا يصل أثر الدعوة والبيان إليها[٤].

---

(١) المفردات (٣٠٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/٣٦٣).

(٣) التفسير المنير (٣/٣٧١).

(٤) تفسير الطبري (٩/٣٦٣)، الكشاف (١/٤٨٦)، تفسير الرازي (٦/٤٣١)، تفسير ابن كثير (٢/٤٤٧).

الوجه الثاني: أن قلوبهم لا تعي، ولا تفقه، فهي في أكنة لا يتوصل إليها شيء من الموعظة، والبيّنات، وظهور المعجزات الدامغة، فرد الله عليهم دعواهم الكاذبة؛ بقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النّساء: ١٥٥]، أي خلقهم على الفطرة فجعل لهم قلوبًا يفهمون بها، وآذانًا يسمعون بها، والتي يكون بسببها الإيمان؛ وقبول الحق خلافًا لما زعموا، ولكن بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول ﷺ، طبع الله على قلوبهم[١]، وقيل إن معنى الطبع في هذه الآية أن الله جعل في قلوبهم علامة تدل الملائكة على كفرهم كعلامة المطبوع[٢]، ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ١٥٥]، أي: مَرَدت قلوبهم على الكفر، والطغيان، وقلة الإيمان بالله ورسله، فلا يؤمن من هؤلاء المكذبين إلا قليل كعبدالله بن سلام وأصحابه[٣].

دلت هذه الآيات الكريمات على:

- ❑ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الخَتْم من قبل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَك ولا للكفر منها مَخْلَص، فالكفر المتزايد يزيد عصيان القلوب عن تلقِّي الإرشاد[٤].
- ❑ كذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النّساء: ١٥٥] دلالة على أن الله خلق القلوب على الفطرة المتمكنة من اختيار الخير والشر، وعلى إدراك الصواب، فمن كفر وأعرض عن الخير، وعادى الحق ودفعه الكبر الذي يدعو إلى الجهل، وعدم الإذعان إلى الحق، وقبوله اعتقادًا، وقولًا وعملًا، كان فعله سببًا في أن يجري عليه طبع القلوب الذي يجعلها صلدة جامدة، لا تستشعر حلاوة الإيمان.

---

(١) المراجع السابقة للوجه الأول من تفسير الآية، وصفوة الآثار (٣٦/٧).
(٢) النكت والعيون (٣٣٩/١).
(٣) تفسير البيضاوي (٢٨/٢)، تفسير ابن كثير (٤٤٧/٢).
(٤) تفسير الطبري (٢٦١/١).

التوجيه الرابع عشر: عدم تكثير الأسئلة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧١].

ربط التوجيه بالسؤال: الشاهد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ جاء جوابًا لسؤال بني إسرائيل لموسى عليه السلام، أن يخرج لهم القاتل المجهول، وإن لم يذكر في سياق الآيات سؤالهم إحياء القتيل، لأن القرآن الكريم كتاب هداية، وأسلوبه هذا أدعى إلى تشويق السامع، وبعث همته على البحث عن معرفة السبب في القتل، فجاء التوجيه أمر من الله على لسان موسى أن يذبحوا بقرة، فكان ذلك كافيًا لهم في التمثيل والامتثال، فلم يستجيبوا لأمره فاتهموه بأنه يسخر منهم ويستهزىء بهم استبعادًا لما قاله واستخفافًا به، فجاء رده كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، في هذه الآية نفى موسى عليه السلام عن نفسه السفه بأبلغ صورة بالاستعاذة بالله مما قالوا استفظاعًا واستعظامًا لما أقدموا عليه؛ فبين بذلك أن الهزء في مجال الدعوة والتبليغ عن الله، جهل وسفه لا يليق بأنبيائه، فلما علموا أن أمر ذبح البقرة من الله، لم يبادروا إلى الامتثال لأمره، واستمروا في تلكئهم فبدؤوا يسألون عن ماهية ما كلفهم به موسى، وهذا يدل على الإنكار والاستهزاء، وإلا فقد أخبرهم عن الماهية، وهي البقرة فكان مقتضى سؤالهم أن يجيبهم موسى عليه السلام، بأنها بقرة مرة ثانية، ولكن موسى عليه السلام أجابهم عن صفة من صفاتها؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ في هذا الجواب الرقيق البليغ كفاية لمن يريد الهداية؛

فكان عليهم أن يعمدوا إلى بقرة متوسطة في السن؛ ويذبحوها، ويستريحوا من مشقة التعقيد والتضييق؛ ولكن تأبى عليهم نفوسهم إلا التعنت، والإلحاح في السؤال عن لونها، فأجابهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩] وبهذا الجواب بدؤوا يتلقون نتائج أسئلتهم المتعنتة بالتشديد عليهم بصفات تجعل البقرة نادرة بين جنسها في مجتمعهم، وقد قيدها الله بهذا اللون النادر الوجود لعدم استجابتهم لأمره في سياق الآية السابقة لسؤالهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨] فبعد أن كان المأمور بذبحها بقرة سهلة الوجود في أي زمان ومكان أصبحوا مكلفين بأن يبحثوا عن بقرة بصفات ثلاث متوسطة السن، وصفراء فاقع لونها تسر الناظرين، وقد كان هذا كافيًا في تنفيذ الأمر، لكنهم عادوا بعد هذا كله ليجروا على أنفسهم أعباءً جديدة ليسألوا عن ماهية البقرة معتذرين عن تكرار السؤال بأن لديهم تشابهًا في الأنواع والأشكال وأنهم إن شاء الله لمهتدون، وفي استثنائهم هذا رجوع انقياد، ودليل ندم، وإظهار حرصهم على موافقة الأمر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لولا أن بني إسرائيل قالوا:** ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] **لما أعطوا ولكن استثنوا**»[1].

فأجابهم الله بجواب يزيد الأمر مشقة، وتعقيدًا، ويضيق عليهم دائرة الاختيار التي كانت متاحة لهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١] وبهذا التوجيه زاد أمرها تعقيدًا ووجودها ندورًا فأضيف إلى ما سبق اشتراطه أوصاف أخر، فلا بد أن تكون غير مذللة للحراثة، ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة، صبيحة، مسلمة لا عيب فيها، وليس فيها لون غير لونها؛ فكان ردهم لموسى عليه السلام؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] فكأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك الوقت، وفي ذلك دلالة على جهالة من جهالاتهم، وهفوة من هفواتهم،

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/١٨٤).

وعلى قلة أدبهم مع نبيهم ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٧١] أي ذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله لهم بعد أن قاربوا ترك ذبحها المفروض عليهم[(١)].

من الإرشادات التي دلت عليها هذه الآيات:

١ ـ وجوب تلقي أوامر الله، وأحكام الشريعة بالاستجابة، والمسارعة بأدائها، والالتزام الكامل بها، وعدم التحايل على أوامر الله، أو التملص والتهرب منها.

٢ ـ وجوب احترام الأنبياء، والمرسلين، والعلماء، والدعاة المصلحين والأدب في الحديث معهم، وعنهم.

٣ ـ أن التنطع والتشدد في الدين والإلحاح في كثرة السؤال ليس محمودًا فهاهم اليهود قد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ولو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولهذا نهى الله المؤمنين عن التفصيلات التي لا داعي لها والأسئلة التي لا فائدة منها لكونه يفضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل، فيكفر صاحبه؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المَائدة: ١٠١] إلى قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ١٠٢]، وكما في قوله ﷺ: «**أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم على الناس من أجل مسألته**»[(٢)]. فأوامر الله تؤخذ كما أمر الله، ولا داعي للزيادة عليها، والانقاص، ولا داعي للإكثار من السؤال عن التفصيلات الفرعية التي لا حاجة لنا بها.

٤ ـ عدم الانشغال بالأمور الثانوية، والمسائل الهامشية التي لا يجدي

---

(١) تفسير الطبري (١٨٤/٢)، بحر العلوم للسمرقندي (٦٧/١)، تفسير الرازي (١٤٩/٢)، تفسير القرطبي (٤٥٢/١).

(٢) صحيح البخاري (٨٤/٢٤، رقم ٧٢٨٩)، وصحيح مسلم (٣٩٧/١٥، رقم ٦٢٦٥).

ولا ينفع البحث فيها، فهي مضيعة للوقت، والجهد، وتعيق سرعة التنفيذ.

٥ - الواجب على كل من تعامل مع اليهود المعاصرين أن يحذر منهم ولا ينخدع بمراوغتهم، فهم ورثوا من آبائهم، وأسلافهم طبيعتهم الذميمة وجبلتهم المتصفة باللجاجة، والتعنت، والتلكؤ في الاستجابة وانتحال المعاذير للتخلص من التنفيذ، وزادوا على آبائهم بانقطاع الصلة بين قلوبهم ونبع الإيمان، والثقة بالله، والتصديق بما جاءتهم به رسلهم.

التوجيه الخامس عشر: الدعوة إلى التمسك بالحق.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: ١١٩، ١٢٠].

الحق باللغة: من حقّ الشيءُ، أي: وجب وثبت، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع ويسمى الدين الصحيح حقًّا(١). والمراد هنا: التمسك بدين الحق، وهو الإسلام الذي يدعو إليه القرآن الكريم، وقد أطلق عليه اسم الحق لاشتماله على الشرائع، والأحكام الصادقة(٢)، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزّخرُف: ٢٩].

ربط التوجيه بالسؤال: لما أصر أهل الكتاب والمشركون على العناد، واللجاج الباطل بسؤالهم تكليم الله وإنزال الآيات على سبيل التعنت، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فابتدأها بحرف التأكيد، لمزيد الاهتمام بأمر الرسالة، وللتنويه بشأن الرسول ﷺ، وأسند الله الإرسال إلى ضمير الجلالة، تشريفًا لنبيه عليه السلام فكأنه سبحانه يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك وقوله:

---

(١) المفردات (١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٨٥/٦).

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ [البَقَرَة: ١١٩] الباء هنا للمصاحبة أي إرسالك حق؛ أو للملابسة أي أن ما أرسلت به هو الحق[١]؛ وفسر الحق هنا بالصدق كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ [يُونس: ٥٣] وبالقرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥] وبالإسلام وشرائعه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسرَاء: ٨١][٢]، ثم جاء قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البَقَرَة: ١١٩] أي أن محمدًا ﷺ جاء مبشّرًا للمؤمنين الذين أجابوا داعي الحق من أهل الطاعة بالثواب الكريم ومخوفًا للكافرين الذين أعرضوا عن اتباع الدين من أهل المعصية بالعذاب الأليم، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ **قولان بحسب القراءتين الواردتين فيها:**

القول الأول: إذا قرئت: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ بالرفع على أن ﴿لَا﴾ نافية؛ فهو توجيه من الله لنبيّه ﷺ بأنه سبحانه أرسله لأن يبشر من أطاع وينذر من عصى لا ليجبر على الإيمان، فليس مؤاخذًا ببقاء الكافرين على كفرهم إن أصروا، أو كابروا بعد أن بلغهم الدعوة.

القول الثاني: إذا قرئت: ﴿تَسْأَلْ﴾ بالجزم على أن ﴿لَا﴾ ناهية؛ فهو إيذان بكمال شدة عقوبة الكفار، وتهويل لها، والنهي مجازي في حال لا يتصوّرها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذّبين أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل[٣].

وعلى كلٍّ فالّذين امتدحهم الله سبحانه وتعالى هم الذين يتبعون القرآن الكريم حق اتباعه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما فيه[٤].

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين (٤/١٨).

(٢) تفسير الطبري (٢/٥٥٧)، تفسير البغوي (١/١٤٢)، تفسير ابن كثير (١/٤٠٠)، تفسير الألوسي (١/٤٨٧).

(٣) تفسير الطبري (٢/٥٥٧)، تفسير البغوي (١/١٤٢)، تفسير الألوسي (١/٤٨٧)، تفسير القرآن للعثيمين (٤/١٨).

(٤) بحر العلوم للسمرقندي (١/١٠٦)، تفسير البغوي (١/١٤٢)، تفسير القرطبي (٢/٩٢).

كشفت هذه الآيات عن أمور مهمة يحسن فهمها؛ ومنها:

١ - أن وظيفة الرسل تبليغ الدعوة إلى الناس، لا إجبارهم عليها فمن قبل الدعوة إلى الله فقد اهتدى، ومن رفضها كان ضرر ذلك على نفسه فالواجب على الدعاة والمصلحين تبليغ دعوتهم إلى الناس وليس عليهم مسؤولية رفض الناس دعوتهم؛ كما ليس عليهم إجبارهم على قبولها.

٢ - في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البَقَرَة: ١١٩] بيان أن رسالة النبي ﷺ متضمّنة لأمر، ونهي، وتبشير، وإنذار؛ والحكمة من ذلك أن الإنسان قد يهون عليه فعل الأوامر، ويشق عليه ترك المنهيات؛ أو بالعكس؛ فلو كانت الشريعة كلها أوامر ما تبين الابتلاء في كفّ الإنسان نفسه عن المحارم، ولو كانت كلها نواهي ما تبين ابتلاء الإنسان بحمل نفسه على الأوامر؛ فكان الابتلاء بالأمر، والنهي غاية الحكمة.

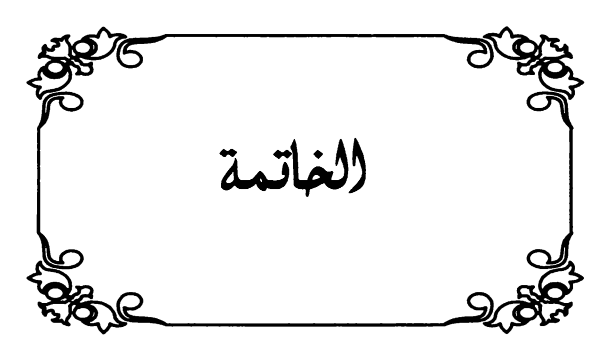
٣ - في هذا التوجيه تهديد، ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى؛ بعد ما عَلِموا من القرآن الكريم والسُّنّة، فالواجب الحذر من اليهود، والنصارى، فهم لا يرضون عن أحد حتى يكون يهوديًا؛ أو نصرانيًا فهي العلة الدائمة في عدم رضاهم عنه ﵇ خاصة وعن الناس عامة.

٤ - في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠] تحذير لكل من تلقى الإسلام أن يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، لأن ما عليه اليهود والنصارى ليس دينًا حقًّا؛ بل هو هوى؛ وليسوا على هدًى إذ لو كانوا على هدى لآمنوا بالمسيح عيسى ابن مريم؛ ولوجب عليهم جميعًا ولآمنوا جميعًا بمحمد ﷺ، وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويتعصب له؛ تكون ملته هوًى، وليست هدًى وأن من اتبع الهوى بعد العلم هو أشد ضلالة.

٥ ـ الواجب تعلق القلب بالله خوفًا، ورجاءً؛ لأنه متى علم المسلم أنه ليس له وليّ، ولا نصير فلا يتعلق إلا بالله؛ فالإنسان إن اتبع غير شريعة الله فلن يحفظه أحد من الله ولن ينصره أحد من دونه، فالنصر والولاية تكون باتباع هدى الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فالأمن إنما يكون بالإيمان[١].



(١) التحرير والتنوير (٤٥٧/١)، تفسير القرآن للعثيمين (١٨/٤).



الخاتمة

بعد هذه الرحلة المباركة التي صحبنا بها أنبياء الله تعالى وهم يتصدون لأهل السوء من أقوامهم وهم يسألون ويتوهمون أنهم قادرون على صرف النبي عن دعوته والحيلولة دون الاستماع له ولقد بدا لنا غير ذلك تمامًا كم تكشفت لنا حقائق وأباطيل تولدت عنها توجيهات وتنبيهات تدعو المصلحة إلى وضعها نصب الأعين وهو ما حرصت على إبرازه في هذه النتائج والتوصيات.

النتائج:

١ ـ سؤالات الأقوام لأنبيائهم جاءت نصًا في القرآن الكريم من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وفرعون وقومه وبني إسرائيل وقوم محمد ﷺ.

٢ ـ إن سؤالات أهل الباطل الآيات جِاءت تعنتًا واستكبارًا ومحادَّةً لله ورسوله، وإلا فالآيات التي جاءت بها الرسل فيها ما يؤمن على مثلها البشر.

٣ ـ إن الغرض من سؤالات الأقوام لأنبيائهم في غالب الأحيان هو التهرب من اتباعهم لهم، فهم يبحثون عن حجج واهية ويطلبون أمورًا وهم يعلمون مسبقًا أن الله لن يستجيب لهم.

٤ ـ اشتراك الأمم في السبب المانع من الإيمان بالله ورسله، ومن ذلك استبعادهم أن يكون الرسول بشرًا، ولا يكون ملكًا، وتوارثهم

سؤال إنزال الملائكة فيما بينهم وقد أجاب الله محمدًا ﷺ، على سؤال قومه إنزال ملائكة بإجابتين إجابة خاصة له؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] وإجابة عامة له، ولعامة الرسل التي تشتمل على التهديد للكفار، والتعهد لأنبيائه بالفصل بينهم وبين أقوامهم بنصرتهم عليهم والانتقام لهم بنزول العذاب عليهم عاجلًا أو آجلًا.

٥ - إن من أسباب أسئلة الأقوام لأنبيائهم، إلى جانب كفرهم وتكذيبهم، اغترارَهم بقوة أجسامهم، وعزة أممهم، ومنعة حصونهم، وكثرة المال، وعلو الجاه الذي حملهم على التمرد ورفض الانقياد للحق الذي انقاد إليه الضعفاء، حتى ظنوا أن باستطاعتهم أن يدفعوا كل عذاب ينزل بهم وهذا الشعور الكاذب الذي يشعر به الطغاة، والجاهلون، يتجدد في كل زمان ومكان.

٦ - المتأمل لهذه السؤالات يلاحظ اتحاد نظرة الأقوام للرسل في كل زمان ومكان، فهي متماثلة، فهم ينظرون إلى ظواهر رسلهم، ويجهلون سرائرهم ميلًا إلى تقليد آبائهم وإصرارًا منهم على الكفر، وإنكارًا لما جاء به أنبياؤهم من معجزات بطعنهم فيها زاعمين أنها ليست قاهرة قوية فيسألون معجزات أخرى محسوسة، وخارقة للعادة يختارونها من عند أنفسهم، فالمانع من الهداية ليس قصورًا في الأدلة، والحجج الإلهية، وإنما هو ضلال العقول بالشرك والمعاصي، والعياذ بالله.

٧ - اتفاق كفار قريش مع الأقوام السابقة في الكفر، والضلال، والتنطع بكثرة السؤال ومشابهة اليهود والنصارى في تجاهلهم لعظمة الله سبحانه وتمردهم، وجرأتهم على الأنبياء والرسل، واستجابتهم للشيطان وطاعتهم له في كل زمان ومكان، فكأنهم تواصوا به وتوارثوه فيما بينهم.

٨ ـ الاستجابة لسؤالات الأمم السابقة لم تكن سببًا في هداية كثير من الناس بل كانت سببًا في إهلاكهم، فمن سبقت عليه الضلالة من الله لا يهتدي ولو جاءته كل آية.

٩ ـ إن مهمة الأنبياء والرسل، ومن سار على نهجهم من الدعاة والمصلحين هي البلاغ والبيان، والنتائج أمرها إلى الله، ولا يُقدِّر هذه المهمة حق قدرها إلا من عرف حجم قوة الباطل التي تقف للصد عن دين الله من ناحية، وعرف حجم التواءات النفس البشرية إذا طال عليها الأمد من ناحية أخرى، وخاصة أن دين الله جل وعلا ليس مجرد كلمات عابرة يلقيها الداعية ثم يمضي، ولا شأن له بعد ذلك، كلا! بل لا بد لهذا البلاغ والبيان من استمرار، وصبر، ومثابرة، ومتابعة، ونصح دائم لا ينقطع ويكون ذلك بالرحمة، والحكمة، واللين، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولتستقيم حياتهم في الدنيا، وينالوا رضوان الله في الآخرة.

١٠ ـ إنه ما من نبي، ولا هاد، ولا منذر، إلا له عدو من الناس، وذلك لتعارض الحق مع الباطل، فنتج عن ذلك عداء لازم من أهل الباطل لأهل الحق.

١١ ـ لم يُجب الله تعالى كفار قريش إلى ما طلبوه من محمد ﷺ وإنما أمر نبيّه ﷺ أن يردّ عليهم برد فيه تنزيه لله ﷻ أن يعجزه شيء وأنه لن يأتي بهذه المعجزات التي سألوها لبطلان غرضهم من أسئلتهم، فهذه المعجزات لا حاجة إليها، فقد جاءهم محمد ﷺ بمعجزة القرآن الكريم، وفيه دلالة كافية على كونه معجزًا فسؤالهم لم يكن طلبًا للبرهان، وإنما كان وسيلة من وسائل التعنت، وأسلوبًا من أساليب التحكم، واستجاب للمؤمنين بسؤال إنزال سورة تأمرهم بالقتال.

١٢ ـ الغالب في أغراض الأقوام من سؤالاتهم أنها باطلة، قصدوا بها التنصل من الدخول في الدين، والسخرية، والاستهزاء، فكان الرد عليهم بالوعيد والتهديد، والعذاب الشديد عاجلًا أو آجلًا.

١٣ ـ إن سؤالات الأقوام لأنبيائهم كانت مما لا حاجة بهم إليها، إنما هو الكفر والمعاندة والتقليد لمن سبقهم من الأمم في الأقوال، والأفعال، فكان لذلك دور في إلغاء حواسهم وإلغاء عقولهم عن التدبر والتفكير السليم، وسوف يماثلهم أناس من أمة محمد ﷺ.

١٤ ـ إن العقائد الباطلة يأخذها الأقوام عمن يحسنون بهم الظن من آباء أو غيرهم، وهذا من أكبر الموانع لقبول الحق، وليس لها مقام في الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق ومع ذلك فهي كانت من أعظم ما رد به الأقوام دعوة أنبيائهم.

١٥ ـ إن التنطع والتشدد في الدين والإلحاح في السؤال ليس محمودًا، فهاهم اليهود قد شدّدوا على أنفسهم في تحديد البقرة فشدد الله عليهم؛ والأسئلة التي لا فائدة منها تفضي إلى تشديد قد يؤول أمره إلى التعطيل؛ فيكفر صاحبه، فأوامر الله تؤخذ كما أمر الله، ولا داعي للزيادة عليها، أو الإنقاص منها، ولا داعي للإكثار من السؤال عن التفصيلات الفرعية التي لا حاجة بنا إليها.

١٦ ـ إن الانشغال بالأمور الثانوية، والمسائل الهامشية التي لا تجدي، ولا ينفع البحث فيها مضيعة للوقت، والجهد، وإعاقة للتنفيذ.

١٧ ـ الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء لم تكن معجزة وآية لهم، بل كانت شريعة ومنهاجًا وأما المعجزات المؤيدة للرسل فكانت تنزل على حسب ما اشتهر به أقوامهم، وبلغوا فيه الغاية من العلم والمعرفة ففرعون وقومه كانوا يشتهرون بعلم السحر فجاءت آية موسى مناسبة لحالهم، وعيسى اشتهر قومه بالطب فجاءت معجزته إبراء للأكمه والأبرص، وقريش نبغوا بالفصاحة والبلاغة فجاءت معجزة القرآن الكريم الباقية مناسبة لحالهم وأحوالهم.

١٨ ـ إن معجزة القرآن الكريم باقية على مرور الزمان تتحدى كل مكذب، أو معاد للإسلام فهي على خلاف معجزات الأنبياء السابقين، فهذه تنتهي بانتهاء حياتهم، ولا يبقى منها إلا أخبارها.

١٩ ـ إن القرآن الكريم معجزة ناطقة مشتملة على مواعظ، ونُذُر، وتعريض بعواقب الأعمال، وتحث على الاستعداد للحياة الثانية، فهو بذلك فُضِّلَ على غيره من المعجزات التي اقتصرت فائدتها على تأييد النبي المرسل إلى قومه.

٢٠ ـ لقد ماثل المشركون (في عهد النبوة) الأُمَمَ السابقة قولًا وعملًا، فقد تماثلت قلوبهم وأرواحهم مع من تقدمهم في العمى والقسوة والعناد والكفر، والألسنة ترجمان القلوب، فما في القلب يظهره اللسان، فالحق واحد، والمخالفة هي الضلال وكلهم واحد، وإن تعددت الطرق، واختلفت الوجوه فالآثار تتشابه حتى كأنهم متواصون به.

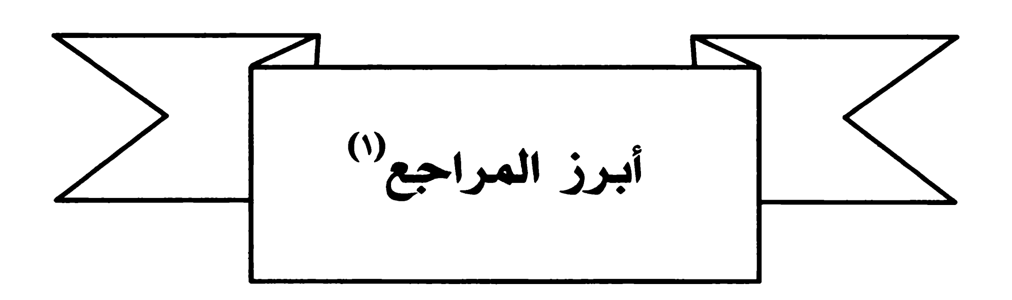
التوصيات:

وإنني أوصي الدعاة بأن ينظروا في أسئلة الأقوام لأنبيائهم ويستفيدوا منها في دعوتهم إلى الله، من أمثلة ذلك:

- ضرب الأمثلة الواقعة والقريبة منهم زمانًا ومكانًا فهي أشد وقعًا وتأثيرًا على النفس البشرية؛ كما ضرب الله المثل بقوم تبع في القوة والمنعة، فلا يسع قريشًا إلا أن تقر بأن قوم تبع والذين من قبلهم خير منهم، وذلك لقربهم منهم زمانًا ومكانًا.
- وإذا واجههم الخصوم بسؤال يثيرهم، أو يخرجهم عن أدب السؤال أن يتصفوا بالثبات، والحلم الذي لا يخرجهم عن توازنهم كما في موقف الأنبياء من سؤالات أقوامهم، فلم تخرجهم هذه السؤالات عن توازنهم، فلم يغلظوا عليهم بالجواب بل ردوهم إلى تقوى الله تعالى، والتذكير بنعم الله عليهم، وحثوهم على استخدام ما آتاهم الله من نعم فيما يرضي الله تعالى عنهم، وحذروهم من الكفر بها، واستخدامها بما يكون سببًا لسخطه وغضبه عليهم.
- أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المتاعب، ويصبروا على الالتواءات والانحرافات وثقل الطبائع، وتوقع الانتكاس المفاجىء بعد كل مرحلة من المراحل التي يمرون بها ويتطلعوا فيها إلى النجاح.

- أن لا يدّعوا لأنفسهم ما ليس عندهم مما يقترحه عليهم الناس، والقدرة على إنزال العذاب، والإتيان بخوارق الأشياء، وأن يذكروا الناس بما جاءهم من الهدى من ربهم.
- أنه مهما أخفى الأعداء وراء سؤالاتهم من مكر، وحاولوا السرية والكتمان في خططهم، فإن الله سيفضحهم؛ كما فضح الكافرين من أقوام الأنبياء فسنة الله جارية من بعدهم على أتباع محمد ﷺ فما على الدعاة إلى الله إلا أن يتحلوا بما تحلى به الرسل من الحكمة والصبر على ما أصابهم، وأن يصمدوا كما صمدوا ويثقوا تمام الثقة بأنهم سيستحقون النصر من الله؛ كما استحقه الرسل من قبلهم.
- أن تتعلق قلوبهم بالله خوفًا، ورجاءً؛ لأنه متى علم المسلم أنه ليس له وليّ، ولا نصير إلا هو سبحانه، فلا أحد يحفظه غيره؛ ولا أحد ينصره من دونه فالنصر والولاية تكون باتّباع هديه واجتناب نواهيه، فالأمن إنما يكون بالإيمان، والتوكل على الله من الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه.





أبرز المراجع(١)

١ ـ **أحكام القرآن للجصاص**، أحمد بن علي المُكنَّى بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.

٢ ـ **اختصار النكت للماوردي**، المؤلف: السلمي الدمشقي الشافعي.

٣ ـ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (ت ٩٨٢هـ)**، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار التراث العربي ـ بيروت.

٤ ـ **أسباب النزول**، أبي الحسن بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨هـ)، مؤسسة الريان ـ بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان.

٥ ـ **استخرج الجدال من القرآن الكريم**، ناصح الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن نجم بن عبدالوهاب الأنصاري ابن الحنبلي.

٦ ـ **أسرار التكرار في القرآن**، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، دار الاعتصام ـ القاهرة، الطبعة ٢، (١٣٩٦هـ)، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا.

(١) رجعت الباحثة إلى عشرات المراجع والمصادر أثبتتها في هوامش الكتاب من باب الأمانة العلمية. وذكرت في ثبت المراجع هذا الكتب التي كثُر الرجوع إليها والاعتماد عليها.

٧ ـ **أصول السرخسي**، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر (ت ٤٩٠هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: أبو الوفاء الأفغاني.

٨ ـ **أصول الدعوة**، د. عبدالكريم زيدان، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٩ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله (ت ٧٥١هـ)، دار المعرفة ـ بيروت الطبعة ٢، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

١١ ـ **أنبياء في القرآن تركوا آثارًا**، د. هدى حسن الطويل، دار المعرفة ـ بيروت الطبعة ١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٢ ـ **أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير**، المؤلف: أبو بكر بن جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة ٦، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٣ ـ **أيسر التفاسير**، أسعد حومد.

١٤ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٥ ـ **الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للركن الأول من أركان الإيمان الستة «الإيمان بالله»**، «رسالة دكتوراه» بقسم العقيدة لعبدالله بن عبدالرحمن المنصور الجربوع.

١٦ ـ **البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها**، عبدالرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٧ ـ **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٨ ـ **التبيان في إعراب القرآن أبو البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري**، إحياء الكتب العربية، تحقيق: علي محمد البجاوي.

١٩ ـ **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.

٢٠ ـ **التسهيل لعلوم التنزيل**، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي ـ لبنان الطبعة ٤، ١٩٨٣م.

٢١ ـ **التعريفات**، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

٢٢ ـ **الرسل والرسالات تأليف: د. عمر سليمان الأشقر**، الطبعة ٣، ١٤٠٥هـ، دار النفائس ـ الكويت.

٢٣ ـ **التفسير القيّم**، لابن القيّم، جمع وترتيب: محمد أويس الندوي.

٢٤ ـ **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت ٦٠٤هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٥ ـ **التفسير المنير في العقيدة**، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر ـ دمشق، الطبعة ٢، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٦ ـ **التفسير الميسر**، عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢٧ ـ **التفسير الوسيط**، محمد سيد طنطاوي.

٢٨ ـ **التقرير والتحبير**، المؤلف: محمد بن محمد ابن أمير الحاج الحنبلي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، تحقيق: عبدالله محمود محمد عمر.

٢٩ ـ **التوفيق على مهمات التعاريف**، المؤلف: محمد عبدالرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، دار الفكر المعاصر، دار الفكر ـ بيروت، دمشق الطبعة١، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.

٣٠ ـ **الحجة في القراءات السبع**، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبدالله: دار الشروق ـ بيروت، الطبعة ٤، ١٤٠١هـ، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم.

٣١ ـ **الحوار في القرآن معالمه وأهدافه: د. سناء بنت حمود عبدالله عابد**، دار الأندلس الخضراء ـ جدة، الطبعة ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣٢ ـ **الحوار في القرآن الكريم**، المؤلف: عبده بن عبدالله الحميدي، مكتبة خالد بن الوليد ـ صنعاء.

٣٣ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، المؤلف: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الشعب ـ القاهرة.

٣٤ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، المؤلف: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة ١، ١٤١٤هـ، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبدالعزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد.

٣٥ ـ **الجواهر الحسان في القرآن**، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت.

٣٦ ـ **الدر المنثور في التأويل بالمأثور**، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٣م.

٣٧ ـ **السنن الكبرى**، للبيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الفكر ـ بيروت.

٣٨ ـ **الصحاح في اللغة**، إسماعيل الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٩ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله (ت٧٥١هـ)، دار العاصمة ـ الرياض، الطبعة ٣، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله.

٤٠ ـ **العجاب في بيان الأسباب**، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، دار ابن الجوزي ـ السعودية، الطبعة ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس.

٤١ ـ **العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية**، رواية محمد الصالح رمضان المؤلف: عبدالحميد بن باديس، دار الفتح ـ الشارقة، الطبعة ١، ١٩٩٥م، تحقيق: محمد صالح رمضان.

٤٢ ـ **العنوان في القراءات السبع**، أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد النحوي المقرىء.

٤٣ ـ **العين**، الخليل ابن أحمد الفراهيدي، دار الرشيد ـ العراق، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي.

٤٤ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقوايل في وجوه التأويل**، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت ٥٣٨هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي.

٤٥ ـ **الفرج بعد الشدة**، أبو علي المحسن بن علي القاضي التنوخي، بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق: الدكتور عبود الشالجي.

٤٦ ـ **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.

٤٧ ـ **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر.

٤٨ ـ **الكليات تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.

٤٩ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ٥٤١هـ، مطابع الخير، الطبعة ٢، ١٤١٣هـ ـ ٢٠٠٧م، تحقيق: الرحالة الفاروق، عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبدالعال السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق.

٥٠ ـ **المستدرك بتعليق الذهبي**، الإمام الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد، تحقيق: تعليق الإمام الذهبي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز.

٥١ ـ **المستفاد من الدعاة**، المؤلف: د. عبدالكريم زيدان؛ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٢ ـ **المحيط في اللغة**، الصاحب الكافي الكفاة، أبي القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، عالم الكتب ـ بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، الطبعة ١، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين.

٥٣ ـ **المفردات في غريب القرآن**، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة ٣، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، تحقيق: محمد خليل عيتاني.

٥٤ ـ **المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام**، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة: علي بن نايف الشحود.

٥٥ ـ **المناظرة في أصول التشريع الإسلامي**، للأستاذ المصطفى الوظيفي ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٦ ـ **الموضوعات والإسرائيليات**، محمد بن محمد أبو شهبة، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٥٧ ـ **الموضوعات**، أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي القرشي (٥٩٧هـ)، الطبعة ١، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، ضبط وتقديم وتحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان.

٥٨ ـ **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، المؤلف: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق، بيروت، الطبعة ١، ١٤١٥هـ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي.

٥٩ ـ **النبوات**، تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن عوض، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي.

٦٠ ـ **النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت ٤٥٠هـ)**، دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم.

٦١ ـ **النشر في القراءات العشر**، المؤلف: الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٢ ـ **بحر العلوم**، نصر بن محمد بن أحمد السّمرقندي (ت ٣٧٥هـ)، دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: محمود مطرجي.

٦٣ ـ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، دار الفكر ـ بيروت ١٤٠١هـ.

٦٤ ـ **تفسير البغوي**، أبي عبدالله محمد بن حسين البغوي (ت ٥١٦هـ)، دار المعرفة ـ بيروت، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك.

٦٥ ـ **تفسير ابن أبي حاتم**، عبدالرحمن بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ)، المكتبة العصرية ـ صيدا، لبنان، تحقيق: أسعد محمد الطيب.

٦٦ ـ **تفسير البيضاوي**، أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد (ت ٦٩١هـ)، دار الفكر ـ بيروت.

٦٧ ـ **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٨ ـ **تفسير السمعاني**، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، دار الوطن ـ الرياض، الطبعة ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، غنيم بن عباس بن غنيم.

٦٩ ـ **تفسير الجلالين**، محمد بن أحمد بن أبي بكر المحلي وعبدالرحمن السيوطي، دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة ١.

٧٠ ـ **تفسير القرآن الكريم**، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٧١ ـ **تفسير السراج المنير**، محمد بن أحمد الشربيني الخطيب، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٢ ـ **تفسير الكشف والبيان**، الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، إحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، تدقيق: نظير الساعدي.

٧٣ ـ **تفسير مقاتل**، أبو الحسن مقاتل بن سلمان بن بشر الأزدي بالولاء الثلجي (ت ١٥٠هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٧٤ ـ **تفسير مجاهد**، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج (ت ١٠٤هـ)، المنشورات العلمية ـ بيروت، تحقيق: عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي.

٧٥ ـ **تفسير حقي**، حقي.

٧٦ ـ **تفسير البحر المديد**، المؤلف: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، دار النشر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٧٧ ـ **تفسير المنتخب**، لجنة من علماء الأزهر.

٧٨ ـ **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار النشر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض.

٧٩ ـ **تفسير النيسابوري**، النيسابوري.

٨٠ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المؤلف: عبدالرحمن بن ناصر بن السعدي، مؤسسة الرسالة الطبعة ١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق.

٨١ ـ **تفسير ابن عبدالسلام**، عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي (ت ٦٦٠هـ)، دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الوهبي.

٨٢ ـ **تفسير البحر المحيط**، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان (ت ٤٦٩هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض.

٨٣ ـ **تفسير القاسمي**، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث القاهري، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٨٤ ـ **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة ٣.

٨٥ ـ **تهذيب اللغة**، المؤلف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري دار النشر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ٢٠٠١م، الطبعة ١، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٨٦ ـ **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير الأحكام.**

٨٧ ـ **تفسير القرآن**، المؤلف: عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ١١٨٢هـ)، الطبعة ١، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد.

٨٨ ـ **تفسير ابن أبي زمنين**، أبو عبدالله بن أبي زمنين المري، دار الفاروق الحديثة ـ القاهرة، الطبعة ١، ١٤٢٣هـ، تحقيق: أبو عبدالله حسين بن عكاشة.

٨٩ ـ **تفسير المراغي**، المؤلف: أحمد مصطفى المراغي، الطبعة ١، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٩٠ ـ **تهذيب التفسير وتجريد التأويل**، عبدالقادر بن شيبة الحمد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض، الطبعة ١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٩١ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، الطبعة ١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، المحقق: أحمد محمد شاكر.

٩٢ ـ **حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع**، المؤلف: ابن السبكي (ت ٧٧١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤٢٠هـ.

٩٣ ـ **حجة القراءات عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة ٢، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، تحقيق: سعيد الأفغاني.

٩٤ ـ **حوار الأنبياء مع أقوامهم**، عبده بن عبدالله بن محمد الحميدي، مكتبة الإرشاد ـ اليمن، الطبعة ١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٩٥ ـ **خواطر على طريق الدعوة**، أبو أحمد محمد بن حسان، ١٤١٣هـ.

٩٦ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، في ضوء السنة النبوية الشريفة، المؤلف: عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، جمعه ورتبه وفهرسه: الفقير إلى الله عبدالرحمن الشامي.

٩٧ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، المؤلف: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٩٨ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، المؤلف: عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة ٣، ١٤٠٤هـ.

٩٩ ـ **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة، دار الفكر ـ بيروت.

١٠٠ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة**، هبة الله بن الحسين بن منصور اللالكائي أبو القاسم، دار طيبة ـ الرياض، ١٤٠٢هـ، تحقيق: أحمد سعد حمدان.

١٠١ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

١٠٢ ـ **شرح رياض الصالحين للعثيمين**، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ).

١٠٣ ـ **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (ت ٢٧٣هـ)، دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي مع الكتاب، تعليق محمد فؤاد عبدالباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

١٠٤ ـ **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

١٠٥ ـ **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية ـ لبنان، الطبعة ١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، تحقيق: عبدالغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

١٠٦ ـ **صحيح البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري**، أبو عبدالله، دار ابن كثير ـ بيروت، الطبعة ٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، تحقيق: مصطفى ديب البغا.

١٠٧ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

١٠٨ ـ **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، دار المغني ـ الرياض، الطبعة ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٠٩ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله (ت ٧٥١هـ)، دار ابن القيّم ـ الدمام، الطبعة ٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر.

١١٠ ـ **فتاوى اللجنة الدآئمة للبحوث العلمية والإفتاء**، أحمد بن عبدالرزاق الدويش، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

١١١ ـ **فتح القدير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الفكر ـ بيروت.

١١٢ ـ **في رحاب قصص القرآن**، الشيخ عبدالحميد كشك، مكتبة الصحافة ـ العباسية، ٢٠٠٤ م راجعه وقدم له: محمد عبدالله السمّان.

١١٣ ـ **قصص الأنبياء والمرسلين**، الشيخ محمد متولّي الشعراوي، المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١١٤ ـ **قصص الأنبياء**، المؤلف: أبي الفداء إسماعيل بن كثير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، دار الكتب الحديثة ـ عابدين، الطبعة ١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، تحقيق: مصطفى عبدالواحد.

١١٥ ـ **قصص السّابقين في القرآن**، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق، الطبعة ٥، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١١٦ ـ **كتب ورسائل ابن عثيمين**، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ).

١١٧ ـ **كفّار قريش وآيات الإقتراح**، دراسة في ضوء القرآن الكريم، إعداد: د. سليمان بن عبدالله السويكت، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس والعشربن، محرّم ١٤٢٠هـ.

١١٨ ـ **لباب التأويل في معاني التنزيل**، الخازن أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي (ت ٧٤١هـ).

١١٩ ـ **لباب النقول في أسباب النزول**، أبي الفضل جلال الدين عبدالرحمن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد عبدالشافي.

١٢٠ ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر ـ بيروت، الطبعة ١.

١٢١ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٢ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، المؤلف: محمد أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله (ت ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية ـ لبنان.

١٢٣ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

١٢٤ ـ **مجموع فتاوى ابن تيمية**، المؤلف: تقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مكتبة ابن تيمية، الطبعة ٢، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد القاسمي.

١٢٥ ـ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، المؤلف: عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي (ت ٧٠١هـ).

١٢٦ ـ **مقياس اللغة**، المؤلف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون.

١٢٧ ـ **معاني القرآن الكريم**، المؤلف: للإمام أبي جعفر النحاس الطبعة ١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني.

١٢٨ ـ **معجم الفروق اللغوية**، المؤلف: لأبي هلال العسكري.

١٢٩ ـ **مدارج السالكين بن منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة ٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

١٣٠ ـ **موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ**، جمعها وقدم لها ورتبها: الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود.

١٣١ ـ **مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ**، أهل الجاهلية، أبو المعالي محمود شكري الألوسي، تاريخ النشر ١٤٢٢هـ، الطبعة ١، تقديم وتعليق: علي بن مصطفى خلوف.

١٣٢ ـ **مختصر سيرة الرسول ﷺ**، شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب التميمي (ت ١٢٠٦هـ)، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ـ الرياض، الطبعة ١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٣٣ ـ **مجموع الفتاوى**، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الطبعة ٢، ١٩٩٨م، تحقيق: د. بشار عواد معروف.

١٣٤ ـ **مصنف عبدالرزاق**، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ١١٨٢هـ)، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة ٢، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

١٣٥ ـ **مجموع فتاوى ومقالات ابن باز**، المؤلف: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

١٣٦ ـ **مواقف بني إسرائيل من موسى عليه السلام، في ضوء القرآن الكريم**، إعداد: جواهر بنت علي الهزاع ١٤٢٢هـ، جامعة الملك سعود.

١٣٧ ـ **موسوعة توحيد رب العباد**، محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي، (ت ١٢٠٦هـ)، جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية، دراسة وتحقيق: عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعيد.

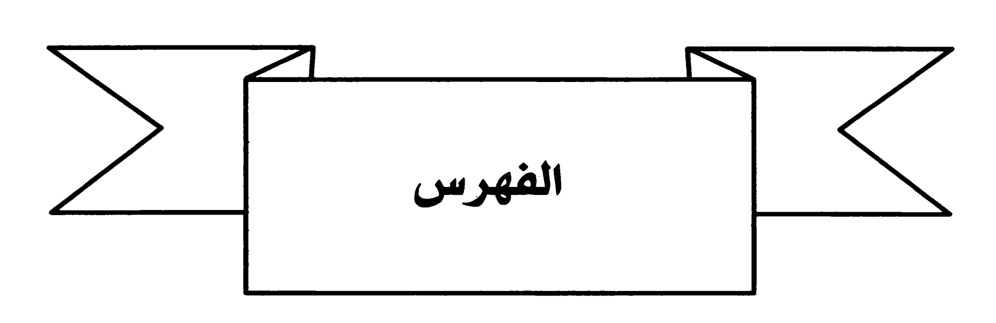
١٣٨ ـ **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٣٩ ـ **موقف الملأ من دعوة الرسل في قصص القرآن الكريم وكيفية مواجهته**، إعداد: عبدالرحمن محمد البرادعي ١٤١٤هـ، جامعة أم القرى.

١٤٠ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي أبو الحسن برهان الدين (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتب ـ بيروت، الطبعة ١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي.

١٤١ ـ **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، محمد بن أبي بكر أبو عبدالله (ت ٧٥١هـ)، الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة.





الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة